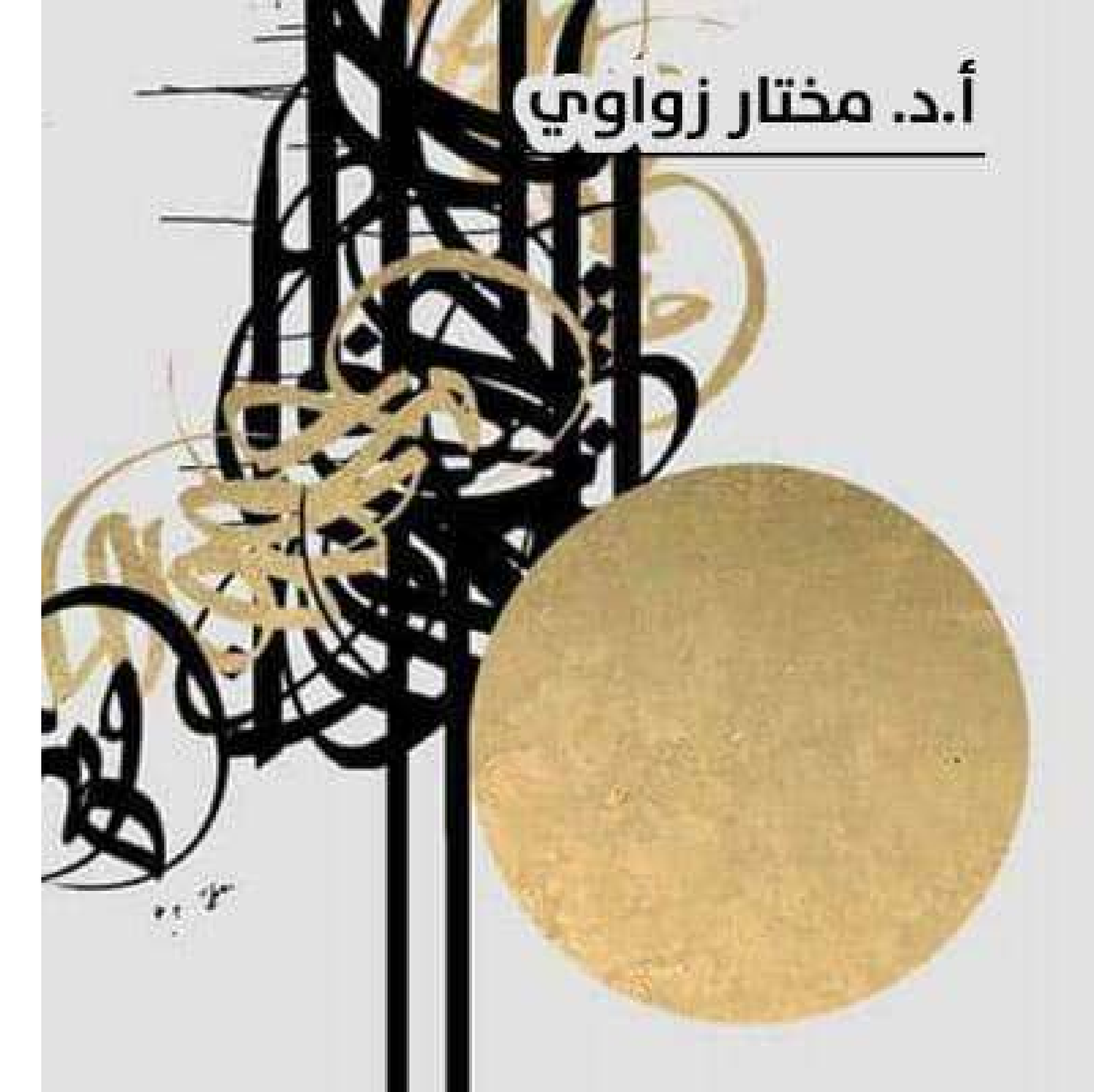


أ.د. مختار زواوي

سلسلة بحوث سوسيرية جديدة

مسائل في تلقي النظرية السوسيرية

دراسة

دار ومضة

مسائل في تلقي
النظرية السوسيرية

عنوان الكتاب: مسائل في تلقي النظرية السوسيرية

المؤلف(ة): أ.د. مختار زواوي

التخصص الأدبي: دراسة

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع: 978-9931-875-37-6

النّاشر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة

إيميل: wamdaedition@gmail.com

Dar.wamda7@gmail.com

هاتف: 00213657300415 / 034 54 49 88

المدير العام: سميرة قنون

المدير التنفيذي: ليلى لوكريف

تدقيق وإخراج فني: فريق ومضة

تصميم: إيمان عبد الحكيم

أ.د. مختار زواوي

سلسلة بحوث سوسيرية جديدة

مسائل في تلقي النظرية السوسيرية

دراسة



للنشر والتوزيع والترجمة

بيان: من أجل مشروع نظرية لسانية عربية

بسم الله الرّحمن الرّحيم والصّلاة والسّلام على سيّدنا ونبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد فإن البحوث التطبيقية التي اتخذت لسانيات دو سوسير الجديدة منطلقا لها بحوثٌ قليلة معدودات، وهي مقارنة بالبحوث التي اتخذت كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير منهلا لها تكاد تكون تقتصر على اللسان الفرنسي دون غيره من الألسن الغربية، فلا نعلم من هذه البحوث إلا رسالة الدكتوراه التي أعدّتها الباحثة كريولا تينول، تحت إشراف سيمون بوكي، محقق كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة[1]. ولعل السبب الرئيس لهذه القلة يكمن في قلة احتفاء الباحثين الغربيين بلسانيات دو سوسير الجديدة مقارنة باحتفائهم بكتاب المحاضرات، إذ ما يزال هذا الكتاب، في عدد من دوائر الفكر الغربي ومجالاته، المنفذ الرئيس للِّسانيات السوسيرية على الرغم مما انتهت إليه الفيلولوجيات السوسيرية، وما كتب السوسيريون الجدد[2].

ولئن كانت البحوث التطبيقية التي اتخذت لسانيات دو سوسير الجديدة منطلقا لها بحوثٌ قليلة معدودات في الألسن الغربية، فهي منعدمة في اللسان العربي، للسبب نفسه الذي حال دون احتفاء الباحث العربي بهذه النصوص الجديدة وتعلّقه التام بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، منذ ثمانينيات القرن الماضي التي أخرجت لنا خمس ترجمات مختلفات، حالت هي الأُخَر دون تمثل فكر دو سوسير التمثّل السديد. ولقد شاع هذا الكتاب بين الباحثين

[1] - C. Baltaretu Thénault, La renaissance néosaussurienne du paradigme différentiel en linguistique et son illustration négative par la théorie du présent de l’indicatif en français, thèse de Doctorat soutenue le 09 décembre 2014, sous la direction de Simon Bouquet, Paris, Université Paris Ouest Nanterre.

[2] - ينظر القسم الأوّل (مقدمات في الفيلولوجيات السوسيرية) من ترجمتنا: فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، بيروت، دار ابن النديم ودار الروافد الثقافية- ناشرون، الطبعة الأولى، 2021.

والطّلبة فصرفهم عما كانت الفيلولوجيات السوسيرية تجتهد، منذ نهاية خمسينات القرن الماضي، في التنبيه إليه، فتدعو إلى ضرورة إعادة النظر من جديد في كراسات طلبة دو سوسير التي باتت أحق بالتأمل من كتاب المحاضرات.

إنّ العثور على مخطوطاتٍ لدو سوسير، عام 1996، وتحقيقها ونشرها عام 2002، تمخضّ عنه تيار لساني جديد، يدعو إلى التحقّق من مشروع دو سوسير والاجتهاد في تطويره، من خلال الكفّ عن التعلّق بكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة والإقبال، بدلا من ذلك، على النصوص السوسيرية، تفسيرا أو تأويلا، إذ لم تعد اللسانيات التي أفنى دو سوسير حياته في التأسيس لها لسانياتٍ لا تُعنى إلا باللسان، سواء آنيا، أو تاريخيا، أو جغرافيا، ولا تتخذ من الكلام موضوعا لها، على نحو ما روّج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل بات مشروع دو سوسير لسانياتٍ موحدة للسانيات اللسان ولسانيات الكلام.

لقد صرف المرض، ثم الموت، دو سوسير عن التعمّق في مشروعه اللساني والسيميائي إلى سنة جامعية رابعة، وهي السنة التي أعلن عن نيته للتطرق فيها إلى ممارسة ملكة اللغة من قبل الفرد المتكلم، أي إلى مسائل من لسانيات الكلام التي، على الرغم من الإشارات العبارات، في السنوات الجامعية الثلاث، بقيت مشروعا يطلب إتماما وتطويرا. وفي الوقت الذي ظلّت فيه لسانيات اللسان تغتني كلّما حُقّق من كراسات طلبة دو سوسير الشيء الجديد، ظلّت لسانيات الكلام تراوح مكانها، لا تنفك تكون مجرّد إشارات عابرات، على الرغم من أهميتها التنظيرية. لكن تحقيق كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة، ونشرها عام 2002، أحدثا تحوّلا عميقا في تلقي فكر دو سوسير، وصار كتابه، في جوهري اللغة، الذي نشر ضمن هذه الكتابات، إلى جانب كتابات جديدة عثر عليها معه، وكتابات قديمة كان رودلف أنغلر قد نشرها ضمن طبعته النقدية عامي 1968 و1974، مصدرا أصيلا من مصادر مشروع لساني يرنو إلى تأسيس لسانيات عامة، مُوحِّدة للسانيات اللسان ولسانيات الكلام.

ولقد باتت كثيرةً الشّواهدُ الدالة على أن قناعة دو سوسير بعدم انفصال لسانيات اللسان عن لسانيات الكلام استقرت لديه منذ السنوات الأولى من توليه التدريس بجامعة جنيف عام 1891، وأنهما تنطويان على جملة من

المعارف، أو المواد العلمية التي لا يمكن، ولا يجوز، الفصل بينها، فقد كتب يقول في درسه الافتتاحي الذي ألقاه بجامعة جنيف في العام نفسه: «إن الدراسة العامة للغة « langage » لا تنفكّ تتغذّى من كل نوع من أنواع الملاحظات التي يمكن تقييدها في الحقل الخاص بهذا اللسان أو ذاك، ولو أننا سلّمنا فرضا أن ممارسة الكلام وظيفة طبيعية عند الإنسان، وهي وجهة النظر الفاسدة التي ما يزال يرتضيها عدد من المدارس الأنثروبولوجية واللسانية، فإنه يجب التوكيد، التوكيد التام، على أن العلم لا يمكن له أن يُقبِل على النظر في ممارسة هذه الوظيفة إلا من جانب اللسان، أو من جانب الألسن الموجودة»[3]. ولئن كان في هذا القول ما يفسّر، في نظرنا، انشغال دو سوسير بلسانيات اللسان السنوات الطوال، تمهيدا للسان الكلام، فإن فيه أيضا دلالة صريحة على العلاقة التي يجب أن تقيمها لسانياتٌ للكلام مع دراسة اللسان بوصفه نسقا نظريا من العلامات، ومع دراسة الألسن المختلفة بوصفها أنساقا وضعية من العلامات.

والظاهر أن ضرورة عدم الفصل بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام لم تكن، في هذه السنوات الأولى من توليه تدريس مادة اللسانيات بجامعة جنيف، مجرد قناعة ناجمة عن تصور عام، بل إن تصوره للمواد العلمية التي تتألف منها هذه اللسانيات العامة المُوحَّدة كان قد بلغ درجة متطورة من النضج، فقد باتت معادلته السيميائية المشهورة: «السيميولوجيات = المورفولوجيات، النحو، التركيبيات، الترادف، البلاغة، الأسلوبيات، المعجميات، الخ.، الكل متصل»[4]، تعبر عن مشروع يروم التأسيس لمنهج جديد.

❋ ❋ ❋

لقد آن لنا أن نجتهد في استثمار أفكار دو سوسير الجديدة، والبحوث التي استندت إلى هذه الأفكار، للتأسيس لمنحى لساني عربي جديد، وحجتنا في ذلك أن اللسانيات العربية وجدت في طريقها، منذ نشأتها الأولى، أفكارا لسانية غربية، فأثّرت فيها وتأثّرت بها، وإن النحو العربي، في مرحلة من مراحله، وجهود الباحثين المحدثين العرب، يدلاّن على ذلك. وإننا إذ ننحو هذا

---

[3] - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002, p. 146.

[4] - Idem, p. 45.

المنحى فذلك لأننا على يقين بأن اللسانيات العربية خليقة، بما أبدعت من مفاهيم وتصوّرات، بأن تحاور لسانيات دو سوسير الجديدة محاورة جادة، وإنا لذلك ضاربون المثل الآتي: لقد باتت مسألة تحديد وحدات اللسان، والكلام أيضا، من بين المسائل الأولى التي أولاها دو سوسير عنايته، إن لم تكن أهمّها بدليل قول دو سوسير: «سيكون على اللسانيات أن تجتهد في تحديد هذه الوحدات والتعرّف على كل أنواعها. ولا يمكننا القول بأنها كانت تدرك هذه الضرورة، فقد اعتادت على البحث في وحدات غير محددة تحديدا سويا. وليس تحديد العلامات هذا المسألةَ الأولى التي يجب أن تضطلع بها اللسانيات وحسب، بل هي إن فعلت ذلك تكون قد حققت كل الغاية التي تروم»[5].

إنّ اللّسانيات السوسيرية عندما راحت تؤسس لنفسها لم تجد في اللسانيات السابقة، ولاسيما لسانيات القرن التاسع عشر، وعيا بضرورة التعرّف على الوحدة اللسانية الدالة (الدنيا) التي وجب أن تُقيم عليها ممارساتها التاريخية المقارنة، فقد بات « le mot » (الذي اعتدنا، واعتاد الباحثون العرب على ترجمته بالكلمة، وهي في اعتقادنا ترجمة غير سديدة) الوحدة الوحيدة التي تعاملت معها تصريفا وتركيبيا. ثم إن الوحدة هذه لم تكن يُعنَى بها من جانبها الصوتي، بل ظل جانبها المكتوب هو المعتمد في تحليل النصوص والمقارنة بينها منذ أن ترسخّت الممارسات الفيلولوجية الغربية. صحيح أن اللسانيات التاريخية المقارنة تفطّنت، على إثر نشأة الصوتيات، إلى ضرورة تقسيم « le mot » إلى وحدات دالة أدنى، لكنّه ظل على الرغم من بداية هذا الوعي الوحدة اللسانية التي لا يمكن الاستغناء عنها. لكن لسانيات دو سوسير الجديدة وقفت، وتقف، موقفا مخالفا فلا تطمئن البتة إلى « le mot »، بل ترى أنه من الواجب على اللسانيات أن تختبر وحدة لسانية أخرى، فلجأت إلى مصطلح العلامة بديلا، إذ ينسجم هذا البديل مع تعريف اللسان بوصفه نسقا من العلامات.

إنّ اللّسانيات العربية أوفر حظا، في هذا الشأن، من أختها الغربية – وهذا مناط المثال الذي نود ضربه – فقد باتت الكلمة منذ العصور الأولى للفكر اللساني العربي الوحدةَ اللسانية الدالة الدنيا التي لم يجد الباحثون القدامى

---

[5] - F. de Saussure, Deuxième cours de linguistique générale (1908-1909), d’après les cahiers d’Albert Riedlinger et Charles Patois, édité par E. Komatsu, Tokyo, Pergamon, 1997, p. 21.

مشقة في التعرّف عليها، ولا نكاد نجد عند اللغويين العرب القدامى خلافا حول هذه المسألة على الرغم من اختلاف تعريفاتهم لها، إيجازا أو إسهابا، فهي عندم اللفظة الموضوعة للدلالة المفردة، غير المركَّبة، ولئن أوجز جار الله الزمخشري، المتوفي عام 538 هـ، في التعريف بها فقال: «هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع»[6]، فقد ألمح السكاكي، المتوفي عام 626 هـ، في تعريفه لها، إلى أنها الوحدة اللسانية التي لا تقبل القسمة إلى وحدات دالة، فكتب يقول: «الأقرب أن يقال: الكلمة هي اللفظة الموضوعة للمعنى مفردة، والمراد بالإفراد أنها بمجموعها وضعت لذلك المعنى دفعة واحدة»[7].

إنّ المثال الذي جئنا على ذكره يشفع لنا، كغيره من الشواهد الأخرى المبثوثة في مؤلفاتنا السابقة، بأن نباشر محاورتنا للسانيات دو سوسير الجديدة ونحن مطمئنون بعدم ضرورة اللجوء إلى اقتراض المصطلحات الغربية، وما حال مصطلح الحرف العربي بمختلف عن مصطلح الكلمة فهو خليق بأن يُستغنى به، تنظيرا وتطبيقا، عن مصطلح الفونيم المقترض عن اللسانيات الغربية. وإننا إذ نشير ههنا الإشارة المباشرة إلى مصطلح الفونيم، فذلك لأن قراءة سيمون بوكي لتصنيف العلامات الذي استقاه من كتابات دو سوسير الجديدة، تتخذ من الفونيم الوحدة اللسانية الدنيا غير الدالة، أي الفونولوجية، فقد صادف سيمون بوكي، وهو يتتبع الكتابات الجديدة تحقيقا وتمحيصا، هذا النص لدو سوسير الذي يقول فيه: «إن كل نوع من أنواع العلامات الموجودة في اللسان (سواء أكانت علامة صوتية من أنواع مختلفة، أو علامة تامة من مثل الكلمة أو الضمير، أو علامة تكميلية من مثل اللواحق أو الجذور، أو علامة لا دلالة تامة أو تكميلية لها من مثل "صوت" ما من أصوات اللسان، أو علامة غير صوتية كوضع العلامة تلوى العلامة الأخرى)، كل نوع من هذه الأنواع لا يكتسي قيمة إيجابية، بل على العكس من ذلك يكتسي، دائما وأساسا، قيمة سلبية»[8]، فاستخلص بوكي من هذا النص أنماطا ثلاثة من أنماط

---

[6]- أبو القاسم جعفر الزمخشري، المفصل في علم العربية، تح. فخر صالح قدارة، الأردن، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004، ص. 32.

[7]- أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، تح. نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1987، ص. 9.

[8]- فرديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، تر. مختار زواوي، بيروت، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية ناشرون، 2019، صص. 191-192.

علامات اللسان هي: الفونيم، والمورفيم، والموقع التركيبي، ولم نجد مشقة كبرى في التحقق من أن هذه الأنماط تجد ما يقابلها في اللسان العربي وهي: الحرف والكلمة والموقع. وإننا في هذا السياق نطرب إلى قول ابن قيم الجوزية وهو يصف القرآن الكريم، ويعبّر عن وعي بمستويات التحليل اللساني العربي، في مقدمة كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، حين يقول: «كل حرف منه تتفجر به ينابيع من الحكمة، وكل كلمة تمطر منها سحائب الرضوان والرحمة، وكل آية تحتوي على بحار من الإعجاز زواخر، وكل سورة تكاد تنطق بعلوم الأوائل والأواخر»[9].

ولم يكن التحقّق من عدم فصل دو سوسير بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، وعدم إقصائه لهذه الأخيرة من حقل اللسانيات العامة، خلافا لما روّج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنشور من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، أمرا عسيرا على الباحثين بقدر ما كان عسيرا تفكيرهم في البحث عن إبراز الصلة بين اللسانيتين والاهتداء إلى سبيل توحيدهما. وإننا إذ نلمح إلى الجهود التي بُذلت في سبيل تحقيق هذا المسعى فإننا كنا قد مِلنا، حدسا، إلى الجهود التي بذلها سيمون بوكي، وإن النظرية التي أطلق عليها تسمية «لسانيات دو سوسير الجديدة التأويلية»[10]، تلجأ إلى تأويليات الفيلسوف الألماني فريديريك شلايرماخر (1768-1834)، فتستقي منه المبدأ الذي يقرّ بأن العام يحدد المحلي. إن ميلنا، حدسًا، إلى جهود سيمون بوكي له ما يُبرِّره، على الرغم من أهمية الجهود الأخرى التي بذلها على سبيل المثال فرانسوا راستيي وآخرون، فقد أسهمت لقاءاتنا المتكرّرة بسيمون بوكي بباريس، ومراسلاتنا معه التي لم تنقطع، في توطيد قناعتنا، بعد تَمثّلنا لنظريته وفهمها، بقدرة اللسانيات العربية على محاورة هذه النظرية محاورة جادة، كما إن السُنّة التأويلية التي ما انفكت تزداد نشاطا وتمكينا في موروثنا

---

[9]- شمس الدين ابن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، بيروت، دار الكتب العلمية،، 2019، ص. 14.

[10] - « Linguistique néosaussurienne de l'interprétation », in S. Bouquet, « Principes d'une linguistique de l'interprétation : une épistémologie néosaussurienne », Langages n° 185, 2012, p. 22.

الفكري العربي والإسلامي كانت هي الأخرى حافزا لنا للمضي في بيان هذه النظرية.

* * *

إنّ من بين الغايات التي يسعى إليها هذا المشروع (في هذا الكتاب، وفي مؤلفاتنا الأخرى)، التوكيدُ على أن اللسانيات العربية تتوّفر على المصطلحات والمفاهيم التي تُمكّنها من محاورة لسانيات دو سوسير الجديدة، دون الحاجة إلى اللجوء إلى الاقتراض. لكننا لا نريد الاقتصار على هذا المطلب على الرغم من أهميته الفكرية والحضارية، إذ لم تقتصر هجرة المصطلحات الغربية المقترضة إلى فرع واحد من فروع اللسانيات العربية، بل طالت عددا من العلوم العربية الأخرى، في حين أن اللسان العربي الواصف، ونعني به مجموع المصطلحات التي وضعها أسلافنا لوصفه، كفيلة بأن تكفينا شر الاقتراض.

إنّ مسعى توحيد علوم العربية الذي نجتهد في تجسيده، مقدمة رئيسة في هذا الشروع، وهو يسير على خطى دو سوسير المُوحَّد للسانيات اللسان ولسانيات الكلام، وإن المعادلة السيميائية التي أسلفنا الإشارة إليها هي المنوال الذي سنهتدي به في سبيل تحقيق تلك الوحدة المعرفية، ولهذه الغاية سنفرد كتابا خاصا بها. ولقد شجّعنا على المضي في هذا السبيل تقسيمُ أسلافنا علوم العربية إلى علوم تُعنى بالمفرد، وعلوم تُعنى بالمُركَّب، وصنّفوا ضمن علوم المفردات ما اصطلحوا على تسميته بعلم متن اللغة، وعلم التصريف، وعلم الاشتقاق. فإن نحن تأمّلنا تعريفاتهم التي حدّوا بها هذه العلوم لألفيناها تشترك كلّها في اتخاذ الكلمة وحدتها الدالة الدنيا، فأطلقنا عليها تسمية علوم الكلم العربي (أو علم المفرداتيات). فهي إذ تُعنى في نظرنا بموضوع واحد من وجهات نظر مختلفة، لا يكاد يستغني الواحد منها عن الآخريْن، فعلم متن اللغة يحتاج إلى التصريف، كما قال شمن الدين الأكفاني المتوفي عام 749 هـ، كما بيّن ابن عصفور الإشبيلي المتوفي عام 669 هـ العلاقة بين علمي التصريف والاشتقاق فقال: «ومِما يُبيّن شرفه أيضا أنه لا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به».

كما صنّفوا ضمن علوم المركّبات علم النحو وعلمي البيان والمعاني ولن يشقّ علينا الاهتداء، كما في علوم الكلم العربي، إلى الوحدة اللسانية الدنيا لهذه العلوم، فهي في اعتقادنا الجملة، فها هو عبد القاهر الجرجاني المتوفي عام 471 في دلائل الإعجاز يقول: «ومختصر كلَّ الأمر أنّه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنّه لا بدّ من مسند ومسند إليه، وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة كإن وأخواتها، ألا ترى أنك إذا قلت "كأنّ" يقتضي مشبها ومشبها به كقولك: :كأن زيدا الأسد" وكذلك إذا قلت "لو" و"لولا" وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جوابا للأولى».

ثمّ إنّ أنت نظرت في المؤلّفات التي وضعها أسلافنا في علوم المُركبَّات هذه لوجدت العلم منها لا يستقيم دون الحاجة إلى العلمين الآخرين، وإن نظرية النظم الجرجانية لخير دليل على التعالق الحاصل بين علم النحو وعلم المعاني من جهة، وعلم النحو وعلم البيان من جهة أخرى. ولا تقتصر العلاقة بين علوم المفردات فيما بينها، أو بين علوم المركبات فيما بينها، بل إن بين المجموعتين علاقات لا تنفصم، فقد كتب ابن جني، في العلاقة بين التصريف وعلم النحو، يقول: «فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلمة الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة، وإذا كان كذلك، فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف، لأن معرفة ذات الشيء الثابت ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حالة المتنقل».

وليست الشّواهد اللسانية العربية التي جئنا على ذكرها كافية للمضي في هذا المشروع، بل إن تجسيده يطلُب استقصاء كل ما توفّر من علوم القدامى اللسانية، وإننا في هذا الشأن نود التذكير بموقفنا من الحدود التي وضعت للسانيات العربية، من خلال التعريف الذي بتنا نهتدي به في جل مؤلفاتنا، إذ إن اللسانيات – عندنا - هي الدراسة العلمية للسان والكلام العربيين، سواء كتبت هذه اللسانيات بلسان عربي أو بلسان أجنبي. وإن التمييز الذي اقترحه عدد من الباحثين بين اللسانيات العربية ولسانيات اللغة العربية تمييزٌ لا جدوى منه في اعتقادنا، إذ إن البحوث التي عُنيت باللسان العربي، سواء كتبها باحثون عرب، أو باحثون أجانب من مستشرقين أو معرَّبين كلّها تنضوي عندنا في دائرة اللسانيات العربية، وتسعى كلّها إلى استكشاف خصائصه التي تميزه عن باقي الألسن أو تقرّبه منها.

ولا يجب أن تقتصر اللسانيات العربية على ما يمكن ذكره من اجتهادات اللغويين العرب، وغير العرب، بل يجب أن تستعيد - في اعتقادنا - إذا ما رامت الشمولية والسعة، كل ما خاضت فيه العلوم العربية الأخرى (كعلوم القرآن، والتفسير، وعلم الأصول)، وغيرها من العلوم التي تأملّت في اللسان العربي بغية تفسير مسائل تعنى بها. إن النظر – مثلا - في كتاب بدر الدين الزركشي، المتوفي عام 794 هـ، «البرهان في علوم القرآن»، سعة المعارف اللسانية التي يحتوي عليها هذا السفر، وهي كلّها معارف لا سبيل للسانيات العربية إلا أن تستفيد منها من أجل الإسهام بها في فهم طبيعة اللسان العربي وخصوصيته التي ينفرد بها عن سائر الألسن، والتأسيس للسانيات خاصة.

شُكر

إنّ فكرة سلسلة المؤلّفات الّتي ننوي وضعها في سبيل تحقيق هذا المشروع انبثقت من المحادثات الّتي كانت لنا مع القائمين على دار ومضة (الجزائرية) للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، وما كان لنا أن نخوض فيها لولا ما وجدنا من حرصٍ وعنايةٍ، وثقةٍ بنا، عند الدكتورة سميرة قنون، القائمة على إدارتها، فلها منّا جزيل الشكر والامتنان.

مقدّمة الكتاب

يضمّ هذا الكتاب مجموعة من المقالات المتفرقات التي كتبناها في مناسبات مختلفة، استجابة لطلب عدد من الأساتذة الأصدقاء، لكنها كلّها مقالات تمتح من معين واحد وتبغي غرضا واحدا، فأما المعين الذي تمتح منه فهو لسانيات دو سوسير الجديدة، وأما الغرض الذي تطلب فهو التوكيد على أن هذه اللسانيات لسانيات موحِّدة للسانيات اللسان ولسانيات الكلام.

ويتألّف الكتاب من قسمين: فأما القسم الأوّل فيضم فصولا أربعة تشترك في البحث في طبيعة تلقي لويس برييطو، وبول ريكور، وأوزفالد ديكرو، وعبد الرحمن الحاج صالح، للسانيات دو سوسير من طريق كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، باستثناء لويس برييطو الذي راح يؤسس لسيميولوجيات تستند إلى عدد من المخطوطات السوسيرية، وأما القسم الثاني فيضم هو الآخر فصولا أربعة، يعالج الفصلان الأوّلان مسألة الكتابة السوسيرية، فيعيد الأوّل النظر في دعوى شارل بالي وألبير سشهاي التي مفادها أن دو سوسير كان يمزّق تباعا مسودتاه التي كان يحضر بها دروسه، ويردّها من وجوه، بينما يقف الثاني عند ظاهرة المحو التي كان دو سوسير يمارسه في مخطوطاته، وبينما راح الفصل الثالث يعالج مسألة القطيعة الأنطولوجية التي أحدثها دو سوسير مع تصوّرات القرن التاسع عشر اللسانية، راح الثاني يستطلع مسألة اهتمام دو سوسير بالشعر العربي ويبحث في سر سؤاله عنه.

لقد كثر البحث في السنوات الأخيرة في طبيعة تلقي البحوث الحديثة والمعاصرة لفكر دو سوسير اللساني والسيميائي، والظاهر أن هذا التلقي مرّ بمراحل أربعة، ومن شأن المتأمل في تاريخ الدراسات السوسيرية اللسانية التمييز في تلقي محاضراته في اللسانيات العامة لدى الغرب بين مراحل أربعة: مرحلة أولى تشمل العقود الثلاث الأولى من القرن الماضي، ومرحلة

ثانية تبدأ بانعقاد المؤتمر العالمي الأوّل للغويين عام 1928 وتمتّد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم تليها مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وتنتهي ببداية المرحلة الرابعة التي تتزامن مع بداية إخراج مخطوطات دو سوسير الأصلية إلى الناس وتحقيقها. وليس لنا أن نعيد وصف هذه المراحل فقد أفردنا لها قسما من كتابنا «دو سوسير من جديد» (2018)، لكننا نود الآن تحديد موقع كل باحث من الباحثين الأربعة (لويس برييطو، وبول ريكور، وأوزفالد ديكرو، وعبد الرحمن الحاج صالح) من تاريخ هذا التلقي وخصوصية كل واحد منهم.

فأمّا لويس برييطو فقد بدأ تلقيه لفكر دو سوسير من طريق غير مباشرة، من خلال الترجمة الإسبانية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، والبنيويات الأوروبية (بحوث مدرستي براغ الروسية وكوبنهاغن الدنماركية). ولذا فإن تلقي لويس برييطو ينتمي إلى المرحلة الثانية (البنوية) ويتصل بانخراطه في التيار اللساني البنيوي الذي اتخذ من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة دليله الرئيس، لاسيما باتصاله بفونولوجيات نيكولاي تروبتسكوي ووظيفية أندري مارتني. لكن برييطو، خلافا للباحثين الثلاث الآخرين، ما فتئ أن تجاوز هذا التلقي إلى مرحلة أخرى اتصل فيها مباشرة بفكر دو سوسير الأصيل بداية بقراءة كتاب الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي نشره روبار غودال عام 1957، وقراءة مقدمة محاضرات السنة الجامعية الثانية (1908–1909) التي حققها غودال أيضا ونشرها في العام نفسه في العدد الخامس عشر من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير. ونحسب أن برييطو كان أوّل من دعا إلى ضرورة إخراج طبعة نقدية لكتاب الحاضرات في اللسانيات العامة، وكان توسم آنذاك في روبار غودال القدرة على تحقيق ذلك.

وأمّا بول ريكور فإن طبيعة تلقيه لفكر دو سوسير تختلف عن طبيعة تلقي برييطو، إذ بينما انخرط برييطو في التيار البنيوي وراح يؤسس لسيميولوجيات جديدة، كان تكوين ريكور الفلسفي التأويلي أسبق من اهتماماته اللسانية المحضة. ولئن كان هذا الأخير تناول مسائل تتصل بالفكر البنيوي والسرديات البنيوية فإنه تناولها من منافذ فلسفية، بيد إن كثافة التأليف لدى ريكور وتناوله لمسائل عديدة من علوم أخرى عادة ما تحول دون إنزاله منزلة معلومة من تخصص علمي محدّد، فقد خاض في الترجمة، وفي الأيديولوجيات،

والسيميائيات (لاسيما سيميائيات غريماس، وغيرها من المعارف التي لا يتيسر معها تصنيفه في إحداهن.

وليس أحسن تعبيرا عن هذا التعدد المعرفي الذي تميزت به آثار ريكور من شهادة جاك دريدا إذ كتب يقول في حقه: «ليس لي أن أخفي، بكل صدق، شعوري بقلة حيلتي، لكنني أقر أن القوة ما خانتني يوما بقدر ما أفتقدها اليوم من أجل مقاربة آثار ريكور الهائلة، في شكل دراسة أو نقاش فلسفي. إذ كيف السبيل إلى الاقتصار على واحد من المواطن، أو واحدة من المحطات التي توالت على امتداد مساره الطويل، والغني، وتنوعت عبر عدد كبير من الميادين، والتيمات والمسائل: من الإيتيقا إلى التحليل النفسي، ومن الفينومينولوجيات إلى التأويليات وعلم اللاهوت، وعبر التاريخ والمسؤوليات التي تفرض علينا، في كل يوم، ومنذ عقود، من خلال تاريخ الفلسفة، ومن خلال التفسير المتفرّد لعدد كبير من الفلاسفة، من أرسطو أو أوغسطين إلى كانت، ومن يسبرس وهوسرل إلى هايدغر أو لفيناس، دون ذكر فريد، ودون ذكر كل الفلاسفة الأنجلوسكسونيين الذين أقدم، بكل شجاعة ووعي، على قراءتهم، والدعوة إلى قراءتهم، والاستفادة منهم في أعماله المجددة»[11].

وليس – إذن – من اليسير تتبّع كل المواطن التي احتفى بها بول ريكور بفكر دو سوسير، أو عبّر فيها عن موقف رافض، في كل هذه الآثار الفكرية المترامية الأطراف التي خلّفها لنا، وإن هذا المسعى يتطلب من الجهد والتفرّغ، للأيام الطوال، من أجل تصفح مئات الصفحات التي خاضت في العلوم الشتى. ولئن كنا اهتدينا إلى كتاب الاستعارة الحية، وإلى المواطن التي عبّر فيها بول ريكور عن رفضه لجملة من التصورات السوسيرية، فإنما كان ذلك بإشارة من مقال، قرأناه على عجل، لم نعد نذكر صاحبه الآن. إن تصفّح كتاب الاستعارة الحية وتمثّل المواطن التي استدعى فيها بول ريكور اسم دو سوسير هدتنا إلى ضرورة تفقّد المنافذ الخفية التي نفذ منها فكر دو سوسير إلى الثقافة العربية، لاسيما من طريق ترجمة كتاب الاستعارة الحية وآثار فكرية غير لسانية أخرى إلى اللسان العربي، لكنها مكّنتنا، في الآن ذاته، من الانتصار لفكر دو سوسير الأصيل، في مقابل مضامين كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي انتهى ريكور إلى ردّ جملة من التصورات التي نسبها

[11] - J. Derrida, La parole. Donner, nommer, appeler, in M. Revault d'Allonnes et F. Azouvi (dir.), Paul Ricoeur, Paris, Editions de l'Herne, 2004, p. 19.

لدو سوسير، مصدقا بذلك، قبل سنين من حلولها، مع نشر الكتابات عام 2002، أطروحات السوسيرية الجديدة، لاسيما ما تعلّق منها بعدم الفصل بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام. لقد انتهى بول ريكور، وهو ينظر عن كثب في طبيعة الاستعارة المزدوجة، النسقية والتاريخية، وانتمائها المزدوج إلى اللسان وإلى الكلام معا، إلى هذه الأطروحة بالذات.

وأمّا أوزفالد ديكرو فإن مساره اللساني ظاهر وتحوّله إلى اللسانيات التداولية بارز هو الآخر في جملة من مؤلفاته، فقد باتت كتاباته تؤسس منذ سبعينيات القرن الماضي لتيار تداولي جديد، سمي بالتداوليات المدمجة، إيذانا بإدراج التداوليات كفرع من فروع اللسانيات، وقد أوكلت لها مهمة تفسير الوقائع اللسانية (أو الملفوظات) التي تعجز الدلاليات عن الاضطلاع بها، وهو خلافا للتداوليات المعرفية التي طوّرها كل من سبيربر وويلسون والتي تستقي أسسها الأولى من العلوم المنطقية وفلسفة مدرسة أوكسفورد اللغوية، يستند إلى لسانيات التلفظ التي فطرها إيميل بنفنست في الستينيات وطوّرها من بعده، في السبعينيات، أنطوان كيليولي. وعلى الرغم من الاختلافات التي تميّز بين الاتجاهين التداوليين، فإن كلاهما ينظر إلى اللغة « langage » بوصفها أداة فعل « action »، من أجل تجاوز التصوّر التقليدي الذي يتخذ منها أداة وصف للواقع أو تمثيل له، وردّ المقابلة بين المعنى الحرفي والمعنى غير الحرفي ليغدو البحث عن المعنى غير الحرفي منوطا بتحليل المعنى الحرفي.

ولقد كان للتداوليات المدمجة، في فرنسا، وفي غيرها من البلدان الأوروبية أثرا عميقا في أدبيات اللسانيات الحديثة، فقد بات التمييز بين الجملة والملفوظ – مثلا – منذ بحوث ديكرو الأولى، واحدا من المكتسبات النظرية التي ليس من المفيد الاستغناء عنها، فضلا عن عدد من المفاهيم والمصطلحات التي أثرت المعجم اللساني المعاصر. ولئن كنا بتنا، في إطار مشروعنا حول فكر دو سوسير الأصيل، نعنى بعدد من البحوث التداولية فذلك من أجل ردّ كثير من النقود التي وجهتها لفرديناند دو سوسير، لكن الباحث عندما يصادف هذا القول في واحد من مؤلفات ديكرو، وهو القول الذي مفاده: «إن لسانيات للسان ستبقى مستحيلة إن لم تكن أيضا لسانيات للكلام»، لا يسعه إلا أن يقف عنده متأملا إياه ولا يبرح يعرضه على تصورات دو سوسير الجديدة.

وأمّا عبد الرحمن الحاج صالح فلسنا بحاجة إلى التعريف بمشروعه ولا إلى التذكير بمؤلفاته، فقد اجتهد طوال حياته في الانتصار للتراث اللساني العربي، وأبدع في ذلك سلسلة من الكتب النفاس التي ما تزال يتداولها طلبة العلم ويحرصون على التفقّه منها. ولم يكن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح غافلا عما كان يبدع الغرب من نظريات ومفاهيم، فقد خصّص لها، من أجل التعريف بها، المؤلفات والمقالات الطوال، قصد سد الفراغ الذي كانت تعاني منه المكتبة العربية آنذاك، وإنك لتجده يعبّر عن هذا الفراغ بقوله مثلا: «إن هذا هو أحد الأسباب التي دفعتنا إلى كتابة هذا التحليل، وهناك سبب آخر ملازم له وهو يرجع إلى شعورنا وشعور كل من ألم بشيء من هذا الفن بالفراغ المهول الذي يوجد الآن في صلب الدراسات العربية المتعلقة باللسان البشري العام، فإن الجهل المخيم الآن على المثقفين في البلدان العربية بالإضافة إلى هذه الفنون من المعرفة يكاد يكون شاملا والفراغ المذكور يكاد يكون خلاء مطلقا على حد تعبير الفيزيائيين فما رأينا في أية جامعة عربية دراسات منتظمة في هذه المادة إلا القليل»[12].

ولئن كنّا أفردنا لعبد الرحمن الحاج صالح موطنا من هذا الكتاب، وأدرجناه في القسم الأوّل منه، فذلك لأنه يعنينا من جانب تلقيه للفكر السوسيري، فقد اجتهد الحاج صالح في البحث في التراث اللساني العربي عن ثنائية شبيهة بثنائية اللسان والكلام السوسيرية، وراح في كتاب الخطاب والتخاطب، كشأنه في جل مؤلفاته الأخرى، ينتصر لهذا التراث. وإن لنا ههنا موقفين نود التعبير عنهما، فأما أحدهما، فهو موقفٌ من هذه الثنائية التي راح يؤسس لها عبد الرحمن الحاج صالح، لكننا نرجئ الحديث عنه إلى الدراسة الأخيرة من القسم الأوّل، وأما الثاني فهو موقف من كثير من الدراسات - إن لم يكن كلّها - التي تدعي فهم مشروع عبد الرحمن الحاج صالح، ولا تنفك تستشهد به، وتحرّر من أجله المقالات الطوال، وتنجز من أجله الأطروحات، لا لشيء إلا لأن عبد الرحمن الحاج صالح بات «أبَ اللسانيات العربية»، الذي لا يرد له رأي. إن تهافت طلبة العلم في مجال اللسانيات على كتابات عبد الرحمن الحاج صالح ومقالاته التي ما تزال تحتفظ بها مجلة اللسانيات التي أسسّها عام 1971، لم يفضي - في اعتقادي - بعدُ إلى تبني مشروع لساني

[12] - عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، الجزائر، دار موفم، 2012، ص. 9.

يتمم مشروعه الرائد ويجدد فيه، فيفضي به إلى تطبيقات واستشرافات جديدة.

إنّنا لم نكتفي في هذا الكتاب بترتيب المقالات التي جمعناها فيه ترتيبا يراعي طبيعة المسائل التي خاضت فيها، فمنها ما يتعلق بطبيعة تلقي فكر دو سوسير اللساني، ومنها ما يتعلق به مباشرة، بل رحنا نعاود النظر فيها، تصحيحا واستفاضة، وأضفنا إليها مقالين آخرين، مهّدنا بهما لها. وهما يعبّران عن تجربتنا في نقل المصطلح اللساني الغربي عموما، والمصطلح السوسيري خصوصا، إلى اللسان العربي، وإننا إذ نذكر في هذا السياق أولى ترجماتنا، وهي الترجمة الفرنسية التي صدرت عام 2008، لمداخلة أستاذنا الدكتور أحمد يوسف، السيميائيات بين العلم والفلسفة، بالملتقى الدولي المنعقد في شهر فبراير عام 2007، بالمغرب[13]، فإننا أفنينا بعد ذلك عقدا من الزمن نُعنى بالمصطلح واللغة الواصفة، إن قراءة وتأليفا، إن في مشروع لسانيات دو سوسير الذي نخصص له هذه السلسلة من الكتب، أو في مشروع دراسة ترجمة النص القرآني إلى اللسان الفرنسي الذي عكفنا عليه منذ سنين، فذلك لأننا بتنا على يقين، بأن للمصطلح شأن خطير.

مختار زواوي،

سيدي بلعباس، سبتمبر 2021.

[13] - A. Youcef, La sémiotique : entre science et philosophie, in La sémiotique : de la narrativité à la mise en discours. Actes du colloque international du même nom, Fès, 23-24 février 2007, La Revue des Deux Rives, n° 5, Paris, l'Harmattan, 2008, pp. 227-236.

تمهيد – في اللّغة الواصفة وترجمة لسانيات دو سوسير

اللّغة الواصفة ونسقيّة المصطلحات

- «وقف أعرابي على مجلس الأخفش، فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه فحار وعجب، وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس من كلامنا».

- «إن الكلام على الكلام صعب».

من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

لا يكاد يختلف وضع الباحث عن وضع الميكانيكي المتربّص كثيرا، فهذا الأخير مطالب بأن يحصّل معرفة متقدمة عن الآلات التي سيعنى بتصليحها، وطريقة اشتغالها، لكنه مطالب في الآن ذاته أيضا بتحصيل المعرفة اللازمة من أجل التمييز بين المفاتيح والوظائف التي صنعت لأجلها. وإن وضع الباحث لا يكاد يختلف عنه لأنه مطالب هو الآخر بأن يحصل معرفة متقدمة عن النصوص العلمية التي يعنى بالتعريف بها، ومطالب - إذن - هو الآخر بتحصيل المعرفة اللازمة من أجل التمييز بين المصطلحات المفاتيح التي وضعت من أجل التعريف بالمعارف العلمية التي تنقلها هذه النصوص. وعموما فإن الباحث أمام أمرين، لا ليختار بينهما، بل ليلتزم بهما معا: فأما الأمر الأوّل فيتعلق بالمعرفة المراد الإحاطة بها، بوصفها واقعة تاريخية وموقفا تنظيريا، وأما الثاني فيتعلق باللغة الواصفة التي يستعان بها من أجل التعبير عن هذا الموقف النظري.

وليس الالتزام بتحصيل المعرفة يسيرا في كل أحواله، بل يختلف درجاتٍ باختلاف النصوص العلمية المنقّب فيها عن هذه المعرفة، فهذه النصوص ليست على قدر واحد من الوضوح بل تتفاوت في ذلك بين اليسر والعسر. ثم إن طبيعة المعرفة العلمية ليست هي الأخرى بمنزلة واحدة بحيث يتيّسر تمثّلها لكل من رام ذلك، فكم من المعارف ما شق تحصيلها على طالبها نتيجة التجريد « abstraction » الذي انتهت إليه، ونتيجة عدم قدرته على الارتقاء

إلى درجاتٍ من العموم، وتخليص صفات الموضوع الواحد بعضها عن بعض. يقول صاحب المعجم الفلسفي: «والتجريد عند الفلاسفة هو انتزاع النفس عنصرا من عناصر الشيء والتفاتها إليه دون غيره. مثال ذلك: إن العقل يجرد امتداد الجسم من كتلته، مع أن هاتين الصفتين لا تنفكان عن الجسم في الوجود الخارجي. ومثال ذلك أيضا أنني أستطيع أن أجرد محيط الدائرة عن سطحها، فأنظر إلى محيطها تارة وإلى سطحها أخرى، مع أن لكل دائرة متصورة في الذهن محيط وسطحا لا ينفكان عنها»[14].

بيد إن التجريد على هذا النحو ليس في كل أحواله يسيرا، فإذا كان الذهن خليقا بأن يجرد من صفات غيره من الموضوعات التي يتأمل، إنه يعجز عن أن يجرد من صفاته هو، السيكولوجية والمعرفية، وإن لنا عن هذا العجز مثالا في لسانيات القرن التاسع التاريخية المقارنة، وموقف دو سوسير منه، إذ كتب يقول: «إنه لمدعاة للتفكير الفلسفي، وسيظل دوما كذلك، أن يكون العلم اللساني، الذي نشأ بألمانيا، وتطور بها، وأولع به عدد لا يحصى من الأفراد لمدة خمسين سنة، لم يرتق إلى درجة من التجريد تمكنه من التساؤل عما هو فاعل، ويتساءل عما يحقق لصنيعه أسباب الوجود ويحدد موقعه من مجموع العلوم»[15]. ولعلي لست أبالغ لو زعمت – في هذا السياق – أن قلة إدراك عدد من الباحثين الشباب بضرورة الارتقاء إلى درجة من التجريد هي التي عادة ما تحول دون تمثلهم للاختلافات القائمة بين مفاهيم اللغة « langage »، واللسان « langue »، والكلام « parole »، ويؤدي غيابها إلى الخلط بين المصطلحات.

وتعدّ مسألة المصطلحات، واللغات الواصفة « métalangage » المنجزة لها، من بين المسائل التي لا ينفك الباحثون ينظرون فيها، وينظّرون لها، ويتتبّعون تحولاتها. ولـما كان قوام العلمِ تصوراتُه ومصطلحاتُه، فإن التطورات التي رافقت العلوم منذ ثلاثينيات القرن الماضي رافقتها كثرة في المصطلحات، وإن تاريخ الحضارات لم يشهد تفشيا للمصطلحات، في كل لسان من الألسنة، مثلما هو الشأن اليوم في الألسن المعاصرة، وتكاد هذه الصفة الاجتماعية والثقافية تقتصر على عصرنا الحالي دون سواه من العصور

[14] – جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، الجزء الأوّل، ص. 247.

[15] - F. de Saussure, Notes pour un article sur Whitney, in Ecrits de linguistique générale, p. 205.

الغابرة. ولقد بدت هذه الظاهرة جلية في الألسن المستعملة في البلدان الاقتصادية المتطورة وتلك التي تنتج المعرفة العلمية والتقنية أكثر من غيرها، فقد بات عدد الكلمات غير المتخصصة في الألسن يتضاءل مقارنة بمصطلحات هذا اللسان نتيجة انتشار توجهين جديدين في علوم هذا العصر، وهما ما بات يعرف بالتشارك العلمي « interdisciplinarité »، أو الدراسات البينية والتخصص العلمي[16]، فأما التوجه الأوّل، أي التشارك العلمي، فإنه يستلزم توحيد المصطلحات حتى لا يتسلل إليها الترادف أو الاشتراك اللفظي، وأما التوجه الثاني فإنه يستلزم التوليد « néologie » حتى يواكب المصطلح الإبداع العلمي المتخصص.

لكن التحولات العلمية، والابتكارات التكنولوجية، وتكثّف العلاقات الدبلوماسية، والسياسية، والتجارية بين الأمم، ليست وحدها العوامل التي أسهمت في نشأة المصطلح وانتشاره واختلافه، بل إن التحولات الاجتماعية كان لها هي الأخرى نصيب فيها، ولئن ألمحت الباحثة تيريزا كابري إلى أهم هذه العوامل، فإنها ألحّت كذلك على مدى تأثير نقل المعارف والسلع، بوصفها واحدة من أهم خصائص المجتمعات المعاصرة، في المصطلحاتيات « terminologie » وفي حاجات الأمم اللسانية، إذ إن الحاجة إلى هذا النقل تؤدي، من ناحية، إلى ظهور أسواق جديدة للتبادل العلمي والتقني والثقافي والتجاري، كما تستلزم، من ناحية أخرى، ضرورة وضع مصطلح خاص بكل منتوج منقول والتعامل في الآن ذاته مع التعدد اللساني في مساحات التبادل الجديدة، والاجتهاد في توحيد المصطلحات[17]. إن لفعل الاصطلاح، في هذه الظروف، شأنا عظيما في تحقيق الانتماء العلمي للأمم، واستقطاب التكنولوجيات، وتيسير تعلميها والتدريب عليها. لكن نجاح ذلك مرهون بضرورة العمل على توحيد هذا المصطلح.

لأجل ذلك، ستظلّ مسألة المصطلح، على الرغم من الكتابات والمقالات التي تكتب عنها، وعلى الرغم من الندوات والملتقيات التي تعقد لأجلها، مسألة راهنٍ، تواكب ما استجد من المعارف وما وضع لها من عبارات. وليست

---

[16] - G. Rondeau, Introduction à la terminologie, Québec, Gaëtan Morin, 2e éd., 1984, p. 3.

[17] - M. T. Cabré, Terminology. Theory, methods and applications, tr. J. Ann De Cesaris, Philadelphia, John Benjamins Publishing Company, 1998, p. 4.

اللّغة الواصفة بأيّ حال من الأحوال وضعا قائما لا يعرف تحولا، بل هي في تغير مستمر بتغير يتداخل فيه ما هو مجرد حدس غير محدد المعالم بما يبدو معرّفا موثق المضمون، في اشتراك وثيق مع تطور العلم. لكن التحولات الكبيرة التي ما انفكت تنماز بها المصطلحاتيات (أو علم المصطلحات) لا تسلبها جملة من المبادئ التي باتت قاسمها المشترك، إذ إن المصطلحات تشترك كلها في عدد من العناصر التعريفية التي تميزها عن باقي الوحدات اللسانية الدنيا، أي المورفيمات، أو الكلمات، وإن ترقية هذه المورفيمات (أو العبارات أحيانا) إلى منزلة المصطلح تستلزم توافر جملة من الشروط الاصطلاحية، مهما اختلفت الميادين العلمية أو التقنية أو الفنية التي تنتمي إليها المصطلحات. ونحن إذ نشير إلى اختلاف الميادين العلمية أو التقنية أو الفنية فذلك للتوكيد أيضا على أن المصطلح لا يرتبط بلسان بعينه بقدر ما يرتبط بهذا الميدان أو ذاك.

ولمّا كانت المصطلحات مفاتيح العلوم والدوّال التي تعبر بها عن مفاهيمها، فإن العلوم هذه ما انفكت تجتهد في بلورة لغتها الواصفة التي تكفل للمصطلحات أهم خصيصة من خصائصها، هي خصيصة نسقيتها، أو انتماءها إلى نسق من العلاقات التي تقيمها فيما بينها. وليس ابتكار اللغات الواصفة خاصا بأمة دون أمة، أو تفرد به عصر دون عصر، فقد سبق اللغوي الهندي بانيني إلى التمييز بين مفردات اللسان والمفردات الاصطلاحية (النحوية)[18]، كما ابتكر النحاة العرب القدامى لغاتهم الواصفة التي وصفوا بها لسان القرآن، ونحوهم، وبلاغتهم، وشعرهم، وخطابتهم، مـما حدا ببيير لارشي إلى القول: «إن اللغات العربية الواصفة هي مجموع الخطابات العربية حول العربية»[19]، وأوجز أبو حيان التوحيدي في التعبير عنها فعرّفها بالكلام على الكلام.

---

[18] - G.-J. Pinault, Procédés paninéens, in S. Auroux (éd.), Histoire des idées linguistiques, Tome 1, La naissance des métalangages en Orient et en Occident, 1989, p. 354.

[19] - P. Larcher, « Quand, en arabe, on parlait de l'arabe... Essai sur la méthodologie de l'histoire des 'Métalangages arabes' (I) », Arabica, tome 35, fasc. n° 2, 1988, p. 117.

اللّغة الواصفة، وثنائية الكلام والكلام على الكلام

إنّ مفهوم اللغة الواصفة مفهوم قديم إذن، لكن الاهتمام الذي ما انفك يوليه إياه اللسانيون، على إثر المناطقة، منذ النصف الأوّل من القرن الماضي، لاسيما من قبل ياكبسون، وياريس، ويمسليف، وغيرهم، جلب إليه اهتمام الباحثين الآخرين، لا في حقل اللسانيات العامة وحسب بل في حقول علوم اللغة كلّها، فأضحى هو الآخر موضوع بحث وباتت المواد العلمية، على اختلافات توجهاتها، تنظر في ما أنتجته من مفاهيم بالنقد والتمحيص، وفي الخطابات التي أنجزتها في وصف الوقائع التي تعنى بها، فتعمد إلى توصيفها، وتصنيفها، وتضع لكل مفهوم مصطلحا واحدا خاصا به. إن الإنسان اليوناني أو الإنسان العربي ما انفكا، قديما أو حديثا، يلجآن إلى الصور البيانية في شتى خطاباتهما اليومية أو إبداعاتهما الأدبية، لكن نشأة البلاغة الغربية ونشأة البلاغة العربية ما كانتا ممكنتين لوما لجأ فلاسفة اليونان والبلاغيون العرب القدامى إلى تسمية هذه الصور، ووضع تعريف لها، وتصنيفها، فابتكر كل واحد منهما لغته الواصفة البلاغية.

ولقد عبّر ابن المعتز عن هذه الحقيقة في كتابه البديع بقوله: «قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا من القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين في الكلام الذي سماه المحدثون البديع، ليُعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه»[20]. وكذلك الشأن بالنسبة للنحو العربي، فإن ما عبّر عنه الأعرابي الذي سقنا حديثه في أوّل هذا التمهيد، عندما وقف على مجلس الأخفش، فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه فحار وعجب، وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ قال: «أراكم تتكلمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس من كلامنا»، إنما هو تعبير عن الوعي بنشأة ثنائية جديدة في الفكر اللساني العربي، هي ثنائية

[20] – أبو العباس عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، تح. عرفان مطرجي، ويليه العلم الخفاق من علم الاشتقاق لمحمد صديق حسن خان، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، 2012، ص. 9.

«الكلام، والكلام على الكلام» التي عبّر عنها وعن صعوبة تناولها أبو حيان التوحيدي فقال: «إن الكلام على الكلام صعب»[21].

وليس الكلام على الكلام خاصية تنماز بها أمة دون أمة، بل هي خصيصة رئيسة عامة من خصائص اللغة البشرية التي تميزها عن باقي الأنساق السيميائية أو الرمزية التي ابتكرها الإنسان، لأجل ذلك ضم شارل هوكت إلى مجموع الخصائص هذه قدرة الألسن جميعها على الكلام على نفسها، فعبّر عنها بالمصطلح الإنجليزي « reflectiveness »[22]، وترجمه بسام بركة[23]، وعبد القادر الفاسي الفهري[24]، والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات[25]، ومبارك مبارك[26]، بمصطلح الانعكاسية، وهو مصطلح يدلّ على فكرة دوران الكلام على نفسه التي عبّر عنها أبو حيان بقوله: «وقال أدام الله دولته ليلة: أحب أن أسمع كلاما في مراتب النظم والنثر، وإلى أي حد ينتهيان، وعلى أي شكل يتفقان، وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة؟ فكان الجواب: إن الكلام على الكلام صعب. قال: ولما؟ قلت: لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور وشكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن، وفضاء هذا متسع، والمجال فيه مختلف، فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضه ببعضه، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر وعلى ذلك»[27].

---

[21] – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح. أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، دار مكتبة الحياة، د. ت.، الجزء الثاني، ص. 139.

[22] - C. F. Hockett, A Course in Modern Linguistics, New York, MacMillan, 1958, pp. 137-144.

[23] – بسام بركة، معجم اللسانية، بيروت، منشورات جروس – برس، الطبعة الأولى، 1985، ص. 178.

[24] – عبد القادر الفاسي الفهري، بمشاركة نادية العمري، معجم المصطلحات اللسانية، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2009، ص. 282.

[25] – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، تونس، الطبعة الأولى، 1989، ص. 127.

[26] – مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، بيروت، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1995، ص. 252.

[27] – أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح. هيثم خليفة الطعيمي، بيروت، المكتب العصرية، 2011، ص. 249.

لكن المشقة التي وجدها الأعرابي في فهم مصطلحات النحاة لم تثن هؤلاء عن التعبير عن تصوراتهم الصوتية، والصرفية والتركيبية، تعبيرا سديدا وصياغة لغة واصفة منسجمة، وهي عموما لغة واصفة أنشأها أهلها بمعزل عن كل تأثر بلغات الأمم الأخرى الواصفة، وفي المقابل من ذلك شق على الباحثين المحدثين إنشاء لغة واصفة عربية متكاملة، منسجمة الأركان متسقة العناصر، إذ انصرفت جل جهودهم في السنوات القليلة الأخيرة إلى النقل عن اللسانيات الغربية نقلا يكاد يخلو من مشروع يُؤسَّس له، وبينما ترى كثيرا منهم يشتغلون بترجمة المؤلفات الغربية دون أن تكون لهذه الترجمة غاية سوى التعريف بهذا العلم أو بهذه النظرية. ينصرف البعض الآخر إلى المقارنة بين عدد من التصورات اللسانية الغربية والعربية سعيا إلى الانتصار للقدامى، وهو في أكثر أحواله لا ينفك يعاود ذكر ما قاله الأوّلون دون السعي إلى تجديد هذه المعرفة. ثم إن البحث في اللغات الواصفة اللسانية يكاد يكون قليلا مقارنة بما ينتج في أدبيات اللسانية، على الرغم من أن مؤلفات جمة، في ميادين بحث جمة، لا تنفك تشير إلى المصطلح، لكن الإشارة هذه غالبا ما تكون الإشارة العبارة.

اللّغة الواصفة، من البحث عن الحقيقة إلى وصف الوقائع

إنّ التصورات العلمية ليست كفيلة بالتعبير عن الوقائع المدروسة تعبيرا علميا واضحا ما لم تترجم إلى لغة واصفة منسجمة لا يتسلل إليها التناقض والخلل، ولقد كان ألفريد تارسكي (1901-1983)، في دائرة المنطق، أوّل من اهتدى إلى ضرورة صياغة لغة واصفة يحترز بها عن الوقوع في الخطأ، إذ انخرط، شأنه شأن عدد من فلاسفة المنطق في النصف الأوّل من القرن الماضي، في السعي إلى توصيف الحقيقة وبلورة مفهوم منطقي لها. إن التصور الدلالي للحقيقة أهم ما آلت إليه نظرية الحقيقة التي تبنتها مدرسة فرسوفي، وهي تنتمي إلى التقليد الذي أحدثه برنتانو والوسيطية، ولئن كانت الإشارة المباشرة إلى برنتانو تكاد تنعدم في أعمال تارسكي، لكنه بقي دائما تلميذا، في الفلسفة وفي المنطق، لستانيسلاف لسنييفيسكي « S. Lesniewski » ويان لوكاسيفيتش « J. Lukasiewicz » وتادوتش كوتاربينسكي « T. Torabinski »، الذين ما افنكوا يحيلون إلى برنتانو ويجتهدون في تطوير أفكاره

في أعمالهم[28]. ولقد ألحّ تارسكي على ضرورة تجاوز العقبات التي تحول دون تصور سديد للحقيقة، والعمل على صياغة لغة واصفة تكفل ذلك، فقال: «إن أصل الصعوبات التي ما ننفك نواجهها يكمن في ما يلي: إننا لم نلحظ من قبل أن المفاهيم الدلالية تنماز بطابع النسبية، ووجب إدراجها ضمن لسان خاص. لم يلحظ أحد من قبل أن اللسان الذي نتكلم عنه ليس بالضرورة مطابقا للسان الذي نتحدث به. لقد درسنا دلاليات اللسان باللسان نفسه، وكأن الوجود لا يحوي سوى هذا اللسان. إن تحليل المتقابلات التي تحدثنا عنها من قبل يبيّن أن المفاهيم الدلالية لا تنتمي، خلافا لذلك، إلى اللسان العادي»[29]. وعقّب عليه كارل بوبر مبرزا سبيل البحث عن الحقيقة قائلا: «إن البحث في الحقيقة يستلزم النظر في العلاقات القائمة بين الوقائع وما يقال بشأنها، ولا تتم هذه إلا إذا توفّر لدينا قدر كاف من الأوصاف، أي أننا يجب أن تكون لدينا القدرة على وصف، في لغتنا واصفة، كل الوقائع التي يمكن وصفها في اللغة الموضوع»[30].

صحيح أنّ لسنيفسكي كان أوّل من تنبه إلى ضرورة التمييز بين لسان التخاطب واللغة الواصفة، عندما راح يعيد قراءة كتاب مبادئ الرياضيات لألفريد وايتهيد وبارتراند رسل[31] قراءة نقدية، وانتهى منه إلى استخلاص تصورات جديدة، لعل أهمها كان الفصل بين اللغة واللغة الواصفة، بغية تجاوز كثير من التناقضات التي لاحت للباحثين في الدلاليات آنذاك، لكن إشكالية التمييز بين اللغة واللغة الواصفة لم تبلغ الشأن الذي بلغته في أدبيات المنطق والفلسفة آنذاك إلا من خلال أعمال تارسكي، وخاصة في مقاله عن مفهوم الحقيقة في الألسن المصورنة، إذ يقول: «إننا إذ نتفق على ضرورة تجنب استعمال اللغات المغلقة دلاليا، لا بد لنا من اللجوء إلى لغتين

---

[28] - F. Vuissoz, La conception sémantique de la vérité. Logique et philosophie chez Alfred Tarski, Neuchâtel, Centre de Recherches Sémiologiques, 1998, p. 69.

[29] - A. Tarski, Logique, sémantique, mathématique, 1923-1944, Paris, A. Colin, 1974, II, p. 134.

[30] - K. Popper, « Philosophical Comments on Tarski's Theory of Truth », in Objective knowledge, A Evolutionary Approach, Oxford, Larendon Press, 1979, p. 325.

[31] - A. Whitehead & B. Russell, Principia mathématica, Cambridge, Cambridge University Press, 1910.

مختلفتين إذا ما أردنا الحديث عن مسألة تعريف الحقيقة، وعموما، كل مسألة من مسائل الدلاليات. وأولى اللغتين هاتين هي اللسان الذي نتحدث عنه، والذي يمثل موضوع كل النقاشات، وإن تعريف الحقيقة الذي نسعى إليه ينطبق على جمل هذا اللّسان. وأمّا اللغة الثانية فهي اللغة التي نتحدث فيها عن اللغة الأولى، والتي نروم من خلالها صياغة مفهوم الحقيقة الخاص بالأولى. وإننا نشير إلى الأولى بمصطلح اللغة الموضوع، وإلى الثانية بمصطلح اللغة الواصفة. ويجب التنبيه إلى أن مصطلحي اللغة الموضوع واللغة الواصفة مصطلحين نسبيين، إذ حينما نريد الحديث عن الحقيقة، ليس فيما تعلق بجمل اللسان، بل بالجمل التي تصاغ في لغته الواصفة، فإننا ننتقل إلى لغة واصفة من مستوى أعلى، ويؤول الأمر بنا إلى تراتبية من اللغات. إن مفردات اللغة الواصفة تحدد استنادا إلى شروط تقيم تعريف الحقيقة، والتي تستلزم التكافؤ على النحو الآتي: س صادق إلا إذا، وفقط إذا، تحقق ع»[32].

لكن التفكير المنطقي والتفكير الفلسفي ليسا التفكيرين الوحيدين اللّذين تنبها إلى الدور الذي يضطلع به التمييز بين اللغة واللغة الواصفة في تمييز الحقائق الدلالية، بل إن الفكر اللساني تنبه هو الآخر إلى أهمية اللغة الواصفة في ألسنة التخاطب اليومية، فقد بات مألوفا القول بأن لسان التخاطب اليومي لا ينفك يحيل إلى نفسه، وكان رومان ياكبسون جعل من اللغة الواصفة منذ عام 1960 وظيفة من وظائف اللغة، وأوضح أن المتكلم عادة ما يلجأ في محادثاته إلى لغة واصفة، قائلا: «إن اللغة الواصفة ليست مجرد أداة علمية ضرورية للمناطقة واللسانيين، بل إنها تضطلع بدور مهم في التخاطب اليومي [...] إذ كلما تبادرت للمتكلم و/أو للمستمع ضرورة التحقق من استعمالهما للسنن « code » نفسه، فإنهما يلجآن إلى وظيفة لسانية واصفة « métalinguistique » (أو شرح « glose »)، وإن الجمل التي يصوغانها في هذا الشأن تتصل بالسنن المعجمي»[33]. كما عبّر بنفنست عن المسافة التي باتت تفصل اللغة الواصفة عن الألسنة المستعملة، بل هي أداة

---

[32] - A. Tarski, « The Semantic Conception of Truth: and the Foundations of Semantics », *Philosophy and Phenomenological Research*, vol. 4, n° 3, 1944, pp. 3349-350.

[33] - R. Jakobson, Linguistics and Poetics, in T. Sebeok (éd.), *Style in Language*, Cambridge, M.I.T. Press, 1960, repris dans *Essais de linguistique générale*, Paris, Minuit, 1963, pp. 217-218.

للتفكير بقوله: «إن الملكة اللسانية الواصفة تحيل على قدرتنا على التعالي على الألسنة، والتخلص منها، والتأمل فيها، وذلك باستعمالها في تفكيرنا وملاحظاتنا. إن ملكة اللغة الواصفة التي كان المناطقة أكثر الباحثين تنبها لها من اللسانيين، لهي برهان على قدرة العقل على التعالي على اللسان من جانب قدرته الدلالية»[34].

ولم تخلُ نظرية أو مدرسة لسانية، في القرن الماضي، من التطرق إلى مسألة اللغة الواصفة، فكان لويس يمسليف تلقف هو الآخر هذه الأداة العلمية وأدرجها ضمن جهازه المفاهيمي الذي أسس به نظريته اللسانية، وهي النظرية التي تمخض عنها أهم مشروع سيميائي في القرن الماضي[35]، والذي بات، من بعدُ، رافدا رئيسا من الروافد التي استندت إليها سيميائيات غريماس، وهي في أصلها مشروع دلالي سرعان ما توسع ليشمل أنساق سيميائية عديدة، فقال واصفا لمصطلح اللغة الواصفة قائلا: «إن الناقد حينما يتحدث عن الرسم أو الموسيقى، فإن مجرد حديثه عنهما يدل أنه يفترض وجود نسقين سيميائيين هما الرسم والموسيقى، وإن أقواله تمثل، بالنسبة لما يراه أو يسمعه، لسانا واصفا، فمهما كانت طبيعة الدال والوضع التراتبي للمجموع الدال المنظور فيه، فإن دراسة دلالته تقع بمستوى لساني واصف مقارنة بالمجموع المدروس. إن الاختلاف بين المستويين يصبح أكثر وضوحا عندما يتعلق الأمر بدراسة الألسن الطبيعية، فالألمانية والإنجليزية خليقتان بأن تدرسا باستعمال لسان واصف فرنسي أو عكس ذلك. ويمكننا إذن صياغة مبدأ عام بالقول بأن اللسان الواصف يمكّن من دراسة كل مجموع دال دون أن يرتهن هذا اللسان الواصف بلسان بعينه. [...] بيد إنه من الضروري التمييز ههنا، استئناسا بيمسليف، بين اللغات الواصفة العلمية واللغات الواصفة غير العلمية. إن اللغة الواصفة غير العلمية "طبيعية" كما هو حال اللسان الموضوع الذي تتحدث عنه [...] وأما اللغة الواصفة العلمية فإنها لغة منشأة، أي أن كل المصطلحات التي تتألف منها تؤسس لمجموعة متجانسة من التعريفات»[36].

---

[34] - E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, II, Paris, Gallimard, 1974, p. 228-229.

[35] - L. Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage, tr. U. Granger, Paris, Minuit, 1971, pp. 150-151.

[36] - A. J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, P. U. F., 1986, p. 15.

وليس من اليسير الظفر بتعريف جامع لمصطلح اللغة الواصفة، فقد لقي من الرواج والتداول ما جعلا منه مصطلحا متعدد الاستعمال، وأفضت استخداماته إلى شيء من اللبس. ثم إن التصور الذي استقر إليه اللغويون عن مفهوم اللغة الواصفة يختلف كل الاختلاف عن التصور الذي استأنس به المناطقة من قبل، فقد ميزت ري ديبوف بينهما[37]، وأقرب هذه الاستخدامات إلينا مثلاً هي في مجالات التركيبيات، والتداوليات واللسانيات التطبيقية أو التعليميات، ففي حين يكتفي التركيبيون بالإحالة به إلى المصطلحات (أو التعريفات) التقنية المستعملة للحديث عن الوظائف اللسانية، يريد بها عدد من التداوليين ما يحال به، ضمن الخطاب، إلى عملية التلفظ، بينما يعد الباحثون في مجال اللسانيات التطبيقية أو التعليميات من اللغة الواصفة كل ما يتصل بالوصف البيداغوجي للوقائع اللغوية، أو تمثلات المتعلمين الحدسية[38].

أصول المصطلح اللّساني العربي الحديث

إنّ المصطلح اللساني العربي، شأنه شأن مصطلحات ميادين المعرفة العربية الأخرى، يصدر من مصدرين اثنين، أما أحدهما فهو ما أنتجته الحضارة العربية من تصورات وعبّرت عنه بمصطلحات ما تزال تقر بها الدراسات اللسانية الحديثة، فقد قال جون كانتينو في مقدمة كتابه عن الصوتيات العربية: «لقد كان النحاة العرب روادا في صوتيات لسانهم، وإننا نجد، عند سيبويه مثلا، تصنيفا سديدا للحروف استنادا لمخارجها، وملاحظات مهمة حول طرائق النطق بها، ودراسة ثرية حول الإدغام، ومفاهيم صحيحة حول المد، واختلاف الجرس، وإشارات إلى الاختلافات الصوتية بين اللهجات المختلفة. لقد كانت هذه الصوتيات، شأنها شأن الصوتيات التي عني بها نحاتنا في القرن السابع عشر، واصفة خالصة، ولا تعنى بالتطور التاريخي للسان»[39]، وإن كل هذه الاجتهادات الذي بذلها سيبويه ومن حذا حذوه أفضت إلى تأسيس لغة واصفة نحوية ثرية،

---

[37] - J. Rey-Debove, « Les logiciens et le métalangage naturel », Histoire Épistémologie Langage, tome 1, fascicule 1, 1979, pp. 15-22

[38] - R. Charnock, « Problèmes de métalangue – au-delà de l grammaire », Linx, n° 36, 1997, p. 55.

[39] - J. Cantineau, Cours de phonétique arabe, Paris, Klincksieck, 1960, p. 5.

وأفضت هي الأخرى إلى لغة واصفة من مستوى أعلى تمثلت في كثرة الشروح والتعليقات التي اتخذت الكتاب ومؤلفات النحاة المؤسسين الآخرين موضوع تأمل ونظر بالشرح والتعليق والإضافة.

ولا يقتصر ما أنتجته الحضارة العربية من مصطلحات في وصف اللسان العربي على ما أنتجه النحو، بل إن علوم العربية كلّها أسهمت في إثراء المعجم اللساني العربي على مدى العصور، وإن الاجتهادات العظيمة التي بذلها علماؤنا في سبيل استكشاف بنيات اللسان العربي الصوتية والمورفولوجية، وبيان نحوه، وتيسير تعليمه إلى غير الناطقين به، والتعبير به عن تراث الأمم وآثارها الفكرية، والعلمية، والفنية، والترجمة به عما أبدعت هذه الأمم من معارف وصناعات، ما تزال تنبض نصوصها بالحياة. وعلى الرغم من أن جل هذه النصوص ما يزال مخطوطا ويحتاج إلى تحقيق ونشر، فإن ما تلقفه الباحثون المحدثون عنهم من معارف وما أسهموا به في نقل تجارب الأمم الأخرى في مختلف ميادين الحياة الفكرية، والفنية، والعلمية، والصناعية، وما أولوه من عناية في سبيل تطوير الفكر اللغوي والنحوي العربيين، وما ثقفوه من النظريات اللسانية الحديثة فأبدعوا في استثماره، بات كلُّه إرثا حضاريا حَفِل به اللسان العربي وما ضاق به.

إنّ حظّ الباحث العربي المعاصر من هذه الاجتهادات، قديمها وحدثيها، مرتهن بقدرته على حسن الإفادة منها والإجادة فيها، فقد باتت التحولات المتسارعة التي تشهدها مختلف حقول المعرفة، ومستجدات العلم وابتكاراته المتوالية، واستشرافاته الاستكشافية المستقبلية، وما تنتج المؤسسات الوطنية والدولية من بحوث واستطلاعات بمختلف ألسنتها وأدواتها الدعائية، وما تبتكر دوائر الفكر من تنظيمات وتشريعات جديدة، باتت كلّها تحديات لا سبيل للتنصل منها، وإن المؤسسات الفكرية والعلمية العربية منوط بها هي الأخرى تحقيق سبل الارتقاء باللسان العربي بمرافقة الباحث العربي المعاصر وتيسير كل تطلعاته وطموحه في مثاقفته لغيره، بفضل ما يكتنزه لسانه العربي من ثراء وجمال.

ولقد أحدث الإنسان العربي آثارا جديدة في العربية وأبدع في ما لا يمكن حصره في ما أسماه القدامى بعلوم العربية، من تصريف، ونحو، ومعاني، وبيان، وبديع، وعروض، وقوافي، وكتابة، وخطب، ومحاضرات وتاريخ، فقد أنتج تأثره بآثار حضارات الأمم الأخرى وثقافاتها معالم تحول جديد في الكتابة

وقرض الشعر وإنتاج البحوث. لكن تاريخ الفكر اللساني العربي ما يزال في حاجة إلى تحقيق وتدقيق، بالنظر إلى فيض ما أنتجته الحضارة العربية، في ميادين علوم العربية أو علوم اللسان، فعلى الرغم مما أحصته المعاجم العربية المتخصصة في هذين الميدانين من مصطلحات، إلا أننا ما نزال في حاجة إلى استقصاء كل ميادين المعرفة الأخرى حتى نجلب إليها كل ما له صلته باللسان العربي. إن علوم القرآن، والتفسير، وأصول الفقه، والفلسفة، والمنطق، وغيرها من علوم العرب والمسلمين، سواء ما حقق منها ونشر أو ما هو باق مخطوطا، تضم كلها عددا كبيرا من المصطلحات التي وجب تمحيصها وتبويبها وترتيبها.

وأمّا المصدر الآخر الذي صدر عنه المصطلح اللساني العربي فهو ما تلقفته الحضارة العربية عن الحضارات الأخرى، إنْ عن طريق التعريب أو الاقتراض أو عن طريق الترجمة والنقل. وإن تاريخ العلوم عند العرب هو وحده الكفيل بالتمييز بين هذين المصدرين، والتحقق مما هو أصيل في الفكر العربي مـما هو وافد إليها. ولئن لازم فعل الاصطلاح كل مراحل الحضارة الإسلامية ولم يعي اللسان العربي عن مدّها بكل المفردات التي احتاجت إليها لتعبّر عن تصورات ومفاهيم جديدة، منذ أن عمد النحاة الأوائل إلى وضع أولى تعريفاتهم لأنواع الكلم العربي، فسموا الاسم، والفعل، والحرف، أو عندما عمد بن رشد إلى تلخيص كتاب العبارة لأرسطو[40]، فإن فعل الترجمة الذي بلغ ذروته في العصر العباسي كان للمصطلح اللساني منه نصيب وافر[41].

إنّ التحوّلات الهائلة التي رافقت العلوم منذ ثلاثينيات القرن الماضي، سواء ما كان منها من جانب الابتكار العلمي، أو من جانب الإبداع التكنولوجي، أو من جانب تكثّف العلاقات الدبلوماسية، والسياسية، والتجارية بين الأمم، أو من جانب تشعب وسائل التواصل الرقمية وغير الرقمية نتيجة انتشار المعلوماتيات، كلّها تحولات أسهمت في نشأة المصطلحاتيات وتطورها. ولقد رافق هذه التحولات أيضا تطور مشهود في علوم اللغة، فقد عرف النصف الأوّل من القرن الماضي نشأة عدد من المدارس اللسانية، وظهور نظريات لسانية

---

[40] – ينظر: أبو الوليد ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة، تح. محمد سليم سالم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978.

[41] – ينظر: مريم سلامة كار، الترجمة في العصر العباسي، تر. نجيب غزاوي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1998.

أنتجت كما كبيرا من المصطلحات، فضلا عن أن المصطلح الواحد بات يتخذ من مدرسة إلى أخرى أو من نظرية لسانية إلى أخرى مدلولات مختلفة. ولئن ورثت اللسانيات الحديثة، في النصف الأوّل من القرن الماضي، عددا من المصطلحات والمفاهيم عن لسانيات القرن التاسع عشر، من مثل النسق، والشّكل، والبنية، والتطور، والنحو، والأصل، والعلامة، وغيرها من المصطلحات، فإنها عملت بعدد منها، مبنى ومضمونا، واجتهدت في تطوير عدد آخر فجاوزت به إلى مدلولات جديدة لم تعهدها البحوث اللسانية من قبلُ. واجتهدت كل مدرسة لسانية، حتى تكفل لنفسها التميز عن باقي المدارس اللسانية، في تخصيص المصطلح المشترك، مصطلح البنية مثلا، بمدلول لا تبغي عنه حولا. ثم إن اختلاف الألسن في التعبير عن الوقائع اللسانية - فليس حال اللسان الدنماركي كاللسان الفرنسي في الانتشار بين الأوساط العلمية في النصف الأوّل من القرن العشرين - كان هو الآخر أحد الأسباب التي أدّت إلى اختلاف المصطلح اللساني منذ العقود الأولى من هذا القرن.

ولا يكاد هذا الوضع يقتصر على علوم اللغة، بل أضحى سمة للعلوم الإنسانية قاطبة، فقد استلهمت هذه العلوم من البنيويات اللسانية جملة من مصطلحاتها وراحت تختبرها على الوقائع الفكرية، والفلسفية، والفينومينولوجية، والأنثروبولوجية، والاجتماعية، والسيكولوجية، التي تعنى بها، ناهيك عما تمخض عن تلاقي هذه العلوم باللسانيات من مواد علمية فرعية من مثل اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الأنثروبولوجية، واللسانيات الحاسوبية، وغيرها، فابتكرت هي الأخرى جملة من المصطلحات حتى تعبّر بها عن مفاهيم جديدة اختبرتها، وتصورات حديثة طرأت لها. ثم إن نشأة هذه الفروع العلمية لم ينتج مثلا اللسانيات النفسية بوصفها فرعا من فروع اللسانيات فقط، بل أنشأ أيضا فرعا آخر من فروع علم النفس، هو علم النفسي اللغوي، وكان الأمر كذلك بالنسبة لسائر العلوم التي تلاقحت أفكارها مع الفكر اللساني. وليس يخفى ما للاختلاف بين المادتين العلميتين (اللسانيات النفسية وعلم النفس اللغوي مثلا) من أثر في وضع المصطلح، إذ إن منطلقاتهما الإبستيمولوجية مختلفة، ومبادئهما النظرية مختلفة، وممارساتهما المنهجية مختلفة أيضا، ويكفي الباحث أن ينظر في معجمين من معاجم هذه المواد العلمية ويقارن فيهما بين المصطلح نفسه

حتى يقف على المسافة الاصطلاحية والبون التعريفي الشاسع الذي بات يميز الحقل الاصطلاحي في علوم اللسان قاطبة.

وليس الاصطلاح وصياغة اللّغات الواصفة خصيصة من خصائص علم أمة دون أخرى كما أسلفنا، ولئن كان ابتكار المصطلح وتحديد أشكاله ومضامينه يرتبط ارتباطا وثيقا بلسان هذه الأمة، فتختلف المصطلحات بالضرورة لاختلاف هذا اللّسان عن باقي ألسن الأمم الأخرى، إلا أن التصورات التي أنشأت هذه وتلك لا تكاد تختلف، بل هي في حقيقة أمرها إرث إنساني مشترك. إن رسالة الشيخ ابن سينا، «أسباب حدوث الأصوات»، على الرغم من صفة الإيجاز التي وصفها بها مؤلفها، إلا أنها تقارع بما انطوت عليه من تصورات ما ألّف في الصوت من قبل ومن بعد. إن تعريف ابن سينا للحرف، أي للصوت اللساني بقوله: «والحرف هيئة للصوت عارضة له يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزا في المسموع»[42]، تعريف لا يكاد يختلف عما انتهت إليها اللسانيات المعاصرة في هذا الباب، إذ إن التعريف يحتوي على البادئ الآتية:

- إنّ الهيئة، أي « forme » في اصطلاح دو سوسير، تعرض للصوت وليست طبيعية فيه.
- إنّ اختلاف، « différence » في اصطلاح دو سوسير، الهيئة يؤدي إلى اختلاف الحروف.
- إنّ اختلاف الحرف، لاختلاف هيئته، عن بقة الحروف هو سبب وجوده.
- إنّ لكل حرف خصائص تميزه، « traits caractéristiques » في اصطلاح رومان ياكبسون، عن باقي الحروف.
- إنّ الخصائص هذه محدودة العدد معلومة.

وتكاد معالم هذا التعريف لا تبتعد عما كان دو سوسير يختبره، بقوله: «وإننا نستخلص من هذا أن اللسان يستند، عموما، إلى عدد من الاختلافات والتقابلات التي يقرها، ولا يكترث بالقيمة الخالصة لكل عنصر من العناصر

---

[42] – أبو علي الحسين ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح. محب الدين الخطيب، القاهرة، مطبعة المؤيد، 1332 ه، ص. 4.

المتقابلة، إذ قد تتغير هذه القيمة تغيرا كبيرا دون أن يخل ذلك بالوضع اللساني»[43].

إنّ تمثل التشابه والتقارب اللذين نلمسهما بين عدد من التصورات التي أنتجها الفكر اللساني العربي والفكر اللساني الغربي هو الكفيل في اعتقادي بالتعبير عن اللسانيات الحديثة تعبيرا سديدا، وترجمة المصطلحات التي ابتكرتها إلى لغة واصفة عربية، وإن الصعوبات التي ما انفك يقر بها طلبة الجامعات في تحصيل المعرفة اللسانية الحديثة مرتبط بما آلت إليه ممارسات ترجمة المصطلح اللساني الغربي إلى اللسان العربي، فقد انفلتت الممارسات هذه من قبضة المؤسسات القائمة على المصطلح وبات الباحثون يتنافسون، على تعدد مشاربهم واختلاف تخصصاتهم، ويتهافتون في نقل كل ما له صلة بالفكر اللساني الغربي، دون أن يولي أحدهم عنايته بالنظر في ما نقل الآخرون. إن النزعة إلى التفرد، وقلة الاجتهاد في تتبع أعمال الآخرين، هما في اعتقادي السببان الرئيسان اللذان مهدا للأزمة التي تمر بها صناعة المصطلح في أوطاننا العربية.

أصول أزمة المصطلح اللّساني العربي

خطى البحث اللّساني العربي، منذ أن أخرج علي عبد الواحد وافي عام 1941 أوّل كتاب في اللسانيات، خطوات كبرى في سبيل نقل المعرفة اللسانية الغربية إلى العربية والتعريف بها، فليس من اليسير اليوم إحصاء كل ما كتب من مقالات في المجلاّت العربية المتخصصة، وما ألّف من كتب، وما ترجم من مؤلفات، وما عقد من ملتقيات ومؤتمرات، في ميدان اللسانيات العامة، أو في ميادين المعرفة اللسانية المتخصصة. ولقد أدى إقبال الباحثين المحدثين على البحث اللساني الغربي ورغبتهم في النهل منه، منهم من يريد تجديد الفكر اللساني العربي به، ومنهم من يريد الاستغناء به عنه، ومنهم من يريد التوفيق بينهما، إلى انتشار واسع للمصطلح، وتفشي صارخ للاختلاف في وضعه ونقله. ولئن كانت ترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى فرديناند دو سوسير، في خمسينيات القرن الماضي، مرحلة

[43] – فرديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، قدم له وترجمه مختار زواوي، بيروت، دار الروافد الثقافية وابن النديم، 2019، ص. 180.

حاسمة في تلقي البحث اللساني الغربي في البلدان العربية، فإن الترجمات الخمس لهذا الكتاب زادت في اتساع رقعة الاختلاف وأصّلت له.

لقد أخفقت الترجمات الخمس آنذاك - في اعتقادي - في أمرين: لقد أخفقت أوّلا في عدم قدرتها، أو لعدم رغبتها، في توحيد المصطلح اللساني، فكثير من المصطلحات التي يعج بها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة والتي صارت من بعدُ إرثا اصطلاحيا تناقلته المدارس والنظريات اللسانية الغربية طيلة قرن من الزمن، اختلف واضعو هذه الترجمات في نقلها إلى اللسان العربي اختلافا كبيرا، وإن مصطلحات عديدة مثل « langage »، و« langue »، و« signe »، و« signifiant »، و« signifié »، و« syntagme » و« paradigme »، و« synchronie » و« diachronie »، وغيرها، باتت تتداولها البحوث العربية بمسميات عربية مختلفة، فشق على الباحث العربي الناشئ التمييز بينها وتمحيص دلالاتها. صحيح أن الترجمات الخمس هذه أنجزت في فترات متوالية متقاربة جدا، نتيجة تهافت الباحثين آنذاك على كتاب دو سوسير وعلى اللسانيات الغربية عموما، فحال أن ينظر كل مترجم في ترجمة الآخر، لكن الترجمات هذه أخفقت أيضا في أمر آخر، لقد أخفقت في كثير من الأحيان، في التحقق من المفهوم الذي يعبر عنه المصطلح في كتاب المحاضرات، وهي إذ لم تكن، آنذاك، عارفة بما كانت تكشف عنه البحوث الفيلولوجية التي اتخذت كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بالنقد والتحقيق والتمحيص، ككتاب روبار غودال، الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة (1957)[44] أو الطبعتين النقديتين اللتين أخرجهما عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة كل من وتيليو دو مورو (1967)[45] ورودلف أنغلر (1868-1974)[46]، غاب عنها أن مصطلح « signe » مثلا

[44] - R. Godel, Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale, Genève, Droz, 1957.

[45] - F. de Saussure, Corso di linguistica generale, edizione critica di Tulio de Mauro, Roma, Editions Laterza, 1967. F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique Tulio de Mauro, Paris, Payot, 1972.

[46] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, tome I, 1967, tome II (appendice), 1974.

إن عام 1968 هو التاريخ الذي يؤرَّخ به صدور طبعة رودلف أنغلر النقدية، لكن القسم الأوّل منها « 1er fascicule » كان قد صدر سنة من قبل، أي 1967، بشهادة أنغلر نفسه. ينظر مقاله:

يعبر في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أحيانا عن مفهوم العلامة من حيث هي مؤلفة من دال ومدلول، وأحيانا أخرى يعبّر عن مفهوم الجانب البارز منها، أي عن الدال فقط. ولا يقتصر هذا الأمر على المصطلح فقط، بل تجاوزه إلى التصور اللساني، إذ غالبا ما ينجم عن سوء تمثل المفهوم الغربي وتمحيص مصطلحه سوء تمثل للتصور لاسيما إذا اقترن هذا المصطلح في سياق الكتاب بمصطلح آخر، كما هو الشأن مثلا بسياق الحديث عن اللسانيات الآنية، أو اللسانيات التاريخية، أو سياق الحديث عن اللسان من حيث هو نسق مؤلّف من علامات، أو من حيث كونه نسقا سيميولوجيا، وغيرها من التصورات التي أسهمت في اختلاف المدارس اللسانية وتنوع نظرياتها.

ولم تمكّن كثرة المعاجم اللّسانية المتخصّصة التي بدأت تروج في النصف الثاني من القرن الماضي، كمعجم مصطلح علم اللغة الحديث لمحمد حسن باكلا وآخرون[47]، وقاموس اللسانيات لعبد السلام المسدي[48]، ومعجم اللسانية لبسام بركة[49]، والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم[50]، ومعجم المصطلحات الألسنية لمبارك مبارك[51]، ومعجم المصطلحات اللسانيات لعبد القادر الفاسي الفهري[52]، وغيرها من المعاجم التي تصدّت للتعريف بالمصطلح اللساني، من تجاوز ثنائية الأنا والآخر المبنية على الاختلاف المتسم بالتضاد، والاجتهاد في تطوير مصطلح عربي متحلّل هو الآخر من ثنائية الأصيل والدخيل. ولقد كان عبد السلام المسدي قد وقف عام 1984 على جملة من الأسباب التي أدت إلى اختلاف

- R. Engler, « Premiers spécimens d’un index des matières du CLG/E », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 31, 1977, p. 89.

[47] – محمد حسن باكلا وآخرون، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1983.

[48] – عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.

[49] – بسام بركة، معجم اللسانية، بيروت، منشورات جروس – برس، الطبعة الأولى، 1985.

[50] – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، تونس، الطبعة الأولى، 1989.

[51] – مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، بيروت، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1995.

[52] – عبد القادر الفاسي الفهري، بمشاركة نادية العمري، معجم المصطلحات اللسانية، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2009.

المصطلح اللساني العربي، فقال: «لم تختلف السبل بين الاصطلاحات العربية اختلافها في هذا العلم، القديم الجديد، الأصيل الدخيل، المتولد الغازي، نعني اللسانيات. والسبب في ذلك أن هذا العلم قد حمل على كاهله كل أسباب التشتت الاصطلاحي بين العرب ثم أضاف إليها عللا ودوافع تراكمت باقتضاء نوعية المعرفة اللغوية عامة، وبمستلزمات الدقة اللّسانية خاصة. فاختلاف الينابيع الّتي ينهل منها علماء العرب اليوم بين لاتيني وسكسوني وجرماني وسلافي، وطبيعة الجدة المتجددة التي تكسو المعرفة اللسانية المعاصرة، وتركّب الأدوات التعريفية والمفردات الاصطلاحية مما يقتضيه تزاوج مادة العلم وموضوعه في شيء واحد هو الظاهرة اللغوية، ثم طفرة الوضع المفاهيمي وما ينشأ من توليد مطرد للمصطلح الفني حسب توالي المدارس اللسانية وتكاثر المناهج التي يتوسل بها كل حزب من المنتصرين للنظرية الواحدة أحيانا: كل ذلك قد تضافر فعقد واقع المصطلح اللساني العربي فجعله إلى الاستعصاء والتخالف أقرب إلى التسوية والتماثل»[53].

ولسْنا نفهم لماذا يجتهد عدد من الباحثين إلى تعريب المصطلحات الأجنبية في الوقت الذي يتوفر اللسان العربي على ما يغني عنها. ولقد كنا أحصينا ونحن نتصفح عددا من المؤلفات العربية والغربية في اللسانيات وعلوم العربية عددا من التصورات اللسانية المماثلة، ونود ههنا الاقتصار على مصطلح « phonème » الغربي وهو المصطلح الذي شاع عنه مصطلح الفونيم في كل أدبيات اللسانيات العربية المعاصرة كمصطلح مكافئ له. صحيح أن إشاعة المصطلح الواحد ممارسة حميدة تصرف الاختلاف عنا، لكن ما الجدوى من اتخاذ هذا المصطلح وفي اللسان العربي ما يغني عنه. ولئن كان من المعلوم أن التمييز بين الصوت المادي والصوت اللساني، أي الفونيم، بات أهم منجزات اللسانيات الحديثة، ومدخلا مهما من مداخل الفونولوجيات، أو ما يعرف بالصوتيات الوظيفية، فإن التمييز هذا استقرت إليه اللسانيات العربية منذ أولى الدراسات الصوتية العربية، فقد كان ابن جني ميّز، في سر صناعة الإعراب، بين الصوت المادي والصوت اللساني الذي اصطلح عليه بمصطلح الحرف فقال: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا،

[53] – عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984، ص. 55.

حتى يعرض له في الحلق والفن والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض حرفا»[54].

نسقيّة المصطلحات

وفضلاً عما ذكرنا من الأسباب، فإن ثمة سببين آخرين حالا دون صياغة لغة عربية واصفة منسجمة الأركان، متسقة العناصر، فأما السبب الأوّل فهو راجع إلى قلة أو عدم مراعاة واضعي المصطلح أو نقله إلى اللسان العربي للعلاقات التي تنعقد بينه وبين المصطلحات الأخرى في اللغة الواصفة المنقول عنها، وأما السبب الثاني فعلّته كثرة التداخل بين المصطلحات اللسانية والمصطلحات النحوية والبلاغية وعدم التشارك العلمي بين القائمين على نقل المصطلح في ميادين الفكر هذه.

إنّ المسائل النظرية الكبرى المتصلة بالفكر والمعرفة التي تعنى بها المصطلحاتيات تكاد لا تتجاوز مسائل ثلاث، فقد باتت مسألة تلقي المعارف، ومسألة وضع المصطلح، ومسألة انتظام المصطلحات فيما بينها، موضوعات قارة يشترك في النظر فيها جمهور المصطلحاتيين، لكن مسألة انتظام المصطلحات فيما بينها، أو بعبارة أخرى نسقيتها، هي المسألة التي كان للمصطلحاتيين نصيب وافر فيها، إذ إن مجموع مصطلحات علم من العلوم هي في نظرنا، قبل كل أمر، عناصر نسق لغوي خاص، فلا تتخذ العبارة قيمة اصطلاحية وتستقر إلا بالعلاقات التي تنعقد بينها وبين سائر قيم مصطلحات العلم الأخرى. وإن واضعي المعاجم المتخصصة كثيرا ما أدركوا هذا الاستلزام القائم بين المصطلحات فتراهم، بعد الانتهاء من التعريف بالمصطلح وتحديد محتواه المفاهيمي، يحيلون مباشرة إلى عدد من المفاهيم والمصطلحات المتصلة بها، ولنا في هذا الصدد خير مثال على ذلك، معجم مصطلح السيميائيات الذي وضعه أوّل الأمر غريماس وكورتاز[55] ثمّ انضمّ إليه عدد من

---

[54] – أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تح. حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 1993، ص. 6.

[55] - A. J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique. Dictionnaire raisonné des sciences du langage, Paris, Hachette, 1972.

الباحثين في الجزء الثاني[56]، أو يضعون، في سياق شرح المصطلح، نجمة في مؤخرة عبارة ما للإلماح إلى طبيعتها الاصطلاحية والتوكيد على وجوب الاطلاع عليها لفهم أعمق للمصطلح المشروح، مثلما فعل جون ديبوا وآخرون، واضعو معجم اللسانيات وعلوم اللّغة[57].

[56] - A. J. Greimas et J. Courtés et *al.*, Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Tome 2, Paris, Hachette, 1986.

[57] - J. Dubois et *al.*, Grand dictionnaire. Linguistique et sciences du langage, Paris, Larousse, 2007.

في التّرجمة اللّسانية وترجمة لسانيات دو سوسير

- «إنّ ثمة سبيلين تؤديانه إلى المسألة التي يطرحها فعل الترجمة: فإما أن نتخذ من مصطلح الترجمة معناه الخاص الدال على تحويل مرسلة شفوية من لسان إلى آخر، وإما أن نتخذ منه معناه العام المرادف لكل تأويل لكل مجموع دالة ضمن المجموعة اللسانية نفسها».

من كتاب الترجمة لبول ريكور

تزامن تحريرنا الأوّل لهذه الورقات مع عملنا على ترجمة كتاب فرديناند دو سوسير الأخير، ونعني به الجزء الأوّل من مجموع مخطوطاته التي حققها روبار أنغلر وسيمون بوكي، ونشرت سنة 2002 ضمن السلسلة الفلسفية لدار غليمار الفرنسية[58]. وتندرج هذه الترجمة في سعينا إلى التعريف بما استجد في الفكر اللساني المعاصر، ولاسيما ما أضحى ينعت بلسانيات دو سوسير الجديدة. وتنقسم هذه الدراسة إلى قسمين، أحدهما نظري والآخر تطبيقي. أما القسم النظري فقد حاولنا أن نرصد فيه بعض ملامح الفكر اللساني التي باتت تميز مطلع هذا القرن الجديد، وفيه تناولنا مسألة التكوين اللساني وعدة الباحث المعرفية، وعلاقة الترجمة بالتأويل، وفيه اقترحنا منهجية ترجمية استقيناها من سيميائيات غريماس. أما القسم التطبيقي فقد عرضنا فيه لمسألة ترجمة فكر دو سوسير اللساني، والأدوات الكفيلة بتحقيقها، وهي المعارف اللسانية واللسانية، والسياقين النصي والنحوي.

---

[58] - F. de Saussure, De l’essence double du langage, in Ecrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Pris, Gallimard, 2002.

تعدّ التّرجمة اللّسانية، أو نقل المعارف اللسانية الأجنبية إلى اللسان العربي، جزء لا يتجزأ من نشاطات الباحث التي لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال. ولئن كان الجانب الأوفر من عملية الترجمة هذه تَمثلُ هذه المعارف واستيعابها استيعابا نقديا، بغية تدريسها من قبل الباحث، وهي التي نصطلح عليها بالترجمة الفكرية، فإن الترجمة المألوفة، أو الترجمة العلمية، والتي هي نقل نصوص في اللسانيات الغربية إلى نصوص في اللسان العربي، مكتوبة منشورة في مجلات متخصصة ومؤلفات فردية وجماعية، باتت هي الأخرى أكثر شيوعنا في أوساط الجامعات الجزائرية بالنظر إلى الحاجة إلى تزويد الطالب المفتقر إلى الألسن الأجنبية بما استجد من معارف ونظريات في مختلف دوائر علوم اللغة. والحق أن الترجمة هذه أكثر صعوبة من الترجمة الفكرية التي غالبا ما يجد فيها الباحث الناقل للمعارف الأجنبية، شفويا أو كتابيا، متسعا في التعبير خلافا للترجمة العلمية المتخصصة التي تفترض فضلا عن الأمانة والصدق والدقة والملاءمة في نقل المفاهيم وصياغة المصطلحات المعبرة عنها، قدرة الباحث المترجم على مجابهة العقبات التركيبية، والدلالية، والتداولية، في نقل النصوص نقلا سديدا، مستوفيا لجميع أركان الترجمة السليمة.

وترتبط بمسألة ترجمة الفكر اللساني الغربي إلى اللسان العربي مسائل متشعبة أخرى، لا تنفصم إحداهن عن الأخريات، ولعل أهمها، في اعتقادنا، طبيعة تلقي الباحث الجزائري، والعربي عموما، لهذا الفكر الذي سمته التجدد والتحول دوما. ولئن بات التلقي العربي للسانيات الغرب منذ أن أخرج اللغوي عبد الواحد وافي أوّل كتاب في اللسانيات سنة 1941[59]، يغتني كل سنة بعدد معتبر من الترجمات اللسانية، فإن أهم محطة من هذا التلقي كانت نقل كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، المنسوب إلى دو سوسير، في أثناء ثمانينات القرن الماضي، خمس ترجمات مختلفة، لـم يكن لها الأثر الحميد في تحسين واقع الدراسات اللسانية. إن تلقينا للفكر اللسانيات الغربي لن

[59] – عبد الواحد وافي، علم اللغة، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، 2004.

يبلغ، في اعتقادنا، ذروته التي نرجوها إلا من خلال التوفيق، أو الجمع، أو الدمج، بين القطاعات الثّلاث الّتي نعدها تتقاسم الدراسات اللغوية عندنا، أما القطاع الأول فهو قطاع اللسانيات العربية، وهو مجال عادة ما تحركه الأقلام العربية، ولئن وجدت في جامعاتنا من الأقلام التي ألفت فيه بألسن أجنبية (عادة فرنسية أو إنجليزية)، فهي نادرة مقارنة بما كتب عن اللسانيات العربية بلسان عربي. أما القطاع الثاني فهو قطاع اللسانيات الغربية المعبر عنها باللسان العربي، وهو مجال لسانياتي سرعان ما بدأ يزاحم اللسانيات العربية منذ ترجمة المؤلفات الرائدة في اللسانيات الغربية، بدءا بترجمة كتاب المحاضرات المنسوب إلى دو سوسير. وأما القطاع الثالث فهو قطاع اللسانيات الغربية المعبر عنها بالألسن الغربية (عاد فرنسية أو إنجليزية). وإننا نريد القول بالتوفيق، أو الجمع، أو الدمج، استحداث آلية تكوينية إلزامية، في دائرة كلية الآداب واللغات والفنون، من مثل الجلسات، أو الندوات، أو الملتقيات، أو الأيام الدراسية، يشارك فيها جميع الفاعلين من أساتذة وباحثين وطلبة أطوار الدكتوراه والماستر والليسانس من أقسام اللغة العربية وآدابها، والفرنسية، والإنجليزية. إن التواصل بين الفئات الثلاث يسهم، في اعتقادنا، إسهاما كبيرا في تقليص الهوة التي ما انفكت تزداد عمقا بين الفكر النحوي واللغوي العربي وبين الفكر اللساني العالمي.

ومن شأن هذه الآلية أن تسهم أيضا في ترقية التخصصات اللسانية من خلال خلق فرص الحوار بين الطلبة و مؤطريهم المشتغلين، من مختلف الأقسام، بالتخصص ذاته، أو الموضوع نفسه، أو الإشكالية عينها، وقد تتجلى أيسر النشاطات المصاحبة لهذه الآلية في تكليف الطلبة بتقديم العروض والملخصات حول المؤلفات المؤسسة لهذا التخصص أو ذاك، في جلسات أسبوعية يدعى إليها من الأقسام الثلاث الطلبة المعنيين، وتحريكهم نحو مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية، وتزويدهم بمختلف مناهج علم الاجتماع في تحري المعلومات واستقصاء المعطيات الاجتماعية. لقد نشأت اللسانيات العربية لسانيات تطبيقية عندما عمد، أوّل الأمر، أبو الأسود الدؤلي إلى نقط المصحف الشريف، وأحدث أولى أسس النحو العربي، وهي اليوم مطالبة، أكثر من أي وقت مضى، بأن تحقق هذه الغاية، أي أن تعيد الصلة من جديد بين اللّسانيات ومختلف قطاعات الحياة الاجتماعية، بأن يتجه بها الباحثون، والطّلبة، سبيل التخصّص التّطبيقي.

ملامح الفكر اللّساني في القرن الواحد والعشرين

لـم يعد تاريخ اللّسانيات يحتفي بفكر دو سوسير اللساني على النحو الذي كان يحتفي به قبل نشر كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة سنة 2002، فقد بات هذا الاستكشاف مبررا لإعادة النظر في تاريخ الفكر اللساني الحديث برمته، وفتحت هذه النصوص الجديدة عهدا آخر في مسار تلقي الفكر السوسيري، إذ أضحت تتويجا للمرحلة الرابعة من المراحل التي توالت على قراءة لسانيات دو سوسير واستثمار أفكاره في مجلات مختلفة من الفكر الإنساني الحديث. لكن العودة إلى دو سوسير من جديد ليست الملمح الوحيد لهذا القرن الواحد والعشرين[60]، إذ تشهد الساحة الفكرية اللغوية بروز نظريات ومباحث لسانية ليس لنا عهد بها، وهي على الرغم من جدتها، إلا أنها تعيد صياغة جملة من الأفكار والمسائل صياغة جديدة على نحو ما تفعل، في أستراليا، الآن، ما بات يعرف باللسانيات الثقافية[61]، أو في الولايات المتحدة الأمريكية، الآن أيضا، ما أضحى يسمى بالتداوليات العابرة للثقافات[62]. ولقد رافقت العناية بالاختلافات الثقافية عناية بدراسة اللهجات وبات الباحثون، في هذا الحقل، يتساءلون عن علل التغيرات اللسانية، في الأمة الواحدة، وتعدد اللهجات فيها، والظروف التي أدت إلى حصولها. ولئن أصبح التغير اللساني، عبر الزمن والمكان، من بين النواميس التي أقرت بها اللسانيات التاريخية منذ القرن التاسع عشر، فإن دراسة اللهجات باتت هي الأخرى، في هذا القرن الواحد والعشرين، واحدة من المواد اللسانية التي يستعان بها في فهم المجتمعات، وتمثل اختلافاته الثقافية[63].

ولا تعبّر هذه المباحث الجديدة والفتوحات المتجددة عن أصالة الفكر اللساني المعاصر بقدر ما تعبّر عن التحول المستمر الذي يشهده الفكر الإنساني من خلال النظر في الموروث نظرة إجلال وإكبار تارة، ونظرة انتقاد ونأي تارة

---

[60] – ينظر كتابنا: دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات، بيروت، دار الروافد الثقافية، 2018.

[61] - F. Sharifain (ed.), Advances in Cultural Linguistics, Melbourne, Springer, 2017.

[62] - A. Wierzbicka, Cross-cultural Pragmatics, The Hague, Mouton De Gruyter, 2^{ed}., 2003.

[63] - C. Boberg, J. Nerbonne & D. Watt (éd.), The Handbook in Dialectology, Oxford, Wiley Blackwell, 2018.

أخرى، فهو لا يزال يجل الانتقال الذي أحدثه اللغويون من الصوت إلى الفونيم على نحو ما قام به اللغوي السويسري يوست وينتلار (1846-1929) منذ سنة 1876 حين أدرك ضرورة التفريق بين نوعين من الأصوات، تلك التي تسهم في التمييز بين الكلمات وبين تلك التي لا تضطلع بهذه الوظيفة، وعلى نحو ما قام به اللغوي العربي ابن جني (ت. 392 هـ) حين أكد هو الآخر على ضرورة التمييز بين الصوت والحرف بقوله: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا»[64].

كما لا يزال يمقت تلك الدعاوى الأيديولوجية التي تراتب الألسن على أساس عرقي، وتدّعي أن إحداهن أرقى، وأسمى، وأنقى من الأخريات، وغيرها من الدعاوى التي لا أساس لها متين، ولا تجد لنفسها ركنا ركين. ولقد أدرك اللغويون على اختلاف انتماءاتهم أن اللسانيات كانت وما تزال وستبقى من بين أهم الموروثات المؤسسة لوعي الإنسان بإنسانيته، لأنها تتدارس اللغة ومختلفة الألسنة، وهذه فضلا عن كونها جزء لا يتجزأ من الثقافات، ورافدها الرئيس الذي يعبر عنها، والشرط الوحيد لقيامها، هي أيضا ما وصفها به إيسوب وهو يحاور سيده قائلا: «وهل ثمة، يا سيدي، من شيء أجود من اللسان؟ إنه عروة الحياة المدنية، ومفتاح العلوم، وآلة الحقيقة والعقل. به تشيد المدن وتنظم، وبه نعلّم ونقنع، وبه نصول في المجالس وبه نؤدي فريضة الدين»[65].

في التّكوين اللّساني وعدّة الباحث المعرفية

إنّ اللّسانيات يجب أن تكون لها، في الأمة، المكانة الأرقى، ضمن سائر العلوم والمعارف التي تلقنها للأجيال، لأن اللسانيات، وعلوم اللغة عموما، باتت مما لا يمكن الاستغناء عنه بتاتا، كما يجب أن تعد العدة لتكوين الباحثين فيها، لأن التحدي الذي يواجهه اللسان العربي ليس بالتحدي الهين،

[64] - أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح. حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 1993، ص. 6.

[65] - J. de La Fontaine, Les Fables précédées de La vie d'Esope le phrygien, Paris, J. Vermot, 1880, pp. xxiii-xxxiv.

إنه تحدي حضاري لا تقوم للأمة قائمة إلا به. لأجل ذلك يجب أن يمتلك الباحث نصيبا ممّا ترك اللّغويون الأوائل من المعارف، وأن يكون متعددا، أو مزدوج اللّسان، فلا يركن إلى ما يترجم له من مؤلفات أجنبية، بل يكون دائم التواصل بالأصول لاسيما ما يكتب منها في العقود القليلة الأخيرة، بالألسن الإنجليزي والفرنسي والألماني. وأن تكون في عُدته كثرة القواميس المتخصصة التي وضعت في شتى فروع المعرفة اللسانية من مثل اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الثقافية، واللسانيات الحاسوبية، واللسانيات المعرفية، وغيرها من الفروع التي تمتح منها اللسانيات التطبيقية حتى تسهم في معالجة المسائل التي تطرأ على الحياة الاجتماعية للأمة وما يُحتاج إليه في ميادين تعليم الألسن، والتربية، ودراسة التصورات الثقافية، وأمراض الكلام، وغيرها من الميادين التي لا تحصى، ولا غنى فيها عن اللسانيات إطلاقا.

إنّ اللّسانيات الاجتماعية، لو رمنا مثالا ملموسا لما نحن ماضون فيه، باتت في السنوات القليلة الأخيرة لا تغادر ميدان بحث مرت به إلا وأغنته، فهي تحاور ميادين الصحة، والعمل، والتربية، والتكوين المهني، وغيرها من الميادين التي لا يحتاج إلى ذكرها، وهي، أي اللسانيات الاجتماعية، ما تنفك تسهم في فك مبهمات كثير من المسائل من مختلف المجالات والقطاعات، من مثل الديموغرافيات اللسانية، والازدواجية اللسانية العامة، أو الازدواجية اللسانية عند فئة خاصة من المجتمع، والتخطيط اللغوي، ودراسة اللهجات، وإثنوغرافيات الكلام، ومستويات الكلام، والتغيرات الصوتية والنحوية، والتنشئة الاجتماعية والانتقال الثقافي، والتنمية اللغوية للطفل، والنسبية اللغوية، ونظريات النص وغيرها من المجالات الأخرى التي لا يسع المقام الإفاضة فيها. ولقد باتت الترجمة واحدة من أهم روافد رقي الأمم، ولا سبيل للانتماء إلى هذا العالم إلا بها، لكننا لا نروم الاحتفاء بالترجمة بالدعوة، فقط، إلى تكوين المترجمين وتزويدهم بالعدة اللازمة، إنما نود أن نردف إلى ما قلناه من ضرورة امتلاك الباحث في اللسانيات لناصية ألسن أجنبية، قدرتَه على تمثل المعارف التي يطلع عليها ومن ثم التعبير عنها تعبيرا عربيا سليما، متحللا من سوء التكلّف، ونائيا عن استحداث المفردات الغريبة، المعربة تعريبا مشينا، مستندٍ إلى أسلوب الاقتراض الذي أضحى شائعا في أدبيات الترجمة اللسانية. ولقد عطّل الباحثون الناقلون للثقافات الأجنبية إلى اللسان

العربي آلة الاشتقاق التي هي أرقى الوسائل اللسانية المعينة على إثراء الثقافة العربية، فلا عجب أن يصادف الباحث كثيرا من تلك المفردات الهجينة من مثل البوليفونية « polyphonie » والسنتكسيكية « syntaxique »، وغيرهما من المفردات التي يستعصي إدراكها على المبتدئ.

في التّرجمة والتّأويل

أضحى علم الترجمة والتأويليات ميداني بحث لا ينفصمان، ولقد قُدر لهما ذلك بعد أن عانى الباحثون وممارسو الترجمة ضرورة اللجوء إلى تفسير النصوص، أو تأويلها إذا دعت الحاجة إلى ذلك، قبل الإقبال على نقلها إلى نصوص أخرى، فأطلق هانز غدمار قولته الشهيرة، «لا يمكننا أن نترجم ما لم نؤول»[66]، وتقبلتها السيميائيات قبولا حسنا على لسان إمبرتو إيكو[67]، بعد أن مهّد جورج شتاينر له الطريق وكان أطلق هو الآخر، في كتابه «ما بعد بابل»، قولته الشهيرة « الفهمُ ترجمةٌ »، فقال بعد أن استعرض جملة المسائل الأدبية التي لا سبيل إلى ترجمتها إلا بفهمها أولا: «إن الأمثلة التي سقناها آنفا غايتها إقرار فكرة بسيطة مفادها أن كل قراءة معمقة لنص اجتث من ماضي لسانٍ أو أدبٍ ما، هي فعل تأويلي مكوناته متعددة»[68]. ولئن كانت العلة في ذلك تكمن في التحول الدائم الذي يعرض للألسن، فإن النظر في الشعر المعاصر، مثلا، يُخلِص إلى اليقين بأن من النصوص الشعرية المعاصرة ما لا يمكن نقله إلى ألسن أخرى إلا إذا أجرى عليها المترجم أداة التأويل، وارتضى لها معنى من بين المعاني التي تجيزها ميزة الكثافة التي تتسم بها. ولعل هذه الميزة هي التي قادت الممارسة السيميائية إلى اللجوء إلى مفهوم التناظر قصد ترتيب قراءة النصوص الشعرية وفق مسارات تأويلية ممكنة، قدم لنا منها فرانسوا

---

[66] - G. Gadamer, Vérité et méthode, tr. P. Fruchon, J. Grondin et G. Merlio, Paris Seuil, 1976, p. 406.

[67] - U. Eco, Dire presque la même chose, Expérience de traduction, tr. M. Bouzaher, Paris, Grasset, 2003, p. 272.

[68] - G. Steiner, Après Babel. Une poétique du dire et de la traduction, tr L. Lotringer, Paris, Albin Michel, 1978, p. 28.

راستي، منذ عقود خلت، خير مثال عندما راح يقرأ قصيدة « Salut » للشاعر الفرنسي مالارمي على هذا المنوال[69].

ولئن كان لجوء البحوث السيميائية إلى مفهوم التناظر من دافع البحث عن مسار لقراءة النصوص، والتسلل عبر مضامينها، والانتقال من مضمون إلى آخر، فإن الفكر الإسلامي الذي تناول النص القرآني من هذه الوجهة اتخذ هو الآخر، قرونا من قبلُ، هذا النمط من القراءة باستخدام مفهوم المناسبة، وهو إجراء يعمد أولا إلى تقسيم النص إلى وحدات نصية، ومن ثم البحث في المناسبة التي ترتبط بها هذه الوحدات فيما بينها، فتتخذ مسارا تفسيريا (أو تأويليا) متجانسا متسقا. ولئن كان التفسير والتأويل عادة ما استعملا للدلالة على المفهوم، أو التصور، ذاته، فقد أصبح مدلوليهما في بعض الأدبيات المعاصرة متمايزين، يُعبر بهما عن قراءتين مختلفتين، تـحكمهما ضوابط مختلفة وتسيرهما قواعد خاصة. لكن الذي يعنينا في هذا المقام ارتباط عملية الترجمة بهذا أو ذاك، فهي لا تنفك تلجأ إلى كليهما. وحتى نزيل عن نفسنا الحرج الذي قد نقع فيه لو لم نحسن التمييز بينهما، نستقر إلى القول إن التأويليات هي فن (أو علم) تفسير النصوص، حتى وإن استحال هذا التفسير إلى تأويل، من خلال صرف الكلمة عن دلالتها، أو الجملة عن معناها، الأصليين.

ولقد وجدت تأويليات الترجمة من يذود عنها، ليزيل عنها وصمة الذاتية التي وصمها بها خصومها من دعاة الموضوعية، ويشار إليها بافتقارها للأدوات المنهجية التطبيقية التي من شأنها توجيه المترجم توجيها عمليا، فقد باتت الموضوعية التي تعلق بأمانيها المنظرون للترجمة على مر العصور، وقعد لها المنتسبون إلى البنيويات، باتت مـجرد وهم، ولم تعد المنهجيات المستندة إلى الكلمة وإلى تحليلها السيمي تستمر في الادّعاء بتزويد المترجم بهذه الموضوعية، فقد خلصت لسانيات النص إلى القناعة بأن الترجمة لا يمكنها بأي حال من الأحوال الركون إلى طريقة النقل المستندة إلى البحث عن الـمكافئات للبنيات الصغرى، وانتقل مفهوم الوحدة الترجمية من مستوى البنية اللسانية الصغرى إلى البنية الكبرى، أي ليشمل النص بكليته، لا بأجزائه، وأضحى لمفهومي تعدد القراءة، بعد رولات بارت، والأثر المفتوح، على

[69] - A. J. Greimas, « Problèmes sémiotiques de la traduction. La traduction de la Bible », Sémiotique et Bible, n° 32, 1983, pp. 1-11.

إثر أمبرتو إيكو، دلالة على هشاشة النزعة الموضوعية، وتقرير على مشروعية النزعة التأويلية[70].

صحيح أنّ التأويليات لم تنتهي بعدُ إلى منهجية عملية مـحددة الـمعالـم لكنها أسهمت، على الرغم من ذلك، في إزالة عدد من الأوهام لعل أهمها الاعتقاد بأن المعنى كامن في النص ذاته، وعدم الاكتراث بالقارئ المتلقي للنص، سواء كان مترجما له أو لم يكن. إن فعل القراءة حوار ما ينفك يجريه القارئ مع النص، ولئن كانت الكلمات هي الـمرشدات فإن سفر القارئ في عالم النص لا يمكن أن يسلبه ما هو عليه، ولا يمكن أن ينسيه عالمه الخاص الذي أتى منه مزودا بآليات للفهم شخصية، وأدوات للتمثل والإدراك فردية. ولقد نجم عن هذا التحول إلى إشراك القارئ في تأليف معاني النص إزاحة صفة الوسيط عنه، بين النص المراد نقله والنص المنقول، وأسقطت عنه وظيفة الناقل، العابر بالمعاني عبر النصوص. لأن المترجم لا ينقل إلا ما قد فهم، وفهمُه، لا محالة، لا يستند إلا إلى ما هو حاضر بذهنه ويُـجيده عقله[71].

لقد حازت الترجمة في تأويليات هانس غدامار وبول ريكور موقعا مـحوريا، فباتت عند هذا وذاك نـموذجا فلسفيا، يقر الأوّل فيه بعلاقتها بشمولية اللغة بينما يصر الثاني على مقتضياتها الأخلاقية. ولئن كانت الترجمة اتخذت ضمن نسقيهما التأويليين الفينومينولوجيين هذا القدر من الاهتمام فذلك لأن الرجلين كانا متعددي الألسن وكلاهما درّس بجامعات أجنبية، لكن الترجمة ما انفكت تتخذ، في كتابات بول ريكو الأخيرة شأنا متعاظما إلى درجة أضحت تـمثل، إلى جانب الرمز والنص، مكوّنا رئيسا في تأويلياته، ولعّل هذا ما يجعل، من منظورنا، من تأويليات ريكور أقرب التأويليات إلى مبتغانا[72]. ولقد خلص دومنيكو جرفولينو، في دراسته حول تأويليات ريكور إلى التمييز فيها بين أنموذجات ثلاثة، هي ما ذكرنا، أنموذج

---

70 - I. Balacescu et B. Stefanink, « Défense et illustration de l’approche herméneutique en traduction », Meta, vol. 50, 2005, p. 636.

71 - Idem, p. 637.

72 – ينظر، ضمن مؤلفاته، على وجه التحديد كتابه حول الترجمة.

- P. Ricoeur, Sur la traduction, Paris, Bayard, 2004.

الرمز، وأنموذج النص، وأنموذج الترجمة[73]. إن أنموذجات ريكور هذه تجيز لنا، من وجهة نظرنا في هذا العمل، اللجوء إلى السيميائيات، ولسانيات النص والتأويليات، من أجل الولوج إلى عالم الترجمة، لأسباب باتت اليوم معلومة، لعل أهمها يتصل بطبيعة الترجمة، فهذه لـم تعد يُعنى بها دلالتَها الخاصة، والتي هي نقل المعنى من نص، صيغ في لسان ما، إلى نص آخر، صيغ في لسان آخر، بل أضحت يعنى بها، عموما، نقل المعنى من نص سيميائي، صيغ في نسق سيميائي ما، إلى نص آخر من سيميائيات أخرى. بحيث يغدو لمفهوم النص، هو الآخر، دلالة غير الدلالية التي يكتسيها النص الذي صيغ في لسان ما، وبه يتم الانتقال من مقام التفسير إلى مقام التأويل.

ولئن كانت اللّسان الفرنسي عادة ما يعبر عن المقامين بلفظ « interprétation »، فإننا هاهنا مطالبون، إزاء لفظتي التفسير والتأويل، على التوكيد على كيفيات استعمالهما، إذ باتت اللفظتين، بعد مرحلة كانتا فيها مترادفتين، تدلان على مقاربتين نصيتين متمايزتين. وإن الذي نستقر إليه أن انتفاء التفسير أو التأويل لا يعني بالضرورة انتفاء الفهم وعدم تمثل معاني النص، إنما ينشأ التفسير أو التأويل نتيجة البحث عن حصر كل مضامين النص وكل ما يمكن أن يحتمله من معاني لا تبرز في التعبير بروزا تاما، وهو ما ذهب إليه محمود بيجو في تحقيقه لمؤَّلف أبي حامد الغزالي في مؤلَّفه «قانون التأويل»، حيث يقول، بخصوص النص القرآني: «لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما في القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله، فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة، وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر أو مخالفا له. والتأويل في كلام كثير من المفسرين، كابن جرير ونحوه، يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معرفة، وهذا التأويل كالتفسير، يحمد حقه، ويرد باطله»[74].

وما يصلح، في هذا الشأن للنص القرآني، نجده يصلح أيضا على النصوص البشرية، بمعنى أن المحقق صدّق من هذا المنظور ما ذهبت إليه التداوليات

---

[73] - D. Jervolino, Paule Ricoeur. Une herméneutique de la condition humaine, Paris, Ellipses, 2002, pp. 637.

[74] - أبو حامد الغزالي، قانون التأويل، تح. محمود بيجو، صص. 4-5.

في صياغتها لـمبدأ التعاون والقصد في التواصل والتبليغ، وما يتفرع عنه من قواعد تخاطبية اجتهد بول غرايس في تبيانها[75]، عندما يتعلق الأمر بأخلاقيات الحوار التي صاغ منها طه عبد الرحمن، ومن غيرها من النظريات العربية والغربية، «في أصول الحوار وتجديد علم الكلام»، فقال فيها: «يقتضي هذا النموذج تأسيس الدلالة اللغوية على قصود المتكلمين، ويتخذ الصورة التالية: إن قول القائل لا يمكن أن يفيد شيئا إلا إذا قصد القائل الأمور الثلاثة الآتية: 1) أن يدفع قولُه إلى نهوض المقول له بالجواب، 2) أن يتعرف المقول له على هذا القصد، 3) أن يكون انتهاض المقول له بالجواب مستندا إلى تعرفه على قصد القائل»[76]. ونخلص إلى القول بأن المترجم يجب أن يسعى إلى نقل كل المعنى الذي يمكن نقله، فلا ينقص منه شيئا ولا يزيد عليه شيئا، وأن يكون فضلا عن ذلك منصتا إلى ما يقصده المؤلف، وإننا في ترجمتنا لكتاب «في جوهر اللغة» كثيرا ما اجتهدنا في التوفيق بين هذين الطلبين، فما رأيناه موافقا من فقرات النص لهذين المطلبين سارعنا في نقله، وما كان دون ذلك تريّثنا حتى يـجتمع لدينا من المعارف ما يُسهم في تأويله أو تفسيره.

في سيميائيات الترجمة

لقد صادفت السيميائيات، في مشوارها الاستكشافي عن بنية النصوص الدلالية، الترجمة فأسهمت، عند مقاربتها بأدواتها الخاصة، في التوكيد مجددا على الطابع التأويلي للفعل الترجمي، وكان غريماس، وهو يروم معالجة مسألة ترجمة التوراة، اقترح طريقة في انتهاج الترجمة مستندا إلى تصور سيميائي أصيل[77]. ولقد كنا في كتابنا «سيميائيات ترجمة النص القرآني»[78] قد عرضنا لهذا التصور بشيء من التفصيل، ولا مناص لنا من أن نعاود التذكير به في هذه

---

75 - P. Grice, Logic and conversation in Studies in the Way of Words, Cambridge, Harvard University Press, 4 ed., 1995, pp. 22-40.

76 – طه عبد الرحمن في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الرباط، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000، ص. 45.

77 - F. Rastier, Systématique des isotopies, in A. J. Greimas et al., Essai de sémiotique poétique, Paris, Larousse, 1972, pp. 80-106.

78 – مختار زواوي، سيميائيات ترجمة النص القرآني، وهران، بيروت، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد، الطبعة الأولى، 2015، صص. 33–39 .

الصفحات، إذ إننا نعاود استحضاره ليكون لنا سبيلا في اجتياز مغامرة نقل كتاب دو سوسير، «في جوهري اللغة»، إلى اللسان العربي. إن الترجمة، وفق هذا التصور، فعل معرفي ونشاط مبدع للمعنى، ويبرز هذا النشاط الترجمي على كلّ المستويات: فالألسن الطبيعية تنماز بكونها الفضاء الذي يترجم فيه عالم الحس المشترك فتغدو إذن كلغات واصفة تمكننا من الكلام على العالم. كما إن الألسن الطبيعية أفضية تنجز فيها ترجمة عدد لا يحصى من الموضوعات السيميائية غير اللسانية. وهي تعمل كلغات واصفة لنفسها، مبتكرة أفضية جديدة للمعرفة ونقدها.

إنّ التّرجمة - في نظر السيميائيات - فعل معرفي يمكن وصفه بأنه جملة من العلميات اللسانية الواقعة بين النص المبتدى « ab quo » والنص المنتهي « ad quem »، غايتها تحقيق تضايف بين النصين، نتيجة تحويل حاصل بينهما، وهو تحويل موجه يمضي من النص الأصلي إلى النص الهدف، وليس عكس ذلك. هذا يعني أن الترجمة إنما هي عمليات تحويل وأن مجموعها عبارة عن نسق تضايفي، وهذا النسق عبارة عن موضوع سيميائي مستقل. وفيما يقع التحويل على المستوى الدلالي المنطقي والتجريدي للغة، فإن تمظهره على مستوى السطح يكون في شكل عمليات يجزها الأفراد العارفون، وهي عمليات خليقة بأن تنتظم في شكل برنامج من مرحلتين: أما المرحلة الأولى فهي تتمثل في التكفل بالنص المبتدى وهذا الصنيع من قبيل الفعل التفسيري الذي يشمل عمليات الشرح، والتقطيع، وتسمية المقطوعات.

إنّ المترجم، عندما ينشأ هذا التفسير، ينجز في الوقت ذاته لغته الواصفة الخاصة به، التي تعد في مرحلة أولى لغة غير علمية، لا يمكنها أن ترقى إلى درجة العلمية إلا بجهد إضافي من الانسجام في البناء، ومراعاة أحادية المصطلحات المستعملة وتعريفاتها المترابطة. إن ترجمة النص إلى لغة واصفة من هذا النمط تتخذ حينذاك اسم التحليل السيميائي للخطاب. وأما المرحلة الثانية من البرنامج فهي تبدأ عندما يُشرع في إعادة إنتاج النص المؤوّل في اللسان المنتهى، ولا يجب الاقتصار فقط على التوكيد على ضرورة التكافؤ مع النص الأصلي، والطابع الانتاجي لهذا النشاط المعرفي الذي يتضمن معرفة الفضاء الدلالي الذي يُنتج فيه النص الجديد، بل يجب التوكيد أيضا على ضرورة التكفل بمجموع عمليات الإنتاج. وكثيرا ما يتحول الباحثون

عن عملية الترجمة ذاتها إلى مدارستها من خلال ما تم نقله من نصوص، وإسناد نتائجهم ونظراتهم بشأنها إلى عملهم حول هذه النصوص. بيد إن الأمر ليس سيان، إذ ثمة فرق بين أن تتخذ العملية الترجمية ذاتها موضوعا للبحث وبين أن تُأتى عن طريق النصوص المترجمة. ولما كانت الترجمة نقل معنى نص ما من لسان ما إلى نص من لسان آخر، اتجهت الأنظار إلى النصين وقلما حظيت عملية النقل ذاتها بالدرس المستقل. والترجمة، بوصفها أيضا مجموعة من التحويلات التي تقع بين النصين، موجهة « orientée » من النص الأول إلى النص الثاني وليس العكس، اختلفت في بعض الدقائق من لسان إلى آخر، واتفقت في البعض الآخر، فيتم التمييز حينئذ بين الترجمة بوصفها مبحثا نظريا وبين الترجمة من لسان إلى لسان آخر معلومين وهي التي سماها بعضهم بالترجمة التداولية، أو الترجمة المتخصصة.

إنّ الترجمة مجموعة من التحويلات طبيعتها الأولى أنها تحويلات ذهنية، أي أنها تتم في ذهن المترجم، القارئ، الذي يحاول أن ينتقل من لسان إلى آخر، لينتج من النص نصا. والمعروف أن المتكلم القارئ، أيا كانت درجة ثقافته وتعليمه، يمتلك معجما ذهنيا ومعرفة بالقواعد التي تنظم تركيب مفردات هذا المعجم ضمن جمل، وبتلك التي تنظم تركيب الجمل في نصوص. فإذا امتلك الفرد معجما ذهنيا مزدوجا، وطرائق تنظيم مفرداتهما كان ممن تـحْصُل لديهم القدرة على الانتقال من لسان إلى آخر. وتلتقي هذه الخصيصة بخصيصة الازدواجية اللسانية، بل إن كثيرا من البحوث الرائدة في الازدواجية اللسانية، سواء تلك التي تنحو منحى التنظير، أو تلك المتخصصة في ازدواجية بعينها، يمكنها أن تُسهم في التعريف بالعملية الترجمية. والترجمة منشأها القراءة بوصفها هي الأخرى عملية ذهنية، بيد إن هذه، أي القراءة، تنطلق من الدال وتستدعي المدلول، فهو حاضر موجود لا ينفك عنه، بينما تنطلق الترجمة من المدلول لتنتج علامة جديدة، يسعى بها المترجم لأن يُوفق في إنتاج مدلول أكثر قربا من المدلول الأوّل، وغالبا ما تكون غائبة أو غير موجودة أصلا.

ولعلّ مزدوجي الألسن أدرى بصعوبة المرمى، إذ إن المعاني ليست مطروحة في الطريق يعرفه القاصي والداني، إنما المعنى استعمالُه، مثلما أشار إلى ذلك فتجنشتاين، وهي مرتبطة بالسياق، والمقام والحال ارتباطا عضويا، مثلما تنص عليه التداوليات. ولما كانت المقامات، والأحوال، والسياقات

مختلفة اختلاف الشعوب وتنوع ثقافتها، عزّت الترجمة، وهي وإن كثرت قلّت جودتها وفقدت في كثير من الأحيان صحتها، وتسلل إليها الخلل من جميع منافذها.

إن التحويلات التي يـجريها الـمترجم قصد الانتقال بالمعنى من النص المراد ترجمته إلـى نص جديد، صيغ فـي لسان مـختلف، تسير طرق الكلام فيه قواعد لسانية مـختلفة، هي تـحويلات لسانية بالدرجة الأولـى، وهي تأتـي، ضمن مراتب البرنامج الترجمي الذي يعده المترجم، في الـمرتبة التي تلي تقسيم النص إلى وحدات لسانية صغرى، تشكل الوحدات الترجمية التي تُـجرى عليها التحويلات اللسانية. وفـي هذا الشأن، تعتبر الدراسة الـمقارنة لطرائق صياغة الجمل فـي اللسانيين، الـمنقول عنه والمنقول إليه، من بين العمليات المقدِمة للتحويلات اللسانية. إن اختلاف طرائق إنتاج الجمل، فـي كلا من اللسانيين العربي والفرنسي مثلا، تلزم الـمترجم البحثَ الـمتجددَ فـي التجارب اللسانية للناطقين باللسانيين، من أجل تـحصيل واف لـمختلف الـمتكافئات اللسانية.

القسم الثّاني – تطبيقي

إنّ المنهجية الترجمية التي جئنا على وصف بعض ملامحها، والتي استقيناها من سيميائيات غريماس، من شأنها أن تستعمل في ترجمة النصوص العلمية، لكن نقل فكر دو سوسير إلى اللسان العربي ليس بالأمر الهين، ولاسيما النص الذي نرومه، ونعني به كتابه «في جوهري اللغة»، الذي تفصلنا عنه فترة زمنية ليست بالوجيزة. ففضلا عن التطور التي تتميز به الألسن عموما، فإن طبيعة النص هذا تضيف إلى العقبات التي تجابه ترجمته عقبة أخرى، إذ ليس مضمون النص لسانيات بامتياز، بل هو فضلا عن ذلك يستدعي مصطلحات ومفاهيم من مجالات معرفية أخرى من مثل الفلسفة، والرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، وتاريخ الفكر.

في ترجمة فكر دو سوسير اللساني

ليس لنا أن نُخفي تعثر الباحث العربي في ترجمة فكر دو سوسير اللساني، فلقد باتت هذه العثرات مانعا دون تمثله تمثلا صحيحا، ولا يقتصر هذا الملمح على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي نقل إلى العربية، في ثـمانينيات القرن الماضي، خمس مرات، اختلفت الترجمات فيما بينها اختلافا كبيرا، بل يطال أيضا ترجمة ما ألفه المؤلفون في فكر دو سوسير، قديمهم وحديثهم. لذلك لا نخال أنفسنا نجانب الصواب إن زعمنا أن جهاز دو سوسير المصطلحاتي المعرب يشوبه الخلل والاضطراب، وأن عددا من باحثينا لا يزالون يكتبون عنه دون أن يلتفت الواحد منهم إلى الآخر، فلا اتحد المشرق والمغرب في تصويب منقولاتهم إلى العربية، ولا اجتمعوا على رأي واحد.

ولقد تسائلنا، ونحن نتصفح ترجمة الباحثة ريما بركة لكتاب لويك دوبيكر، «فهم فرديناند دو سوسور وفقا لمخطوطاته»، وهو آخر ما استجد من المؤلفات المنقولة إلى اللسان العربي المعرفة بفكر دو سوسير الجديد، عن علة اختيارها لمصطلح واحد دال على المعنيين اللذين يحتمله المصطلح الفرنسي « morphologie »، ولم نجد لذلك جوابا شافيا إلا اعتقادنا بأنها لم تطلع على «جوهري اللغة» مؤلَّف دو سوسير الجديد، على الرغم من أن الثبت التعريفي المرفق للكتاب المترجم يشير صراحة إلى هذين المعنيين، وهما معنييه العام والخاص، أما العام فهو دراسة الأشكال، وأما الخاص فهو دراسة الأشكال المرتبطة بمعانيها، أي علم الصرف[79]. ولقد بدا ذلك جليا عندما ميز دو سوسير، بصريح العبارة، بين المعنيين العام والخاص، لمفهوم المورفولوجيات، في سياق حدثيه عن الوضع اللساني، ضمن المبحث السادس من كتاب «في جوهري اللغة».

إنّ الصعوبة التي يمكن أن تكتنف كل مشروع لترجمة فكر دو سوسير ليست مقتصرة على الترجمة العربية من دون سائر الألسن الأخرى، لأسباب عديدة، لعل أهمها، في نظرنا، عدم اكتمال المشروع السوسيري واستقراره على جهاز مصطلحاتي يُمكّن من تتبع مجمل توارداته في نصوص دو سوسير

---

[79] – لويك دوبيكر، فهم فرديناند دو سوسور وفقا لمخطوطاته. مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات، تر. ريما بركة، مر. بسام بركة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2015، ص. 291.

المختلفة ومن ثمة الوقوف على دلالاته. أما عدم اكتمال المشروع السوسيري فهو حقيقة ما انفك الباحثون ينبهون إليها حتى يكون المقبلون على مدارسته في بينة من أنفسهم من أن التفسيرات أو التأويلات التي يخلصون إليها إنما هي تفسيرات وتأويلات مؤقتة، لأنها عادة ما تستند إلى قراءة جزئية لعدم اطلاعها على كافة تركة دو سوسير الفكرية التي لا تزال حبيسة رفوف المكتبات الجامعية. وأما صعوبة ترجمة فكر دو سوسير فقد لاحت منذ المحاولة الأولى التي قام بها الروسي ألكسندر روم (1898-1943)، لترجمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، منذ عام 1922، واحتدمت على إثر الكشف عن الهوة التي باتت تفصل فكر دو سوسير الأصيل عما ألّف عنه أو روّج عنه سواء عن طريق كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، أو عما نقل عن هذا الكتاب أو ما ألّف حوله.

ولمّا كان المشروع السوسيري مشروعا لم يكتمل بعد فإن تأويل مضامينه بات مشروعا، بل ضرورة ملحة، ومن هذا المنطلق قد نفهم حرص سيمون بوكي، أحد محققي كتابات دو سوسير الجديدة المنشورة سنة 2002، على توصيف قراءته الخاصة لهذه الكتابات بالقراءة التأويلية[80]، التي تجتنب ما تنتهجه اللسانيات المعاصرة التي قطت صلتها التي كانت تربطها بالبحث الفيلولوجي واستغنت عنه، لاسيما عندما راحت تبتعد عن النصوص وتنأى عن البحث التاريخي، فلم يعد لها حضورا لا في اللسانيات الصورية ولا في التداوليات، متجاهلة مسألة أصالة النصوص والتشبث، خلافا لذلك، بمسألة الحقيقة المنطقية أو فكرة النجاح التداولي.

ولقد نجم عن هذا الموقف الذي اتخذته اللسانيات المعاصرة من البحث الفيلولوجي سوء فهم لكتابات دو سوسير وما انفك يزداد حدة، وأجمل فرانسوا راستي علل سوء الفهم هذا بقوله «إن أغلب اللسانيين لا يحدوهم الحرص الفيلولوجي لتحقيق هذه النصوص، ولا يتوافرون على منهجية تسهم في تحليلها وتمييز المصطلحات عن العبارات العامة، واستبيان الفروق القائمة بين الأجناس التي تنتمي إليها النصوص السوسيرية المختلفة، ويجهلون الأخلاقيات التأويلية التي من شأنها توجيه مسارات قراءتها»[81]. ولذلك فإن

---

[80] - S. Bouquet, « Principes d’une linguistique de l’interprétation : une épistémologie néosaussurienne », Langages, n° 185, 2012, pp. 21-33.

[81] - F. Rastier, « Lire les textes de Saussure », Langages, n° 185, 2012, p. 17.

المعرفة بالجهاز المصطلحاتي تعد واحدة من أهم العوائق التي لا مناص للباحث عن ترجمة سديدة لفكر دو سوسير من تخطيها، ولا يتأتى ذلك، في نظرنا، إلا من خلال إحالة هذه المصطلحات على سياقين مختلفين، أما أوّلهما فهو سياق الفكر العام الذي تتبلور في خضمه التصورات العامة المنشئة لجهاز المصطلحات، وأما ثانيهما فهو السياق النصي الذي تواردت فيه هذه المصطلحات.

في المعارف اللّسانية

لا يستوي عمل المترجم، مهما كان النص الذي يقبل على نقله إلى لسان آخر على درجة من السهولة واليسر في القراءة والتفسير، ما لم يتزود بادئ الأمر بكل ما من شأنه الإسهام في إنارة العالَـم الذي ينتمي إليه النص المراد ترجمته، ولقد اتفق جل العارفين بأمور الترجمة على الإلحاح على ضرورة امتلاك المترجم لقدر كاف من المعارف اللسانية التي تتصل بهذا النص، والنص المنقول إليه، فضلا عما أسماه أمبرتو إيكو بالمعارف الموسوعية، وهي ما نصطلح عليه نحن، بخصوص موضوعنا، بالمعارف اللسانية (المنتمية إلى مجال اللسانيات)، أي بكل تلكم المعارف التي تراكمت في معرفة فكر دو سوسير اللساني، ومنها نصوصه في اللسانيات العامة وسائر ميادين البحث اللساني التي أبدع فيها، وكذا جل النصوص التي قرأته، وفسرته وحاولت تأويل ما اشتبه عليها من أفكاره وتصوراته، نتيجة خاصية تطور فكر دو سوسير التي لن ننفك من التوكيد عليها. نعم، لقد نبه تيليو دو مورو، صاحب الطبعة النقدية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وواحد من الذين يُشهد لهم بمعرفة معمقة بفكر دو سوسير، على خاصية التطور هذه في مناسبات عديدة[82]، أقربها منذ سنوات قليلة خلت حينما اجتمع خيرة الباحثين السوسيريين لمناقشة أهم المسائل التي نجمت عن نشر كتاب «في جوهري اللغة» ومدارسة محتواه[83].

---

[82] - T. de Mauro, « Saussure sur le chemin de la linguistique », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 59, 2006, pp. 41-54.

[83] - F. Rastier, « De l’essence double du langage, un projet révélateur », Arena Romanistica, De l’essence double du langage et le renouveau du saussurisme

إنّنا عندما نروم الحديث عن المعارف اللسانية إنما نعني بها بادي الأمر ذلك الأسلوب الفريد الذي صاغ به دو سوسير «في جوهري اللغة»، وهو كما يبدو للقارئ المتفحص أسلوب فلسفي ينبئ عن تصور أصيل لحقيقة الواقعة اللسانية، يستند إلى ممارسة لسانية متفحصة لعدد من الألسن، وينهل من ذخيرة من المعارف اكتسبها منذ السنوات الأولى من ارتياده ميدان اللسانيات، على إثر تعرفه على أدولف بِكتي، ثم انتسابه إلى جامعة ليبزغ الألمانية، ونيله بها درجة الدكتوراه، ثم انتسابه إلى جمعية باريس اللسانية، ثم تدرسيه بمدرسة الدراسات العليا بباريس وبعدها بجامعة جنيف، وهي الفترة التي شهدت تأليف «في جوهري اللغة». ولذلك فإن النصوص التي توالت هذه الفترات على إنتاجها ليست على قدر واحد من التمثل، والنضج، واليقين، بل هي نصوص تختلف باختلاف وجهات النظر التي أقبل بها دو سوسير على معالجة مسائل مختلفة، حتى باتت فكرة تعدد وجهات النظر موقفا إبيستيمولوجيا قارا احتفى بها كتاب «جوهري اللغة» احتفاء خاصا.

إنّ مرور أزيد من مائة عام على كتاب «في جوهري اللغة» ليس عائقا دون الولوج إلى النصّ الذي صيغ فيه، لأن المدة الزمنية هذه ليست بالقدر الكافي حتى يتغير اللسان الفرنسي تغيرا يصعب معه قراءة النص قراءة متعثّرة. لكنّنا، على الرّغم من تمكّننا في جلّ فقرات كتاب «في جوهري اللّغة» من تلمس المعنى تلمّسا مباشرا، دون العودة إلى المعاجم العامة، فإننا، في بعض فقراته الأخرى بتنا ملزمين على اللجوء إلى المعاجم اللسانية المتخصصة حتى نقف عند حدود بعض المصطلحات. فخلافا لمعجم دو سوسير الفرنسي العام الذي لم يشهد تحولا معتبرا عبر الزمن، فإن عددا من المفردات التي تألّف جهازه المصطلحاتي لم تعد تُستعمل في أدبيات اللسانيات الحديثة والمعاصرة بالمعنى الذي استعمله فيها، ومن ذلك مثلا مصطلح الفونيم، فإن دو سوسير استعمله بوصفه دالا على الصوت الإنساني في مقابل الأصوات الأخرى التي لا تدخل في الأصوات اللغوية بينما أضحى الفونيم دالا في اللسانيات الحديثة، ولاسيما على إثر أعمال مدرسة براغ الفونولوجية واللسانيات الأمريكية، على «العنصر الأصغر، غير القابل للتجزئة،

Numéro spécial à l’occasion du centenaire de la mort de Ferdinand de Saussure (1857–1913), n° 12, 2013, pp. 30-46.

من التمثيل الفونولوجي للملفوظات، والذي تتحدد طبيعته بمجموع الخصائص المميزة»[84].

ولا يعتقدنّ المترجم أن ما عليه مجابهته من صعوبات لا يأتيه إلا جهة اللغة الواصفة « Métalangage »، وهي مجموع ما اصطلح عليها المؤلف من مصطلحات تفيده في بناء نسقه النظري الذي تعامل به في وصف موضوعه وتحليله أو التعريف بوحداته وتصنيفها، بل تأتيه الصعوبات، في أحايين كثيرة، جهة اللغة العادية، ونعني بها أوّلا ما احتوت عليه المؤلفات التي يروم نقلها إلى اللسان العربي من مفردات، ثم النسق التركيبي الذي ائتلفت بموجبه فيما بينها.

وفي هذا الشّأن، يجب أن ينظر المترجم في تراكيب جمل المؤلف ويتأمل أوّلا طرائق تأليف الجمل، وينظر أيضا في العلاقات التي تقيمها، ثانيا، هذه الجمل فيما بينها، ليعلم بأن المعنى المراد نقلها هو نتيجة هاذين النمطين من التركيب: تركيب الكلمات للجمل، وتركيب الجمل للنص، أو لأجزائه. أما تركيب الجمل فيما بينها، فإن من عادة النحو التكفل به، من خلال ما احتوى عليه من مواد علمية تعليمية من مثل مادة الأصوات، ومادة المفردات، ومادة الجمل. وأما تركيب الجمل فيما بينها فإن اللسانيات الحديثة أسهمت في وضع قواعد، عن طريق الاستقراء، عادة ما ينتهجها الكتاب في تآليفهم، علمية كانت أو أدبية.

ولا تنفكّ المعارف اللسانية تستدعي معارف لسانية، ونعي بهذه امتلاك المترجم لنظرات متمرسة في تاريخ اللسانيات، لاسيما الفترة التي أظلت فكر دو سوسير، ونعني بها فترة القرن التاسع عشر الذي استحكمت فيه الدراسات التاريخية المقارنة، وأهم مواقفه منها. إن الناظر في «في جوهري اللغة» يتكشّف أمامه نصيب من هذه المواقف، وهي مواقف تكشف عن عورات النحو المقارن بقدر ما تنبئ عن تصور أصيل للوقائع اللسانية، إذ تنتهج طابع التجريد وتتجرد من طابع الجزئيات فتتعالى عنها لتنتقل في تأمل الواقعة اللسانية من محل اللسان « langue » إلى محل اللغة « langage »، ومن درجة الكلمة إلى درجة الفرد المتكلم.

---

[84] - J. Dubois et al., Dictionnaire de linguistique et science du langage, Paris, Larousse, 2007, p. 359.

في أهمّية السّيّاق النّصّي

لم يعُد يخفى على أي باحث ما للسياق النصي « cotexte » من دور في استخراج المعاني وتحديد دلالات الكلمات وتوارداتها، إذ إن الكلمة قد تتخذ من سياق إلى آخر، بحسب تجاورها مع الكلمات الأخرى، دلالات مختلفة، قد تصل في أحايين كثيرة إلى حد التضاد، ولذلك ما انفكت التداوليات ولسانيات النص وعلوم الترجمة تحتفي بمفهوم السياق النصي احتفاء كبيرا، فجعلت منه مفهوما إجرائيا يسهم في فك ما أبهم من مؤلفات الكُتاب وتصانيفهم. لكن مفهوم السياق النصي قد يستعصي أحيانا على الأفهام، ولا يتيسر إدراكه إدراكا تاما، نتيجة تعدد استعمالاته من باحث إلى آخر، واختلاف حده من مادة علمية إلى أخرى، أو نتيجة عدم تمييزه مع مفاهيم مجاورة أخرى تمييزا دقيقا من مثل السياق والحال والموقف وغيرها من المفاهيم التداولية الأخرى التي تبرز مدى ارتباط الاستعمال اللغوي بمحيطه المباشر أو العام. ولقد أجبرنا اللجوء إلى السياق النصي من أجل إدراك دلالات بعض المصطلحات التي تواردت في «في جوهري اللغة»، ونقلها إلى اللسان العربي نقلا سديدا، ما ألفيناه لدى دو سوسير من استعمالها استعمالا خاصا من مثل مصطلحات « morphologie »، و« phonème »، و« phonétique »، و« vocal » وغيرها من المصطلحات التي بات من الضروري توخي الحذر في اصطحابها بالمكافئ العربي.

إنّ السّيّاق النصي يختلف باختلاف النصوص، ولقد أدركنا حقيقة هذا الاختلاف عندما رحنا نبحث في مسألة ترجمة النص القرآني، إذ تأكدت لنا مدى خصوصيته لارتباطه بمفهوم الوقف ارتباطا وثيقا. ونعني من الوقف ما كان تاما منه، وهو دال على انتهاء المعنى، ولذلك فإننا نتحرى حدود السياقات النصية، في النص الذي نحن مقبلون على ترجمته، بانتهاء المعنى انتهاء تاما، يحسن السكوت عنه، وهو عادة ما يتوافق مع خواتيم الجمل. ولكي نبرز مشروعية اللجوء إلى هذا المفهوم الإجرائي وضرورته المنهجية في قراءة النص، وفهمه، وتفسيره، ونقله إلى اللسان العربي نقلا سديدا، هاهنا نحكي تعاملنا مع مصطلح « morphologie »، من خلال النظر في تورادية التاليين.

1) « Une règle comme celle de sô’pi, et sa sa uvâa (malgré sa tu, sa bhavati) doit-elle figurer, comme exception, dans la règle de “ s final ” ? ou concerne-t-elle la **morphologie** du mot sa ? Il est impossible de le dire, parce que la première règle de “ s final ” est elle-même **morphologique**, et non phonétique »[85].

2) « Point de vue Anachronique, artificiel, voulu et purement didactique, de la PROJECTION d’une **morphologie** (ou d’un “ état de langue ancien ”) sur une **morphologie** (ou sur un autre état de langue postérieur) » [86].

ولقد جرت العادة عند أصحاب المعاجم اللسانية العرب مقابلة مصطلح « morphologie » الفرنسية بمصطلح «الصرف» العربي[87]، وهي من أوجه عدة مقابلة سديدة بالنظر إلى انتماء المصطلحين إلى دائرة النحو في كلا اللسانيين، أمّا المصطلح الفرنسي فقد عرّفه قومه بقولهم إنه «دراسة أشكال (صيغ) الكلمات وهو يشمل مختلف تمظهرات الإعراب والاشتقاق»[88]، وأما العربي فقد حده نحاتنا بقولهم إنه « علم بأصول أحوال الكلم التي ليست إعرابا ولا بناء»[89]. ولذلك فإن المصطلحين متكافئين لارتباط كليهما بمصطلح الكلمة، أو الكلم التي هي أجزاء الخطاب. لكننا لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نركن إلى هذه المقابلة ونحن نتحرى ترجمة توارده الثاني، إذ لا يتصل مصطلح « Morphologie » كما في المثال الأول بمصطلح الكلمة، بل يتصل في السياق النصي الثاني بمصطلح اللسان « langue »، إذ يبرز في هذا السياق

[85] - F. de Saussure, De l’essence double du langage, in Ecrits de linguistique générale, p. 30.

[86] - Idem, pp. 21-22.

[87] – ينظر على سبيل المثال، لا الحصر:

- بسام بركة، معجم اللسانية، طرابلس، لبنان، منشروات جروس برس، الطبعة الأولى، 1985.
- عبد السلام المسدي، معجم اللسانيات، قاموس اللسانيات، بيروت، الدار العربية للكتاب،
- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، بيروت، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1995.

[88] - M. Arrivé et al., La grammaire d’aujourd’hui. Guide alphabétique de linguistique française, Paris, Flammarion, 1986, pp. 392-393.

[89] – حاتم صالح الضامن، الصرف، الموصل، دار الحكمة للطباعة والنشر، 1991، ص. 11.

النصي الثاني بأن المصطلح يراد به ليس تصريف الكلمة الواحدة بل يراد به الوضع اللساني برمته « état de langue »، أو إن شئنا قلنا نسقه العام.

ومن المصطلحات ما يُسهم السياق النصي في الكشف عن مدلولها، ومنها مثلا الاختلاف القائم بين مصطلحي الفونولوجيات والصوتيات، وإنا نورد هاهنا النص الفرنسي حتى يتبين للقارئ ما نقصده تماما بالسياق النصي. يقول دو سوسير:

« Phonologie (ou étude de la phonation). – Étude qui, quelque nom qu'elle reçoive, est absolument indépendante et distincte non seulement de la *phonétique* des différentes langues, mais généralement de la linguistique. – Elle constitue toutefois une science auxiliaire très importante pour la linguistique. – Et cela uniquement par suite du découpement phonétique. L'identité phonologique, ou phonatoire, ou vocale, [ ] »[90] .

ولعلّ أوّل ما يلاحظ في بداية النص استعمال القوسين وأداة « ou » الدالة على الترادف، أي أن الفونولوجيات، في عرف دو سوسير، هي دراسة التصويت، وهي التي نصطلح عليها نحن جمهور اللسانيين بالصوتيات، خاصة وأن تصور دو سوسير لها لا يكاد يختلف عن تصورنا لها، إذ الصوتيات مستقلة عن اللسانيات استقلالا تام، كما هي مستقلة عما يصطلح عليه دو سوسير بـ « phonétique »، والتي تعني لدينا الفونولوجيات. ولقد كنا استشرنا سيمون بوكي عنما عرضت لنا هذه المسألة فأرشدني إلى ضرورة اللجوء إلى السياق اللساني من أجل الوقوف على الدلالة السوسيرية، وكذلك فعلنا.

في السياق النّحوي

لم يحض مفهوم السياق النحوي بالاهتمام الذي حظيت به مختلف السياقات الأخرى في أدبيات الفكر اللساني العربي الحديث، لسبب نظنه

---

90 - F. de Saussure, De l'essence double du langage, in Ecrits de linguistique générale, p. 82.

بسيط هو استغراق السياق اللساني أو النصي له، وكأن الباحثين استغنوا بهما عنه. بيد إن السياق النحوي يسهم هو الآخر في استخراج المعنى من خلال تحديد الوظائف النحوية التي تتخذها الكلمات حسب موقعها من الجمل. ويتخذ مفهوم السياق النحوي موقعه من تحليل لسانياتي بات يستند إلى فرضيات ثلاث ما انفكت، منذ نشأة الدراسات النحوية وإلى يومنا هذا، «أما الفرضية الأولى فإنها تتمثل في القول بأن كل عبارة مركبة، صيغت في لسان ما، يجب تحليلها إلى عناصرها المكونة لها، وهي العناصر التي اصطلح اللغويون على تسميتها بالمورفيمات، وأما الثانية فالقول بأن معنى العبارة المركبة إنما يستنتج من معاني العبارات البسيطة التي تكونها، ومن بنيتها التركيبية التي تسهم في تكوينها هذه العبارات البسيطة، وأما الثالثة فالتوكيد على أن كل عبارة بسيطة لا تقر على معنى ثابت، بل معناها متحول»[91]، ومن ثمة، فإن السياق النحوي، والذي هو «مجموع الأحوال « aspects » التي تفترضها الكلمات في حال تواصلية»[92]، يقودنا إلى مسألة نحوية بالغة الأهمية، سواء في التحليل اللساني، أو في عملية الترجمة، وهي مسألة أجزاء الخطاب، أو ما يصطلح عليه في اللسان العربي بأنواع الكلم.

ولا ريب في أن المعرفة بالقواعد التي تحكم مواقع الوحدات اللسانية داخل الجمل، تعد من بين أهم المعارف اللسانية التي يجب على المترجم تحصيلها. ولعل اختلاف الألسن في تركيب وحداتها اللسانية، وتنوع طرائق المتكلمين بها في الإفصاح عن تجاربهم، من بين التحديات الكبرى التي ما انفكت تواجه المترجم، إلى درجة أن مستوى التعبير ظل الشغل الشاغل لمنظري المرحلة التجريبية التي سبقت المرحلة العلمية للترجمة، من فرط الاطمئنان بالقدرة على نقل المعاني من لسان إلى آخر، والاعتقاد بأن العقبة الوحيدة تكمن - في نظرهم - في التمكن من التعبير عن هذا المعنى وصياغته صياغة تحسن الوفاء له والصدق في نقله، فتبوأت التركيبيات مكانة هامة ضمن الدرس اللساني وشغلت حيزا معرفيا هاما من تعليم الترجمة وأصولها.

---

91 - B. S. Gillon, « Du sens littéral », Philosophiques, vol. 33, n° 1, 2006, p. 237.

92 - Idem, p. 237.

وتعرّف التركيبيات بأنها وصف للقواعد التي تحكم مواقع الوحدات اللسانية داخل الجمل[93]، أو أنها المادة العلمية التي تعنى بكيفية تعلق الوحدات اللسانية الدالة فيما بينها، وهذا التعريف إنما يستعيد مما في التعريف التقليدي الغربي للتركيبيات، بوصفها دراسة الطرائق التي تنتظم وفقها الكلمات لتكوين الجمل[94]. ولا يطلق مصطلح التركيبيات إلا وهو عادة مرتبط بلسان بعينه، فبالنظر إلى تعدد النظريات التركيبية يتضح أن الصياغة الأولية لكل منها إنما كانت وليدة آراء ارتبطت بلسان بعينه، فتركيبيات بلومفيلد، ويسبرسن، وشومسكي وبيْك أقرب إلى اللسان الإنجليزي من غيره، وتركيبيات مارتني وتنيار أقرب إلى اللسان الفرنسي من غيره، وهلم جرا.

وإنْ بدا من باب التكلف – والحال هذه – الحديث عن تركيبيات شمولية من شأنها استطلاع ما بين الألسن من علاقات وطيدة تفيد الترجمة، وتجاوز حدود المقارنة بين تركيبيات ألسن متقاربة، لتظل خصائص الألسن وقواعدها التركيبية فردية، تميز كل لسان عن غيره من الألسن الأخرى، فإن اللسانيات الحديثة، والسيميائيات على إثرها، أضافتا عسرا إلى عسر، ففضلا عن ميزة التفرد هذه، بينت البحوث النحوية المعاصرة مدى الارتباط الوثيق بين التركيب والدلالة[95]، وقبلها أقرت اللسانيات العامة[96]، والسيميائيات[97]، بخاصية

---

93 - J. Dubois et *al*., Linguistique et sciences du langage, Paris, Larousse, 2007, p. 468.

94 - A. Martinet, Syntaxe générale, Paris, Armand Colin, 1985, p. 13.

95 – ينظر:

– عبد السلام السيد حامد، الشكل والدلالة، دراسة نحوية للفظ والدلالة، القاهرة، دار غريب للطباعة، والنشر والتوزيع، 2002.

– محمد عبد السلام شرف الدين، الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيرية، القاهرة، دار مرجان للطباعة، الطبعة الأولى، 1984، ص. 22 وما بعدها.

وينظر بخصوص ألسن أخرى:

- J. Lyon, Sémantique linguistique, tr. par J. Durand et D. Boulonnais, Paris, Larousse, 1980, pp. 59-100.

96 – ينظر:

- F. de Saussure, Cours de linguistique générale, éd. T. de Mauro, Paris, éd. Payot et Rivages, 1995, pp. 97 et s.

استلزام الدال للمدلول، وتحديد – كليهما – الواحد للآخر، وبينتا استقلال العلامة عن الواقع الذي تحيل إليه أو الفكر الذي تمثله. ولعل الألسن أقربها تعبيرا عن هذا الملمح؛ فهي لم تعد مجرد مدونات من الكلمات، ولا الكلمات مجرد أجسام جاهزة وظيفتها احتضان ما أريد لها من دلالة، أو تمثيل أو إحالة، فينضاف إلى التحدي الأول تحدى آخر، عبر عنه إيكو[98] بقوله إن التحدي الذي يواجه المترجم لا يكمن فقط في مستويي التعبير والمحتوى، بل يمكن أساسا في الحفاظ على العلاقة التي كانت تربطهما في النص المترجم، ففي النصوص التي تنحو منحى جماليِ، تنعقد بين مستويات التعبير ومستويات المحتوى، علاقات خفية.

إنّ دراسة الخصائص التركيبية للألسن، والإلمام بالقواعد التي تحكم مواقع الوحدات اللسانية داخل الجمل، من شأنه أن يضع – إذن – في متناول المترجم جملة من المعارف اللسانية، تيسر له، من جهة، فهم النصوص التي يعمل على ترجمتها، وتجنبه، من جهة أخرى، الوقوع في كثير من الأخطاء والنقول الفاسدة. فمن افتقر إلى معرفة كافية بتركيبيات اللسان المنقول عنه، تعذر عليه تحديد الطبيعة النحوية لوحدات اللسان المنقول إليه، وتداعى ذلك إلى المعنى فأفسده، ومن خفيت عنه – مثلا – أسرار التقديم والتأخير، ودواعي الذكر والحذف، والتوكيد وعدمه، وقواعد تعلق الكلم بعضها ببعض، استعصى عليه تحديد المعنى الإجمالي للنص. إن ممارسة الترجمة تستلزم اكتساب جملة من المعارف اللسانية الكفيلة باستخراج المعنى من صلب التركيب الذي صيغ فيه، وصبه في تركيب آخر مختلف عنه اختلاف الألسن فيما بينها، وتفرد كل واحد منها في التعبير عن الواقع ووصفه. ولعل من نواحي التفرد بين الألسن وتمايزها تنوع طرائقها في تنظيم وحداتها ضمن جمل ونصوص وملفوظات، فإذا خفي عن المترجم بعض سننها في ترتيب وحداتها وتعدد مجاري الكلام بها، تعذر عليه الإحاطة بجميع المعنى. وبقدر ما يتجاوز المعنى مجموع دلالات الألفاظ التي يتكون منها النص، بقدر ما للتركيب من أهمية في التعبير عنه، باختيار الترتيب المناسب ومراعاة

- F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, éd. S. Bouquet et R. Engler, Paris, éd. Gallimard, 2002, pp. 17-22.

97 - A.-J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, éd. P. U. F., 1986, p. 10.

[98] - U. Eco, Dire presque la même chose, p. 65.

مقتضيات النحو فيه، فإذا فقه المترجم ذلك، وعلم من الجرجاني[99]، أن ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم، تكشفت له سبل التعبير عن المعنى المنقول، وانتظمت بيسر وحدات اللسان المنقول إليه أمامه.

إنّ ميزة تفرّد كلّ لسان في تركيب وحداته والتأليف بينها من بين أكثر العقبات مشقة على المترجم، بل إنها ظلت لعقود متوالية منطلق الحكم باستحالة الترجمة وسندا لنظرية سابير وورف حول اختلاف رؤى العالم وتباين الألسن في التعبير عنها، فهي تزعم أن الألسن ترتبط، فرادى أو مجموعات، بتمثل أصيل للعالم، لأن الفضاء، والمادة والزمن ليسوا – في رأي وورف[100] – مجرد نتاج للحدس، بل هي نتاج للثقافة واللغة. ومن قبلهما كان لهومبولد رأي لا يختلف بكثير، فقد استقر لديه أن الألسن إنما هي خاصية للأقوام التي تتكلم بها، فكل لسان تعبير عن عبقرية كل قوم، ولكل قوم طريقته في تنظيم لسانه[101]. بيد إن ميزة تفرد الألسن في تركيب وحداتها، سواء أكان من قبيل التعبير عن المعنى في اللسان ذاته، أو في سبيل ترجمته في لسان آخر، لم تحل دون سعي بعض اللسانيين المحدثين إلى رد القواعد التي تحكم مواقع الكلمات داخل الجمل إلى أنساق منطقية شمولية، ولم تحد من عزيمتهم في النظر في الكليات اللسانية التي ترد اختلاف الألسن الطبيعة إلى أصل اللغة البشرية، واستكشاف ما بين الألسن من ائتلاف، وتقارب واشتراك، ليؤسس للترجمة وعلمها حقلا معرفيا يشفع لإمكاناتها اللامتناهية، ويبحث في ممارسة لم تنقطع يوما مذ سارت الشعوب تتواصل، وعلى الرغم من اختلاف ألسنتها تتلاقى وتتبادل.

لقد بات في مقدورنا اليوم القول دون مراباة بأن حركية البحوث اللسانية حركية ما انفكت تزداد نشاطا وتنوعا في الجامعات الجزائرية، وإن المتتبع لما ينتج وينشر تباعا في مجلاتنا الجامعية، سواء تلك التي تصدرها أقسام العربية

---

99 – عب القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمد محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2000، ص. 55.

100 - Cité par G. Mounin, Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963, p. 200.

101 - A.-M. Paveau et G.-E. Safati, Les grandes théories de la linguistique, Paris, A. Colin, 2003, pp. 16-17.

والألسن الأجنبية، أو تلك التي تشرف عليها المخابر العلمية، يدرك سعة هذا النشاط، ولكنه يوقع في الآن ذاته مسؤولية كبيرة على القائمين عليها، وعلى المحكمين من أولى الاختصاص، وعلى الباحثين المتقدمين في هذا المجال، مسؤولية تأطير هؤلاء الشباب الباحثين، وتوجيه أعمالهم، وبحوثهم الوجهة التي تسهم في تطوير مدارسة اللسان العربي، والتعمق في فهم الاختلافات اللهجية في الجزائر ودراستها، والسعي إلى إخراج هؤلاء الباحثين إلى شتى ميادين الحياة الاجتماعية للعمل الميداني، واستقصاء كل المسائل التي تتعلق باللّغة.

القسم الأوّل – في تلقي فكر دو سوسير

مشروع لويس برييطو السيميولوجي
ولسانيات دو سوسير الجديدة

كنّا انتهينا في واحد من مؤلفاتنا إلى التوكيد على أن مخطوطة دو سوسير « alka » كان لها أثر كبير في سيميولوجيات الأرجنتيني لويس برييطو (1926-1996)، لكن النظر في آثاره العلمية، سواء مقالاته أو مؤلفاته، سرعان ما بيّن لنا أن التأثير هذا أعمق من أن يحصر في ورقات مخطوط معدودات، فقد بات جليا لنا، بعد تتبع هذه الآثار، أن علاقة برييطو بدو سوسير مرّت بمرحلتين، مرحلة اتصال غير مباشر، من طريق البنيويات الأوروبية، ومرحلة اتصال مباشر لا يقتصر على هذه المخطوطة بل يشمل أيضا نصوصا سوسيرية من طريق طلبة هذا الأخير. ونود قبل المضي في سؤال هذا التأثير أن نوجز القول أولا في الظروف التي رافقته، ثم نعرض إلى أهم الملامح التي استمت بها سيميولوجيات برييطو وعلاقتها بالفيلولوجيات السوسيرية وإلى المخطوطات السوسيرية التي استند إليها بغية التأسيس لمشروعه السيميولوجي.

مراحل اتّصال لويس برييطو بفكر دو سوسير اللساني والسيميولوجي

كان اتصاله لويس برييطو غير المباشر بدو سوسير خلال تكوينه الجامعي بجامعة قرطبة، من خلال الترجمة الإسبانية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، والبنيويات الأوروبية لاسيما أعمال مدرستي براغ الروسية وكوبنهاغن الدنماركية. أما الترجمة الإسبانية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة[102] فكانت قد ظهرت في بيونس آيرس الأرجنتينية، عام 1945، من إعداد أمادو ألونزو، وكان ألونزو آنذاك قد نقل إلى الإسبانية مؤلفات أخرى في اللسانيات لكل من شال بالي، وكارل فسلر، وأوتو يسبرسن، وأنوان مايي. لكن المترجم لم يتوانى، في مقدمة الترجمة، عن التعبير عن جملة من النقود التي وجهها

[102] - F. de Saussure, Curso de lingüística general, tr. Amado Alonso, Buenos Aires, Losada, 1945.

إلى مذهب دو سوسير بوصفه موغلا في النزعة الوضعية ويفتقد إلى قاعدة فلسفية، وإلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولا سيما التمييز بين اللّسان والكلام أو بين الآنية والدياكرونية بوصفهما تمييزين مُتكلَّف فيهما[103]. ولسنا نعلم تحديدا كيف كان أثر هذه النقود التي عبر عنها ألونزو في تلقي بريبطو آنذاك لفكر دو سوسير، ولئن كان بريبطو قد قرأ هذه المقدمة فإنه لا شك قد اتخذ مسافة من الكتاب، علما بأن الفيلولوجيات السوسيرية لم تكن آنذاك قد تخطت مرحلة التشكيك التي عبّر عنها إيريك بويسنز، في نهاية النصف الأوّل من القرن الماضي. وأما اتصاله بدو سوسير من طريق البنيويات الأوروبية فكان بادئ الأمر من طريق فونولوجيات مدرسة براغ، لاسيما فونولوجيات نيكولاي تروبتسكوي، فقد بات بريبطو منذ بداية اطلاعه على «المبادئ في الفونولوجيات» لتروبتسكوي قارئا متفحصا له، وما انفك يلازمه في كثير من مقالاته ومؤلفاته. وتحتل كتابات أندري مارتني في مسار انخراط بريبطو في التيار البنوي موقعا معلوما، فقد كان فضل مارتني عليه كبيرا إذ مهد له الطريق للانتقال من قرطبة إلى باريس، وفتح له أبواب مجلة « Word » الأمريكية وضمّه إلى جمعية باريس اللسانية.

وأمّا اتّصاله المباشر بدو سوسير فقد كان في حدود العقد الأوّل من النصف الثاني من القرن الماضي، فقد عرفت هذه الفترة، وتحديدا عام 1957، حدثين بارزين، تزامنا مع نشر كتاب الأصول المخطوطة كتاب الحاضرات في اللسانيات العامة لروبار غودال، والعدد الخامس عشر من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير، من العام نفسه، وهو العدد الذي نشر فيه غودال مقدمة محاضرات السنة الجامعية الثانية (1908-1909) التي ألقاها دو سوسير في اللسانيات العامة، استنادا إلى كراسات الطلبة، وقد أعد عنهما بريبطو في العام الموالي تقريرين للعددين الثاني والثالث لمجلة « Word »، من المجلد الرابع عشر. وعن هذا الاتصال المباشر، كتب بريبتو قائلا: «إن أهمية نشر المخطوطات التي استند إليها شارل بالي وألبير سشهاي لا تكمن فقط في تحقيق معرفةٍ مباشرة بالفكر السوسيري، بل تكمن أيضا في أهميتها من أجل الإعداد لطبعة نقدية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وهو الأمر الذي

---

103 - J. M. Arago, « F. de Saussure, Curso de lingüística general, traduction et commentaire du professeur Amado Alonso, édition Losada (1945), Buenos Aires », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 5, 1945, p. 48.

عمل على تفسيره روبار غوادل في كتابه الذي نعرّف به في الصفحات الآتية، (أي الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات). وإننا نرجو أن يتكلّل عمل غودال، بعد نشر هذه المخطوطات، بطبعة نقدية لكتاب دو سوسير، فليس من دونه من هو أحسن وضعا للاضطلاع بهذه المهمة»[104].

وإنّنا إذ نثني على صنيع الفيلولوجيات السوسيرية في تكوين فكر برييطو السيميولوجي، وكنا انتهينا في واحد من كتبنا إلى التوكيد على تأثيرها الواضح فيه، فذلك لأن العمل الذي اضطلع به روبار غودال، ليس فقط في كتابه الأصول المخطوطة، أو تحقيقه لمقدمة محاضرات دو سوسير في اللّسانيات العامة للسنة الجامعية (1908-1909)، بالاستناد إلى كراسات كل من ألبير رايدلنغر، وفرانسوا بوشاردي، ولويس غوتيي، بل أيضا سنوات ثلاث من قبل، حينما نشر ضمن العدد الثاني عشر من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير (1954)، مجموعة من نصوص دو سوسير من خط يده، كان الحجر الأساس لنشأة الفيلولوجيات السوسيرية من جهة، وبداية تشكّل فكر برييطو السيميولوجي من جهة أخرى، وهو الفكر الذي قال عنه دنيال غامبرارا، بمناسبة نشر فعاليات الندوة التي خصصتها الجمعية الإيطالية للدراسات السيميولوجية عام 2006، لأعماله: «ستجدون في هذا القسم من المجلة نصوص مداخلات هذه التظاهرة، ومقالات أخرى تعالج مسائل نظرية كان برييطو نظر فيها بما توفر له من وسائل تنم عن قدرة تفكيره على التعميم. ولقد بات معلوما أن برييطو سعى إلى تطوير السيميولوجيات العامة انطلاقا من إشارات موجزة من فرديناند دو سوسير، بالاجتهاد في تطوير لسانيات عامة بوصفها مادة علمية سيميولوجية فمكّنت تفسيراته من إعادة تسريع المشروع السوسيري»[105].

لكن بداية العناية بفكر برييطو اللساني والسيميولوجي تكاد تكون السمة البارزة لهذا القرن الجديد، بالنظر إلى العدد المتزايد للملتقيات والندوات العلمية والمجلات التي خصصت له، مقارنة بالعقود الأخيرة من القرن الماضي، فقد كان فكر برييطو، بشهادة عدد من الباحثين المعاصرين، مغمورا،

---

[104] - L. J. Prieto, « Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, Genève, Droz, 1957 », Word, vol. 14, n° p. 385.

[105] - D. Gambarara, « Présentation », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007, p. 33.

باستثناء عدد قليل من المقالات التي كتبت في تلك المرحلة، كمقال كريستيان ماتز عام 1967، «يقترح لويس برييتو، في مؤلفيه، المرسلات والإشارات، والسيميولوجيات، إطارا يتسم بالدقة والتجانس، يستلهم، في الآن ذاته، عن إيريك بويسنز تعريفه للسيم، وعن الفونولوجيين تصورهم للفونيم بوصفه صنفا، وعن أندري مارتني نظريته للتمفصل المزدوج، وعن الغوسيماتكيين مبدأ الاستبدال الثنائي (مستوى المحتوى ومستوى التعبير)، وعن المنطق الحديث مفاهيم بسيطة أخرى (كالتماثل، والاستبعاد، والإدراج، والتقاطع، والمجموع المنطقي، والنتاج المنطقي)، وهي مفاهيم لم تكن قد طبقت من ذي قبل في حقل السيميولوجيات، بطريقة نسقية»[106].

وقبل أن ينقضي القرن الماضي، أفردت المجلة الدولية المتخصصة في الدراسات السيميائية، « Semiotica »، العددين الثاني والثالث من مجلدها 122 من عام 1998 لبرييتو، أشرف عليه صديقه بيار بليغرينو، فضم 17 مقالا في المجالات التي أبدع فيها برييتو كالسيميائيات والدلاليات، والفونولوجيات، والمورفولوجيات، أو تلك التي استقدمت عنه عددا من تصوراته كالتداوليات، وعلم الجمال، والهندسة المعمارية، والإثنولوجيات، وعلوم الاجتماع. وإننا على يقين من أننا لن نفي لويس برييطو حقه بوصف أعماله وبحوثه وصفا يليق بمقامه الذي بات يحوز ضمن جيله من اللسانيين والسيميائيين ما لم نتتبع هذه الأعمال بالقراءة المتأنية التي تستكشف أولا الأصول التي استند إليها برييطو، ثم تستخرج ثانيا أفكاره الأصيلة التي أسهم بها في تطوير الفكر اللساني والسيميولوجي. ولأننا بحاجة إلى الوقت الكافي لو رمنا سلوك هذا السبيل، فإننا نحبذ سلوك سبيلا آخر، هو سبيل الشهادات التي عبّر بها الباحثون المعاصرون عنه، والذين استلهموا منه أدوات إجرائية طبقوها في أعمالهم، كحال السيميائي أمبرتو إيكو، عندما يتحدث عن مفهوم الملاءمة[107]. لكن ذلك لن يمنعنا بطبيعة الحال من العودة دوما إلى كتابات لويس برييطو من أجل تدقيق هذه الشهادات وتمحيص هذه الآراء.

---

[106] - C. Metz, « Remarque sur le mot et sur le chiffre. A propos des conceptions sémiologiques de Luis J. Prieto », La linguistique, vol. 3, fasc. 2, 1967, p. 41-56.

[107] - E. Eco, « La pertinence de Luis Prieto », tr. C. Forel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007, pp. 35-40.

إنّ إقرار أمبرتو إيكو بتوظيف عدد من المفاهيم التي وضعها لويس برييطو، عندما راح يبحث في طرائق تحليل العلامات البصرية، لاسيما في كتابه الأثر المفتوح، الذي صدرت عنه الترجمة الفرنسية عام 1972[108]، دلالة على الأهمية التي باتت تكتسيها أفكار لويس برييطو في حقل السيميائيات، ودلالة عن مدى إمكانية الانتقال بها إلى تحليل أنساق سيميائية غير تلك التي اشتغل عليها برييطو، كنسق الموسيقى مثلا. ويعد برييطو، في نظر إيكو، مؤسسا لحقل سيميائي جديد، يعنى بدراسة الأنساق السيميائية الخاصة وتحليلها، وهو الحقل السيميائي الذي عرّفه جون ماري كليكنبارغ بتمييزه عن السيميائيات العامة والسيميائيات التطبيقية، والقول بأن الغاية منه وضع وصوف تقنية للقواعد الخاصة التي تسيّر اشتغال الأنساق السيميائية المستقلة، كنسق الحركات الجسدية، أو نسق الإشارات الصوتية، أو النسق السينمائي أو غيرها[109].

لكن إسهام برييطو في دائرة السيميائيات لا يقتصر على ما ذكره عنه إيكو عند حديثه عن السيميائيات الخاصة، ولا على كتابه المرسلات والإشارات الصادر عام 1966[110] الذي مهّد لهذا الفرع السيميائي الجديد، فقد بات برييطو، بعد مطلع القرن العشرين، رائدا يحتفى به في مجالات سيميائية ولسانية أخرى ومجددا متفردا فيها، بعد ما كان اسمه، بشهادة سمير بدير، نادرا ما يذكر في دائرة السيميولوجيات[111]، فها هي تصوراته لم تعد يستفاد منها فقط، في ميادين علمية بعينها، كتعليميات الألسن[112]، أو التداوليات[113]، على سبيل المثال لا الحصر، بل باتت تثير اهتمام العلوم الإنسانية كلّها، فقد أحاط الباحث ماري كلود كابت أرتو – مثلا – بمدى إجرائية مفهوم العلاقة الدلالية

---

[108] - E. Eco, La structure absente. Introduction à la recherche sémiotique, tr. U. Esposito-Torrigiani, Paris, Mercure de France, 1972, p. 206.

[109] - J.-M. Klinkenberg, Précis de sémiotique, Paris, Seuil, 1996, pp. 30-31.

[110] - L. J. Prieto, Messages et signaux, Paris, P. U. F., 1966.

[111] - S. Badir, « La sémiologie selon L. J. Prieto », Linx, n° 44, 2001, p. 55.

[112] - F. Champion, « La non-conformité de Luis J. Prieto est-elle critique ? ou les apports de la théorie de Prieto à la recherche en acquisition des langues », Linx, n° 49, 2003, pp. 63-75.

[113] - B. Blanke et R. Posner, « La pragmatique implicite dans l'œuvre de Luis J. Prieto », Semiotica, vol. 122, n° 3/4, 1998, pp. 257-278.

الّذي أسّس له، ولكنه أشار أيضا إلى موقع برييطو من إسهامات السيميولوجيات في العلوم الإنسانية عموما، فكتب يقول: «لقد احتيج إلى أكثر من قرن من الزمن وأعمال كل من الفرنسي بريال، والجنيفي دو سوسير، وفونولوجيو مدرسة براغ، والأرجنتيني برييطو، كي تتحقق القطيعة الإبستيمولوجية التي تتمثل، قبل كل شيء، في رأي هذا الأخير، في أن نعي أن تأسيس علمٍ للإنسان مرهون بضرورة الاعتراف بالطابع التاريخي لموضوعه. ولئن كانت المغامرة الفكرية الكبرى التي خاضها القرن العشرين، بشهادة ليفي ستراوس، تمخضت عن تأسيس علوم الإنسان، فإن السيميولوجيات إذن، وبرييطو واحد من أبرز صناعها، كان لها إسهام من المقام الأوّل»[114].

ولئن أردنا الآن أن نوجز القول في تفكيره السيميولوجي ومسعاه الذي بات المحرك له، لقلنا أن برييطو أخذ على عاتقه تطوير مشروع دو سوسير الساعي إلى تقييم العلاقات القائمة بين علوم الطبيعة وعلوم الإنسان، وإننا – ربما – لن نجد تعبيرا يؤكد هذا الأمر أوجز من العبارات التي افتتح بها كلود ماري كابت أرتو تأبينه لبرييطو، فقد استهلها بالتذكير بشهادة ليفي ستراوس إذ يقول: «لقد كان كلود ليفي ستراوس نبّه بمناسبة ذكرى فرديناند دو سوسير، بمجلة لوزان في شهر فبراير من عام 1963، أن دو سوسير وجد الحل لمسألة رئيسة كثيرا ما شغلت الباحثين في القرن العشرين، هي مسألة العلاقات بين العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية من جهة، والعلوم الإنسانية من جهة أخرى. ولقد كانت العلوم الإنسانية آنذاك لا تزال تقتصر على تقديم عناصر من الحكمة وظلت أخلاقية. لكن دو سوسير تمكن من وضع الظروف المنطقية لأجل ذلك»، ثم أردف قائلا: «إن تفكير برييطو يندرج ضمن هذا المنظور الإبستيمولوجي نفسه، أي السعي إلى التعريف بالمهمة المنوطة بالعلوم الإنسانية باعتبار الطابع التاريخي (غير الطبيعي) لموضوعها»[115].

[114] - M.C. Capt-Artaud, « Qu'est-ce que la relation de signification. L'apport de Luis Prieto à la science sémiologique », Semiotica, vol. 122, n° 3/4, 1998, pp. 229-230.

[115] - M.C. Capt-Artaud, « In Memoriam. Linguistique, épistémologie et sciences humaines : l'apport de Luis Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 49, 1995-1996, pp. 3-4.

آثار بربيطو العلمية وأصول سيميولوجياته الفكرية

بدأ لويس بربيطو مشواره العلمي بدراسات في الفيلولوجيات الرومية، بجامعة قرطبة الأرجنتينية التي أنهى بها دراساته عام 1952، وكان في هذه الفترة التكوينية قد حصل معارف في اليونانية واللاتينية، والألسن الجرمانية، ومعارف في اللسانيات التاريخية المقارنة، واللسانيات البنوية على إثر اطلاعه على كتاب تروبستكوي، مبادئ في الفونولوجيات، ومعارف في اللسانيات العامة على إثر اطلاعه على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لفرديناند دو سوسير، ولكن في طبعته الإسبانية. وبعد حصوله على شهادة الليسانس عام 1951، انخرط في تحضير رسالة دكتوراه في فونولوجيات اللسان الإسباني، لكن الظّروف السياسية السائدة آنذاك حالت دون استقرار بربيطو، وحالت أيضا دون حفاظه على مناصب العمل التي كان يحصل عليها، وآخرها أستاذ اللاتينية بالمدرسة العليا بقرطبة. وكان بربيطو في هذه الفترة قد كثّف اتصاله بأندري مارتني، وهو الذي مكنه من نشر مقالاته في مجلة « Word » الأمريكية، وقدمه إلى إيميل بنفنست، فاقترحاه إلى جمعية باريس اللسانية كعضو بها.

وتعد هذه المرحلة بداية إنتاجه اللساني، بعد مقال له بعد نيله شهادة اللّيسانس بمجلة كلية الفلسفة والعلوم الإنسانية[116]، ففي العام 1954، نشرت له مجلة « Word » الأمريكية أوّل مقال له في اللسانيات البنوية، ناقش فيه مفهوم الفونيم « phonème » عند كل من تروبتسكوي ومشروع حلقة براغ اللسانية، ففي حين يكتفي المشروع بتعريف الفونيم بوصفه «وحدة فونولوجية غير قابلة للتجزئة إلى وحدات فونولوجية بسيطة أصغر»[117]، ولا يمكّن إذن من تمييز الفونيمات البسيطة عن المجموعة من الفونيمات، يتفادى تروبتسكوي هذا النقص بالقول «إن الفونيمات هي الوحدات

[116] - L. J. Prieto, « Remarques sur la nature des oppositions distinctives basées sur l'accentuation monotonique libre, Revista de la Facultad de Filosoffa y Hurnanidades 4/1-3, Cordoba, 1952, pp. 407-412.

[117] - L. J. Prieto, « Traits oppositionnels et traits contrastifs », Word, vol. 10, n° 1, 1954, p. 43.

الفونولوجية التي لا تقبل القسمة، من وجهة نظر اللسان المدروس، إلى وحدات فونولوجية متوالية أصغر»[118].

ليس من شأننا أن نقف عند كل مضامين هذا المقال، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى عدد من المسائل التي نراها جديرة بالذكر، ومنها أولا احتفاء بريبطو في مقاله هذا بتصورات أستاذه مارتني، إذ يكاد اسمه، باستثناء اسم فاشيك قليلا، يكون الاسم الوحيد – من بين أسماء اللسانيين الذين ناقشوا مفهوم الفونيم – المذكور في هذا المقال[119]. لقد كان أندري مارتني صلة الوصل بين بريبطو واللسانيات البنوية ممثلة في حلقة براغ اللسانية خصوصا، وكان منذ بداية مشواره العلمي متابعا لأعمال أفرادها، وكانت له منذ ثلاثينيات القرن الماضي مراسلات مع نيكولاي تروبتسكوي، وإن المراسلات الثمان التي نشرها كلود حجاج[120] عام 2007 تُنبأ عن طبيعة العلاقة العلمية الوثيقة والعلاقة الشخصية الوطيدة اللتين جمعتا بينهما. وكان مارتني منذ السنوات الثلاثين من القرن الماضي، بدأ يعنى بالفونولوجيات، إذ صدرت له عام 1937 أول دراسة في الألسن الجرمانية، واللسان الدنماركي، ثم أخرى عام 1945 في اللسان الفرنسي المعاصر، ثم أخرى عام 1955 في التغيرات الصوتية، ثم أخرى عام 1956 في الوصف الفونولوجي[121]، وهي المؤلفات التي لا شك كان له أثر في تكوين بريبطو العلمي، فضلا عن مجموعة من المقالات التي عنيت

---

[118] - N. S. Troubetzkoy, Principes de phonologie, tr. J. Cantineau, Paris, Klincksieck, 1949, p. 37.

[119] - J. Vachek, « Phonemes and phonolgical units », Travaux du Cercle linguistique de Prague, vol. 6, pp. 235-240.

- Martinet, « Où en est la phonologie », Lingua, vol. 1, 1949, pp. 34-58.

[120] - C. Hagège, « Extraits de la correspondance de N. S. Troubetzkoy (1969/2), in H. Walter et C. Feuillard (dir), Pour une linguistique des langues, Paris, P. U. F., 2007, pp. 61-76.

[121] - A. Martinet, La gémination consonantique d'origine expressive dans les langues germaniques, Copenhague, Munksgaard, 1937.

- La phonologie du mot en danois, Paris, Klincksieck, 1937.
- La prononciation du français contemporain, Paris, Droz, 1945.
- Économie des changements phonétiques, Berne, Francke, 1955.
- La Description phonologique avec application au parler franco-provençal d'Hauteville (Savoie), Genève, Droz, 1956.

هي الأخرى بالفونولوجيات كمقال الفونولوجيات الصادر عام 1938، ومقاله حول مفهوم الفونيم الصادر عام 1939، ومقال الفونيم والوعي اللساني الصادر عام 1943.

أمّا المسألة الثانية التي نود الإشارة إليها بخصوص هذا المقال فهي غياب اسم فرديناند دو سوسير وكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة على الرغم من كون الكتاب أصلا معلوما من أصول فكر مدرسة براغ اللسانية، لاسيما مفهومي النسق والوحدات التقابلية. ولئن كان اسم فرديناند دو سوسير غائبا هو الآخر من المقال كسائر اللغويين الذي ناقشوا مفهوم الفونيم فذلك لأن البعد التاريخي لمسألة الفونيم لم تكن تعني بريبطو، في نظرنا، بقدر ما كان يعنيه إسهامه العلمي في هذه المسألة فقد خلص بريبطو، في هذا المقال، إلى تصور خاص حول موضوع الفونولوجيات، وحول النسق الفونولوجي، إذ كتب يقول: «إن النسق الفونولوجي للسان ما كلٌّ لا تتميز وحداته بالاستقلال الذاتي إلا باستثناء وحدات النبر، [...] وإن هذا النسق هو الذي يشكل في مجمله موضوع الفونولوجيات، فلا يمكن والحال هذه دراسة فونولوجيات الجملة بمعزل عن فونولوجيات الكلمة، ولئن كان من العملي الفصل بين دراسة الفونيمات ودراسة الفونيمات فوق المقطعية، والفصل في دراسة هذه الأخيرة بين الفونيمات فوق المقطعية التي تسهم في تمييز الكلمات وتلك التي تسهم في تمييز الجمل، فإن العلاقة التي تجمع بينهما لا يمكن السهو عنها، وهي العلاقة التي تصل بينهما بوصفهما مستويين مختلفين من نسق واحد»[122].

ولئن كان بريبطو بدأ مشواره العلمي بمقال في الفونولوجيات فإنه اتجه بعد ذلك إلى مناقشة أهم مسألة في السيميولوجيات، ونعي بها مسألة العلامة، في المقال الذي صدر له عام 1954، بمنشورات جمعية باريس اللسانية التي أصبح عضوا بها، وهو المقال الذي يبرز فيه لأوّل مرة اسم فرديناند دو سوسير، وكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في طبعته الرابعة من عام 1949. ويبرز في المقال أيضا انفتاحه على التيارات السيميائية الأخرى، من خلال تبنيه لتمييز لويس يمسليف بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى، وأشياء من السيميولوجيات العامة، كما في قوله مثلا: «إن العلامة

---

[122] - L. J. Prieto, « Traits oppositionnels et traits contrastifs », p. 58.

كيان ذو وجهين، الوجه الدال والوجه المدلول، وبما أن اللسان نسق من العلامات، فإن العلامة موجودة بين مادتين، إحداهما توفر له محتواها، والأخرى توفر له تعبيره. وإن مادة المحتوى، في اللسان، هي المادة النفسية، وأما مادة التعبير فهي – كما جرى العرف على اعتبار ذلك – المادة الصوتية. ولما كانت المادتين هاتين مستقلتين، من وجهة نظر طبيعتهما، عن علاقة الدلالة التي تربط بينهما، فإن الارتباط بينهما مرهون بانتظامهما سلفا، ولأجل ذلك يمكننا التمييز بين: 1) انتظام مادة المحتوى، 2) انتظام مادة التعبير، و3) علاقة الدلالة القائمة بينهما. إن التمييز الصريح بين هذه المظاهر الثلاث للسان – وهي موجودة في كل الأنساق البسيطة للعلامات – مطلب منهجي رئيس»[123].

إنّنا إذ نسعى إلى تتبع مسار بريطو العلمي من خلال ما كتب، لا نغادر فكرة البحث في بداية صلاته بالفيلولوجيات السوسيرية، ولئن كان البحث سابقا لأوانه – إذ إن أوّل كتاب في الفيلولوجيات السوسيرية، ونعني به كتاب الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لروبار غودال لن يصدر قبل ثلاث سنوات، أي عام 1957 – إلا أن ثمة ملامح نصية تدعونا إلى الاعتقاد بأن بريطو كان على معرفة بما كان يحصل آنذاك من نقاش حول كتابا المحاضرات في اللسانيات العامة ومدى وفاء شارل بالي وألبير سشهاي في التعبير عن فكر دو سوسير تعبيرا سديدا. أما الملمح الأوّل فهو استناد بريطو في مقاله هذا من عام 1954 إلى مقالٍ لرودلف أنغلر، حول العلامة الصفر[124]، وأما الملمح الثاني فهو إحالة مقال أنغلر هذا إلى مقال هنري فراي، «سوسير ضد سوسير؟»[125]، وليس لنا أن نذّكر من جديد بالدور الذي اضطلع به هنري فراي في خضم المساجلات التي دارت بين إيريك بويسنز – هذا الذي سيكون له دور في مشوار بريطو السيميولوجي – وبين طلبة دو سوسير من الجيل الأوّل، فقد جئنا على أشياء من هذه المساجلات في أحد بحوثنا. وأما

[123] - L. J. Prieto, « Signe articulé et signe proportionnel », Bulletin de La Société de linguistique de Paris, vol. 50, fasc. 1, 1949, pp. 134-143.

[124] - R. Engler, « La question des signes zéro », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 11, 1953, pp. 31-41.

[125] - H. Frei, « Saussure contre Saussure ? », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 9, 1950, pp. 7-28.

الملمح الثالث فهو صدور المقالين في مجلة كراسات فرديناند دو سوسير التي أصبحت لسان حال السوسيرية الجديدة.

ولـم يغادر اهتمام برييطو السيميولوجيات بعد هذا المقال، فقد تناول في مقاله الثالث، الصادر عام 1958 بالإسبانية، وأعاد نشره بعد ترجمته إلى الفرنسية ضمن الكتاب الذي يضم مجموع ما كتب من مقالات عام 1975[126]، مسألة إمكانية التعرّف، على مستوى المحتوى، على وحدات دنيا كما تم التعرّف من قبل، على مستوى التعبير، على وحداته الدنيا التي اصطلح على تسميتها بالخصائص المميزة (حلقة براغ)، أو الصور (يمسليف)، فكتب يقول: «إن المسألة التي تطرح تتعلق بالبحث عما إذا كان ثمة، في اللسان، صورا للمحتوى، أي بمعرفة ما إذا كان مستوى محتوى اللسان، مثلما هو الشأن بالنسبة لمستوى التعبير، يبدي تمفصلا مستقلا عن تمفصل العلامة. يجب حتى يتحقق الأمر أن يكون مدلول العلامات - التي لا تقبل التجزئة والتي تنتج عن تحليل للعلامات القابلة للتجزئة - قابلا للتحليل إلى عناصر من شأنها أن تكون قابلة للاستبدال، أي أن أنها عناصر من شأنها أن تؤلف علامات أخرى إذا ما اجتمعت بطرائق مختلفة. ولما كان هذا التحليل قابلا للتجسيد لا محالة، فإن وجود صور للمحتوى في اللسان بات أمرا لا نزاع حوله»[127].

إنّ الرّهان في هذه المسألة يعتمد إذن على إمكانية استقدام عملية الاستبدال من مستوى التعبير ومحاولة تطبيقها على مستوى المحتوى، وهو الرهان الذي خاضته سيميائيات ألخيرداس جوليان غريماس، عندما راح يؤسس أوّل الأمر إلى دلاليات بنوية [128]، وما انفكت أن تحولت إلى سيميائيات مدرسة باريس. وفضلا عن اهتماماته البنوية والسيميولوجية، فقد اهتم بريتو أيضا بمسائل أخرى تتعلق بالكتابة، والأسلوب، والفن، وكان له إسهام في اللسانيات الوظيفية، وسيميولوجيات التواصل، وسيميولوجيات الدلالة، وخص كل مسألة من هذه المسائل بمقال، وكلها مقالات ضمنها في الكتاب الجامع الذي أسلفنا ذكره.

---

[126] - L. J. Prieto, Figures de l’expression et figures du contenu, in Etudes de linguistique et sémiologie générales, Genève, Droz, 1975, pp. 41-48.

[127] - Idem, p. 42.

[128] - A. J. Greimas, Sémantique structurale, Paris, P. U. F., 1970.

وفي العام 1956 تحصل برييطو على منحة دراسية بفرنسا، فاستقر بباريس، وأصبح في السنة الموالية ملحقا للمركز الوطني للبحث العلمي « CNRS »[129]. وتعد هذه المرحلة، أي ما بين عام 1956 وعام 1960 وعودته إلى قرطبة، مرحلة بدأ فيها برييطو توثيق صلته بالفيلولوجيات السوسيرية، فقد أعد لمجلة « Word » الأمريكية تقريرين، ضمن عددها الرابع عشر، أحدهما عن كتاب روبار غودال، الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة[130]، والآخر عن العدد الخامس عشر من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير الذي خصص كلية لمقدمة محاضرات دو سوسير في اللسانيات العامة للسنة الجامعية الثانية (1908-1909) التي حققها روبار غودال استنادا إلى عدد من راسات الطلبة[131].

ولم تقتصر هذه الفترة على قراءة ما استجد من فكر دو سوسير، بل عكف برييطو على قراءة جملة من المؤلفات في اللسانيات بغية إعداد تقارير عنها للمجلة نفسها، فكان تقريره الأوّل من هذه الفترة عن كتاب الإنجليزي جون روبار فيرث، «نصوص في اللسانيات»[132]، وآخر عن العدد الخاص من مجلة المجمع الفيلولوجي الإنجليزي يضم مجموعة من المقالات يتصدرها مقال لفيرث[133]، لكن الذي يعنينا من مضمون هذا التقرير هو موقف برييطو من نظرية فيرث عموما، وهو موقف نقدي ينتهي منه إلى الإقرار بعدم تمكن نظرية فيرث السياقية، ذات النزعة الواحدية « monisme »، الرافضة للثنائيات اللسانية المعلومة (الدال/المدلول، التعبير/المحتوى، ...)، من تحديد طبيعة العناصر الصورية. ولقد كان فيرث عبّر عن اعتناقه لهذا المذهب في مقاله،

---

129 - G. Redard, « Hommage à L. J. Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 45, 1991, pp 4-5.

130 - L. Prieto, « R. Godel, Les sources manuscrites du 'Cours de linguistique générale' de Ferdinand de Saussure », Word, n° 14, 1958, pp. 380-384.

131 - L. Prieto, « Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15 », Word, n° 14, 1958, pp. 384-385.

132 - L. Prieto, « J. R. Firth, Papers in Linguistics, 1934-1951, Londn, Oxford University Press, 1957, pp. 84-87.

133 - L. Prieto, Studies in linguistic analysis, Special Volume of the Philological Society, Oxford, Basic Blackwell, 1957 », Word, n° 14, 1958, pp. 87-89.

«اللسانيات والترجمة»[134]، بيد إن فيرث كان من بين اللغويين الأوائل الذي ألحوا على الدور الذي تضطلع به عامل الحال « situation » في تلقي المعنى وإدراكه، ولسنا نغفل عن إمكانية تأثر برييطو به، فقد بات الحال في كتاباته اللاحقة عنصرا رئيسا في نظريته الدلالية.

ولمّا كان العام 1960 عاد برييطو إلى قرطبة بعد حصوله على منصب أستاذ في اللسانيات العامة، وشغل آنذاك منصب مدير للأبحاث بالمجلس الوطني للبحث العلمي والتقني، وهو المنصب الذي سيعزل منه عام 1966 لأسباب سياسية أيضا، تضطره إلى معاودة مزاولة التدريس الخاص حتى عام 1968، ليتمكن في هذه السنة من الحصول على منصب عمل، بالجزائر العاصمة، في اللسانيات العامة، لكنه يضطر لأسباب إدارية من العودة من جديد إلى باريس ليحصل على منصب كأستاذ محاضر في السيميولوجيات بقسم علم الاجتماع بالجامعة الجديدة باريس 13. ولقد كان مقامه بقرطبة في الفترة (1960 – 1967) حافلا بالبحوث والمقالات، إذ أصدر فيها أوّل مؤلفاته، « Principes de noologie »، عام 1966، وهو كتاب وضعه برييطو لاستثمار التحليل الفونولوجي في دراسة المعنى، ومقالات أخر، في الاستبدال[135]، ومفهوم النوام[136]، والوظيفة والاقتصاد[137]، واللسان والأفراد المتكلمين[138]، وتقريرا عن كتاب ستيفن أولمان، مبادئ الدلاليات[139].

---

[134] - J.R. Firth, Linguistics and translation, in Selected Papers, London, Longman, 1956, p. 90.

[135] - L. Prieto, « A propos de la commutation », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960, pp. 53-63.

[136] - L. Prieto, « La notion de noème », Proceedings of the ninth international Congress of linguists, [Cambridge, Mass. 1962], La Haye, Mouton & Co., 1964, pp. 771-778.

[137] - L. Prieto, « Fonction et économie », La Linguistique, n° 1, 1966, pp. 1-13 et n° 2, 1966, pp. 41-66.

[138] - L. Prieto, La langue et les parlants, in L'Aventure humaine, encyclopédie des sciences de l'homme: vol. L'homme et les autres, Paris, Ed. de la Grange-Batelière, 1967, pp. 74-79.

[139] - L. Prieto, « St. Ullmann, The Principles of Semantics », Romance Philology, n° 14, 1960, pp. 162-166.

أمّا مقاله عن الاستبدال « commutation »، فيعنينا منه أمرنا، أما الأمر الأوّل فموقفه من هذا المفهوم والنقود التي عبّر عنها اتجاهه. وأما الأمر الثاني فمتعلق بالفيلولوجيات السوسيرية، فقد احتوى العدد الذي صدر فيه مقال برييطو هذا على وثيقتين بالغتي الأهمية بالنسبة للفيلولوجيات السوسيرية، وهما أولا الجرد الذي أعده روبار غوادل عن مخطوطات دو سوسير التي أودعها ابناه رايموند وجاك بالمكتبة العامة والجامعية لمدينة جنيف[140]، وثانيا المخطوط الذي وثّق فيه دو سوسير ذكرياته عن أيام شبابه ودراساته الجامعية بليزغ[141]. لقد كانت هذه الفترة التي بدأ فيها برييطو يتعرّف على مآثر دو سوسير الأصيلة، ويتواتر أمامه نشر مخطوطاته، مرحلة مفصلية في تكوين فكره السيميولوجي، فبعد تعرفه على كتاب روبار غودال، «الأصول المخطوطة لكتاب الحاضرات في اللسانيات العامة»، وهو كما معلوم كتاب يحتوي أيضا على جملة من نصوص دو سوسير، وكان برييطو تعرّف أيضا الطبعة النقدية لكتاب المحاضرات، وعلى مضامين دروس السنة الجامعة الثانية (1908–1909) التي ألقاها دو سوسير في اللسانيات العامة، وبات أيضا، وهو المهم في نظرنا، على علم بأن ثمة نصوصا كثيرا لدو سوسير، لا سبيل إلى الاطلاع عليها إلا بالارتحال إلى جنيف. وشاءت الأقدار أن يتحقق لبرييطو هذا السبيل، فقد جاء الخبر إلى أندري مارتني، من روبار غودال، عن فراغ كرسي اللسانيات العامة الذي كان يشغله هنري فراي بجنيف، فعرض عليه، فقبل، فاستهل التدريس في شهر أكتوبر من العام 1969.

ولقد صنّف الباحثون، من بعد برييطو، بحوثه الدلالية في دائرة الدلاليات الوظيفية، وعادة ما يذكر اسمه إلى جانب أسماء أسهمت في هذا الحقل من مثل أوجين كوزيريو، وجيل غستون غرانجر، وأندري مارتني، وجورج مونان، ثم إن العنوان الفرعي الذي أثبته برييطو لمؤلفه هذا، «أسس النظرية الوظيفية للمدلول»، ينسجم وهذا التوجه الدلالي الذي ينضوي ضمن ما بات يعرف باللسانيات الوظيفية منذ أن وضع أندري مارتني أركانه الأولى، لكنه يخالفه في مسائل مهمة هي التي جسدت أصالة فكر برييطو اللساني والسيميولوجي

---

[140] - R. Godel, « Inventaire mes manuscrits de F. de Saussure remis à la Bibliothèque Publique et Universitaire de Genève », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960, pp. 5-11.

[141] - R. Godel, « Souvenirs de F. de Saussure concernant sa jeunesse et ses études », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960, pp. 5-11.

وموقفه الإبستيمولوجي. ولقد اجتهد برييطو في مؤلفه المذكور بالتعريف بالمنهج الوظيفي التي يرتضيه بقوله: «إن المنهج الوظيفي، أو بالأحرى إن المناهج التي تتخذ هذه التسمية تدرس أو تسعى إلى دراسة، الوقائع الملموسة: المعنى والتصويت « phonie »، بتطبيق المبدأ السوسيري الذي ألمحنا إليها. [لا وجود للكيان اللساني إلا باجتماع دال ومدلول]. إن المنهج الوظيفي يدرس إذن، بحسب تفسيري لهذا المبدأ، التصويت من وجهة نظر إسهامه في تحقيق المعنى، والمعنى من وجهة نظر إسهام التصويت في تحقيقه، فيفضي إلى أصناف للمعنى والتصويت، وتمكنه المقارنة بين هذا الأصناف من تحليلها إلى كيانات صغرى»[142].

لكن تطبيق المنهج البنوي الوظيفي الذي أثبت جدارته في دراسة الجانب المادي من الألسن، أي الأصوات أو بالأحرى الفونيمات كما فعلت مدرسة براغ ولسانيات أندري مارتني، لا يعني بالضرورة أن النتائج التي خلص إليها خليقة ستكون موازية لتلك التي يمكن الخلوص إليها في مدارسة المعنى بهذا المنهج، إذ لا وجود لتشاكل بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى. لكن غياب التشاكل هذا لا ينفي، في نظر برييطو، إمكانية اللجوء إلى عدد من المفاهيم والآليات الإجرائية التي لجأت إليها الفونولوجيات، لاسيما الإجراء الاستبدالي ومفهوم التقابل الذي ينجم عنه[143].

وعلى الرّغم من التوجّه البنوي الواضح الذي ينتهجه برييطو في السعي إلى دراسة المعنى من وجهة نظر إسهام التعبير في تحقيقه، إلا أن المعنى لا تنفرد بتحقيقه وحدات اللسان المادية، بل تسهم في تحقيقه أيضا، في نظر برييطو، عوامل خارجية، يصطلح على تسميتها بالحال، معرفا إياها بقوله: «إننا إذ نروم دراسة المعنى من وجهة نظر إسهام التصويت في تحقيقه، وجب علينا أن نحدد أيضا العوامل الأخرى التي تشترك في تحقيقه، حتى نتمكن - بعد ذلك - من تعيين الأدوار الخاصة، وهي تلك التي تجتمع في ما أسميه بالحال: إن الحال التي ينجز فيها فعل الكلام هي مجموع الوقائع المعلومة من

[142] - L. J. Prieto, Principes de noologie. Fondements de la théorie fonctionnelle du signifié, Préface d'André Martinet, The Hague, Mouton et CO., 1964, p. 22.

[143] - Idem, pp. 24-25.

قبل المتلقي زمن حدوث فعل الكلام هذا وبمعزل عنه. ويمكنني القول، بعبارات بسيطة، أنها تتكون مما يلزم معرفته من أجل فهم ما يقال»[144].

وتتألّف قائمة الوقائع التي تتشكل منها الحال، في نظر بريبيطو، من واقعة محورية وأخر ظرفية، أما الواقعة المحورية التي تسهم في تشكيل الحال فهي اللجوء، في تحقيق فعل الكلام، إلى نمط من التصويت دون غيره، أي إلى استعمال لسان دون آخر، أي إن اللسان العربي - مثلا - واحد من الوقائع المهمة التي تشترك في تحقيق فعل كلام من مثل القول: «ناولني القلم». وعليه، فإن الحال ستختلف، في نظر بريبيطو، لو أن أحدهم استعمل بدل الجملة جملة « Give me the pen »، لأسباب عديدة، أدناها استعمال لسان مختلف. وأما الوقائع الأخرى التي تسهم هي الأخرى في تشكيل الحال التي يتحقق فيها فعل الكلام فهي، في تصور بريبيطو، الوقائع الظرفية التي تحيط بفعل الكلام هذا، وهي ما يعلمه المتلقي من محيطه، لاسيما، وأساسا، تلك التي تعد الأكثر ملاءمة للمشاركة في تحقيق المعنى[145].

كما إن هذه الوقائع الظرفية، أي مجموع الظروف المرافقة لإنجاز فعل الكلام، لا تسهم في تحقيق المعنى المراد وحسب، بل تسهم أيضا في إبطال معان أخرى، أو إزاحتها: «إن الملاحظات التي جئنا على ذكرها، والتي يمكن أن تنطبق على كل فعل كلام، وعموما على كل فعل سيمي، يمكن أن تلخص في أمرين اثنين هما: 1) إن التصويت يقبل معان ما ويزيح أخر، 2) إن المتلقي يسند إلى التصويت المعنى الذي ترجحه الظروف. لكن فعل الكلام يحدثه المرسل، وإن الهدف من العلمية هذه إحداث رابطة اجتماعية بينه وبين المتلقي تشكل المعنى»[146].

ليست هذه هي أهم الأفكار التي احتوى عليها كتاب بريبيطو الأوّل، بطبيعة الحال، فقد تناول الكاتب فيه مسائل أخرى، منها ما تعلق بمفهوم الملفوظ « énoncé »، فيعرّفه بقوله: «إن الدال والمدلول الموافق له يشكلان معا الكيان الذي يسمى بالملفوظ، وإن الملفوظ هو الكيان الرئيس لكل لسان، وإننا نجد في كل سنن ملفوظات من هذا القبيل، ويُستعمل مصطلح السيم

---

144 - Idem, p. 36.

145 - Idem, p. 37.

146 - Idem, p. 39.

« sème » للدلالة عليها، ومن ثم فإن الملفوظ هو السيم اللساني»[147]. ولما كان العام 1966، أصدر برييطو كتابه الثاني، «المرسلات والإشارات»، أي سنتين فقط بعد كتابه الأوّل، بيد إن عددا من المسائل والتصورات التي احتوى عليها هذا الكتاب كان برييطو قد عبّر عنها في كتابه الأوّل، بل إن الكتاب هذا يكاد يكون في حقيقة الأمر، مثلما لاحظ أوزفالد ديكرو، مجرد ترويج للكتاب السابق، لكنه يختلف عنه بانتهاجه البسط العلمي الذي ييسر الاطلاع على الإطار النظري العام للتحليلات التي احتوى عليها الكتاب السابق[148]. ولقد كنا تحدثنا، بمناسبة حديثنا عن هذا الكتاب، عن الفعل السيمي وأهمية الحال في تمكين المتلقي من تحديد المرسلة الموجهة له من قبل المتلقي، ونودّ ههنا أن نطّلع على التصنيف الذي يقترحه برييطو مفهوم السنن وأنواعه، وهو موضوع القسم الثالث من كتاب المرسلات والإشارات. ويجب أن نذّكر، من أجل ذلك، بمضامين أقسام الكتاب وفصوله.

مشروع برييطو السيميولوجي

لقد كان برييطو، شأنه شأن دو سوسير، لسانيا قبل أن يكون سيميولوجيا، فقد انتقل مساره الفكري من الدراسات القديمة والرومية إلى الفونولوجيات، ثم إلى الدلاليات، ومن بعدها إلى السيميولوجيات. ولئن كانت السيميولوجيات آخر محطات برييطو الفكرية، فإن مكوناتها باتت تأسس منذ مقالاته الأولى، ولعل ما جئنا على ذكره منذ بداية هذا الفصل فيه شيء منها. وفضلا عن عدد من المقالات، فإن مشروع برييطو السيميولوجي تأسس على مراحل، وإن أوّل مؤلفاته التي تناول فيها أشياء منه هو كتاب «المرسلات والإشارات»، الصادر عام 1966، وهو يعتبر استنادا إلى هذا التاريخ تتويجا لسنوات البحث والتدريس التي قضاها في جامعة قرطبة ما بين عامي 1960 حتى عام 1966. وتمخض هذا المشروع عن عملين آخرين، أما العمل الأوّل فهو مشاركته في الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه أندري مارتني حول «اللغة»، وأسند إليه التعريف بالسيميولوجيات، وهو الكتاب الذي نشر عام

147 - Idem, p. 81.

148 - O. Ducrot, « Chronique linguistique », L'Homme, tome 7, n° 2, 1967, pp. 111-112.

1968[149]، أي سنة قبل انتقاله إلى جامعة جنيف ليحل محل هنري فراي في منصب اللسانيات العامة. وأما العمل الثاني، فهو ينتمي إلى الفترة الجنيفية، وهو كتاب الملاءمة والممارسة، الصادر عام 1975.

إنّنا لا ننفكّ عند الحديث عن سيميولوجيات برييطو من التذكير بأصالتها اللسانية، فقد بات مشروع برييطو منذ خطواته الأولى يروم تطبيق مفاهيم لسانية من مثل الخصائص الملائمة، والأصناف، والتركيبيات، وغيرها، على ظواهر مختلفة عن الظواهر اللغوية، بحجة أن المعرفة اللسانية التي تراكمت منذ دو سوسير في مجال اللسان، بوصفه نسقا من العلامات، خليقة بأن تطبّق على أنساق أخرى من العلامات من منطلق اشتراك هذه الأنساق مع اللسان في عدد من القوانين التي تسيّرها وتظهر نفعها وقوتها الاستكشافية. إن السيميولوجيات هي العلم الذي يعنى بدراسة المبادئ العامة التي تسير اشتغال أنساق العلامات وتصنيفها.

لقد كان التأسيس لمفهوم الفعل السيمي « acte sémique » حجر الأساس لهذا المشروع من بابه التواصلي، القائم على القصد فيه، والمستعيض بمصطلح الإشارة عن مصطلح العلامة لدلالة الأوّل على القصد. لأجل ذلك، اجتهد برييطو، منذ الصفحات الأولى من الجزء الأوّل من كتاب المرسلات والإشارات، في وصف عمليات تواصلٍ مختلفةٍ يلجأ فيها الإنسان إلى استخدام الإشارات كوسيلة للتواصل، فليست الجمل هي الإشارات الوحيدة التي يستعملها الإنسان لتمرير مرسلاته إلى الغير، قولا أو كتابة، بل إن ثمة، في نظر برييطو، أنماط أخرى من الإشارات: «إننا عندما نتلفظ بجملة أو نكتبها، أو نقيّد على الصبورة صيغة رياضية، أو استعمال إشارة السيارات الضوئية، أو استخدام العصى البيضاء للعمي، أو رفع الأعلام على أعمدة البواخر، أو وضع شارة الصليب الأحمر، أو تقييد موعد على دفتر جدول الأعمال، فإننا ننتج في كل هذه الأحوال إشارات بغية إرسال المرسلات، غايتها تحقيق العلاقات الاجتماعية التي تسمى «معلومة»، أو «استفهاما»، أو «أمرا»، وإن المرسل، المنتج للإشارة، يباشر فعلا سيميا كي يطلع المتلقي عن معلومة، أو يسأله عن أمر ما، أو يأمره بشيء ما. [...] ومن الضروري حتى تتحقق المرسلة، أي أن يتحقق الهدف الذي من أجله أنجز الفعل السيمي، أن يدرك المتلقي أن

[149] - L. J. Prieto, La sémiologie, in A. Martinet (dir.), Le langage, Paris, Gallimard, 1968.

المرسلة موجهة له من قبل المرسل، وأنه يتمكن من تحديد هذه المرسلة. [...] وإن الظروف المحيطة بالفعل السيمي هي التي تمكن المتلقي من انتقاء المرسلة الموجهة له، دون غيرها من المرسلات الممكنة التي ينتجها المرسل»[150].

إنّ مفهومي الفعل السيمي والحال مفهومان ضروريان لتمثّل مفهوم آخر باتت له هو الآخر أهمية بليغة في أدبيات السيميائيات المعاصرة، وهو المفهوم الذي عبّر عنه لويس برييطو، منذ كتابه «الملاءمة والممارسة»، بمصطلح نسق التفاهم، « système d'intercompréhension ».

العلوم الإنسانية في مقابل العلوم الطبيعية، ومفهوم وجهة النظر

لقد كانت كتابات دو سوسير الأصيلة، وليس كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، الركن الذي آوى إليه برييطو من أجل الترتيب لتصورات سيميولوجية جديدة، وكانت ملحوظة « Alka » النص الذي مكّنه من الربط المنهجي بين مفهوم الملاءمة ومفهوم الممارسة، وأن يحل الفرد المتكلم المحل الذي يحق به، وأن يميز، فضلا عن ذلك، انطلاقا من التمفصل المزدوج، بين البنية التّقابلية والبنية السّيميائية، ويقترح إطارا نظريا للسانيات بوصفها علما إنسانيا.

إنّ أولى الخطوات التي اتخذها برييطو في سبيل توطيد مشروعه السيميولوجي هي خطوة التمييز، استنادا إلى دو سوسير، بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ولقد أعلن في بداية الفصل الثالث الذي خصّصه للفرق القائم بين اللسان والكلام، من كتابه الملاءمة والممارسة، إحالته إلى الطبعة النقدية التي أخرجها رودلف أنغلر عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولاسيما الخانة السادسة التي أورد فيها أنغلر نص ملحوظة « Alka »[151]،

[150] - L. J. Prieto, Messages et signaux, Paris, P. U. F., 1966, pp. 9-11.

[151] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, p. 26, col. 6.

وهو النص الذي أعيد نشره ضمن كتاب دو سوسير، كتابات في اللسانيات العامة، واتخذ له المحققان عنوان ملحوظات لكتاب في اللسانيات العامة[152].

يميّز برييطو في مطلع الفصل الذي عقده للحديث عن التمييز بين اللسان والكلام بين واقعين، واقع مادي أولى طبيعي هو الواقع الذي يتخذه النشاط المعرفي للإنسان، وواقع ثاني تاريخي هو جملة المعارف التي ينتجها هذا النشاط جراء عملية النظر هذه. وقد يتخذ هذا النشاط هذه المعارف بدورها موضوع نظر، فينتج على إثر ذلك معارف جديدة حول المعارف الأولى. وإن الدليل على أن المعارف هذه تشكل واقعا، وأنها خليقة بأن تتخذ موضوع نظر، وجودُ مما يسمى بالمعارف العلمية التي تتخذها الإبستيمولوجيات موضوع نظر. لكن المعارف «العلمية» ليست هي المعارف الوحيدة، بل يوجد في نظر برييطو ما يسمى أيضا بالمعارف «غير العلمية»، ففي المقابل من العلوم الطبيعية التي تعنى بالواقع المادي، يوجد أيضا ما يعرف بالمعارف غير العلمية التي تتخذها ما يصطلح على تسميته بعلوم الإنسان موضوع نظرٍ، وفي المقابل أيضا من الإبستيمولوجيات التي تدرس المعارف العلمية، فإن المعارف غير العلمية هذه خليقة بأن تُتَخذ موضوع بحث إبستيمولوجي[153]. فما هو الفرق إذن بين هذين النمطين من المعارف، الطبيعة والإنسانية؟

لا يُمكن هذا الفرق، في نظر برييطو مستندا إلى لويس ألتوسير، في علاقتها مع الواقع المادي، إذ إن العلوم الطبيعية التي تعنى بالواقع المادي لا تشتغل مباشرة على هذا الواقع بل تتخذه موضوعا لها من خلال جملة المعارف (السابقة) التي أنتجت حوله، فليست علوم الإنسان إذن المواد العلمية الوحيدة التي تنطلق من معارف مسبقة حول واقع مادي. ولقد كان لويس ألتوسير، «إن العلم عندما يتأسس، كالفيزياء مع غاليليو، أو علم تطور التشكيلات الاجتماعية (النزعة المادية التاريخية) مع ماركس، فإنها تشتغل دائما على مفاهيم موجودة سلفا، [...]، فهي لا تشتغل على معطى موضوعي وخالص، هو معطى الوقائع الخالصة الموضوعية، بل إن عملها يتمثل، خلافا

---

[152] - F. de Saussure, Notes pour un livre de linguistique générale (1893-1894), in Ecrits de linguistique générale, pp. 197-201.

[153] - L. Prieto, Pertinence et pratique, p. 77.

لذلك، في بلورة وقائعها العلمية الخاصة، من خلال نقد الوقائع التي أفرزتها الممارسات العلمية السابقة»[154].

لكن علوم الإنسان، خلافا لعلوم الطبيعة، لا تعمد، في نظر برييطو، إلى استبدال معرفة علمية بمعرفية علمية سابقة، لأن العمل النظري لعلوم الإنسان لا يسعى إلى استحداث معرفة علمية جديدة لتحل محل معرفتها الأولى، لأن المعرفة هذه هي الموضوع التي تعنى به هذه العلوم، ومجرد محاولة استبداله سيتهاوى لا محالة، فتفقد علة وجودها. ولقد أدرك دو سوسير، في نظر برييطو، هذا الفارق الأساس بين علوم الإنسان وعلوم الطبيعة[155].

ولقد أدرك دو سوسير، في نظر برييطو، هذا الفارق القائم بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ليس فقط في الفقرة من ملحوظة « Alka » التي استشهد بها برييطو، بل في مواضع أخرى، ومناسبات أخرى، إذ يقول في هذه الفقرة: «إن ما نثق فيه بما يتعلق باللسانيات هو الآتي: من الممكن الحديث، في ميادين أخرى عن وجهة النظر هذه أو تلك، يقينا بأننا إزاء الموضوع نفسه، لكننا ننفي، في اللسانيات، وجود موضوعات معطاة، أو أشياء تظل قائمة إن نحن انتقلنا من نمط من الأفكار إلى آخر، أو نبيح لأنفسنا تمثل الأشياء من منظورات مختلفة، معتقدين بأنها موجودة بذاتها. إنه من المتعذر، في اللسانيات، الحديث عن شيء ما من وجهات نظر مختلفة، أو الحديث عنه من وجهة نظر عامة، لأن وجهة النظر هي وحدها التي تخلق الموضوع»[156].

إنّ الميادين الأخرى التي يلمح إليها دو سوسير في هذه الفقرة هي علوم الطبيعة في نظر برييطو، ومن الممكن في اعتقاده أن يستخلص من قول دو سوسير «إنه من المتعذر، في اللسانيات، ...» ما يلي: «إن العلم من علوم الطبيعة هو الذي يحدد بنفسه وجهة النظر التي يقبل بها على موضوعه، أي الواقع المادي («الشيء» في قول دو سوسير) وهي وجهة النظر التي تتمخض عنها الطريقة التي تحصل معرفته بها، في حين أن أسلوبا كهذا ليس مستساغا

---

[154] - L. Althusser, Pour Marx, Paris, François Maspero, 1966, p. 187.

[155] - L. Prieto, Pertinence et pratique, p. 78.

[156] - F. de Saussure, Notes pour un livre de linguistique générale, 2), in Ecrits de linguistique générale, p. 201.

في اللسانيات، لأن موضوع اللسانيات ليس الواقع المادي بل إن وجهة النظر هي التي تشكّل موضوع هذه المادة»[157].

من أجل نظرية للمؤسّسات

لقد كان لويس بريبطو، كغيره من السوسيريين الأوائل، قارئا لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فقد أعدّ عنه، عام 1990، تقريرا صدر له ضمن الكتاب الجماعي الذي أشرفت عليه المكتبة الوطنية الفرنسية، وهو عبارة عن جرد لأهم مؤلفات القرون العشر الماضية، في ميادين مختلفة، وأعيد نشره في العدد الخمسين من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير. إن بريبطو ليس الباحث الوحيد الذي أعد تقريرا عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فقد قام بذلك باحثون من قبله، لكن الذي يلفت في هذا التقرير أنه كان، في نظر إيمانويل فدة، أوّل من أقر بأن السيميولوجيات كانت في تصور دو سوسير عبارة عن نظرية للمؤسسات[158]، فقد كتب بريبطو يقول: «لم تقدر أهمية كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بعيد صدوره حق قدرها، لكن أهمية الكتاب الكبرى ليس فقط بالنسبة للسانيات، بل لعلوم الإنسان قاطبة، باتت جلية على إثر نشأة نظرية يمسليف اللسانية وخاصة فونولوجيات مدرس براغ اللتين نشأ عنهما التيار البنيوي في ستينيات القرن الماضي وسبعينياته. إن الكتاب يضع أسس ما يمكن وصفه بنظريةٍ للمؤسسات، يقع اللسان منها موقعا خاصا: بحكم الدور الذي تضطلع به الألسن في المجتمعات، وبحكم الدرجة العليا من التدقيق الذي يمكنه التواصل. إن نظرية المؤسسات هذه تستند أساسا إلى ثلاث تمييزات: أولا التمييز بين علاقات التقابل وعلاقات الدلالة، الذي ينجم عنه مفهوم القيمة، ثانيا التمييز بين المؤسسة نفسها، أي اللّسان معفرا تعبيرا تجريديا، وتحققه في السلوك الفعلي للأفراد (الكلام)، وثالثا التمييز بين الطريقة التي تشتغل بها المؤسسة في زمن معلوم (السنكرونية) والطريقة التي تتحول بها عبر الزمن (الدياكرونية). إن علوم

---

157 - L. Prieto, Pertinence et pratique, p. 79.

158 - E. Fedda, « Le lieu théorique de la sémiologie de L. J. Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 54, 2001, pp. 398-399.

الإنسان، وهي ربما ليست سوى علوم المؤسسات الإنسانية، ما تزال لم تستخلص من فكر دو سوسير كل ما يمكن أن يقدمه لها»[159].

فما هي نظرية المؤسسات التي ألمح إليها بريبطو في تقريره هذا، وما هي دلالة الجملة التي اختتمه بها، في ذلك الوقت بالذات، نعني به العقد الأخير من القرن الماضي. إنها نظرية تستقي مما دونه أو درسه دو سوسير بخصوص المؤسسات، وهي عموما نصوص منثورة في كتاباته، كملحوظاته حول ويتني[160]، ومقدمة المحاضرات في اللسانيات العامة للسنة الجامعية الثانية (1908–1909)[161]، ومواطن أخرى، كقول دو سوسير مثلا: «إن الواقعة الاجتماعية للسان يمكن أن تقارن بالعادات والتقاليد (الدستور، القانون، الأخلاق، وغيرها). أما الفن والدين فإنهما بعدين عنه، إذ يعتبران تمظهرا للعقل وتضطلع فيهما المبادرة الفردية بدور حاسم، لا يفترض تبادلا بين فردين»[162].

والظّاهر أن بريبطو لم يبلور هذه النظرية أو أنه على الأقل لم ينتهي إلا التفصيل في كل مكوناتها، لكن عددا من المبادئ العامة لهذه النظرية موضوعة معلومة، فإذا كانت السيميولوجيات تعنى بالقوانين التي تحكم المؤسسات عموما، فإن القوانين هذه تستند إلى ثنائيات ثلاث هي: أولا التمييز بين علاقات التقابل وعلاقات التبادل، ثانيا التمييز بين المؤسسة المجردة وتحققها، وثالثا التمييز بين الطريقة التي تشتغل بها المؤسسة في زمن معلوم (السنكرونية) والطريقة التي تتحول بها عبر الزمن (الدياكرونية). لكن جون سيرل كان قد حاول التأسيس لنظرية من هذا القبيل، في جملة من بحوثه نذكر منها: بناء الواقع الاجتماعي[163]، اللغة والأنطولوجيات الاجتماعية[164]،

---

[159] - L. J. Prieto, « Ferdinand de Saussure (1857-1913) : Cours de linguistique générale, 1916), in En français dans le texte : Dix siècles de lumière pour le livre, Paris, Bibliothèque Nationale, 1990, p. 360.

[160] - F. de Saussure, Notes pour un article sur Whitney, in Ecrits de linguistique générale, pp. 203-222.

[161] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale (1908-1909). Introduction d'après les notes d'étudiants, édité par R. Godel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, 1957, pp. 3-103.

[162] - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 178.

[163] - J. Searle, The construction of social reality, New York, Free Press, 1995.

وصناعة العالم الاجتماعي[165]، غير أن نظريته لاقت جملة من النقود، لاسيما تصوره للعلاقات القائمة بين اللغة والألسن والمؤسسات الاجتماعية[166].

تداوليات ضمنيّة عند برييطو

قد يبدو من الغريب الحديث، في ختام هذا المقال، عن تداوليات محتملة في آثار برييطو السيميولوجية، لكن الباحثين بوريس بلانك ورولان بوسنار انتهيا في المقال المشترك الذي عنوناه ب: «التداوليات الضمنية في أعمال لويس برييطو»[167]، إلى قناعة مفادها وجود ملامح تداوليات في فكر برييطو، نتيجة تتبع عدد من سمات القرابة والاختلاف بينه وبين غرايس، فكتبا يقولان: «يمكننا التمييز، في تاريخ التفكير حول التواصل، بين مقاربتين مختلفتين، إذ بينما تعنى إحداهما بالموضوعات الدالة تعنى الأخرى، خلافا للأولى، بالأفراد المشاركين في التواصل، فأما التيار البحثي الأوّل فإنه يطبق على تحليل الموضوعات التي تبدو وكأنها تملك قدرة غريبة على نقل المرسلات، واحتواء الدلالات، وامتلاك المعنى، وأما التيار الثاني فإنه يحلّل، في المقابل من ذلك، الآليات والسلوكات المحققة عند استعمال هذه الموضوعات، كالتكفّل والاعتقاد، والقصد إلى الشيء والرغبة فيه، والاستخلاص والاستنتاج. وإن نظريتي غرايس وبرييطو، إذا ما تأملناهما بمستوى عام، تشتركان في السعي إلى إدماج هاتين المقاربتين اللتين تبدوان للوهلة الأولى مقاربتين متضادتين. وفي الوقت الذي يجمع فيه برييطو بين نظرية للعلامة وللسنن ونظرية للعفل السيمي (أو الفعل التواصلي)، تسعى نظرية غرايس،

---

[164] - J. Searle, Language and social ontology, in Theory and Society, n° 37, 2008, pp. 443-459.

[165] - J. Searle, Making the social world : the structure of human civilization, Oxford, Oxford UP, 2010.

[166] - E. Fedda, An Alternative Perspective on Language and Social Ontology : Langage as a Condition and Langue as a (Possible) Model », in C. Stancati & alii (éds), The Nature of Social Reality, Stratford-upon-Tyne, Cambridge Scholars Publisher, 2013, pp. 161-173.

[167] - B. Blancke et Roland Posner, « La pragmatique implicite dans l’œuvre de Luis J. Prieto », Semiotica, fasc. 122, n° 3-4, 1998, pp. 257-278.

انطلاقا من اللبس الذي يعتري كلمة « meaning » الإنجليزية، إلى تفسير تأويلها المتصل بالموضوع، انطلاقا من تأويلها المتصل بالفرد»[168].

إنّ وصف برييطو للفعل السيمي بأنه فعل معرفي « cognitif » يكتسي دلالة بارزة بالنسبة للتداوليات، فقد باتت هذه الأخيرة، نتيجة المنعطف المعرفي الذي أحدثته أعمال غرايس وسيرل، «مختبرا فعّالا للتحوّل في الأنموذج « paradigme » الذي أصبح يُميّز الساحة الفكرية العلمية، مثلما أشار إليه فرانسوا ريكاناتي في الثمانينيات حين رأى فيه تحوّلا محمودا. وليس هذا التحوّل بالضرورة تحولا إشكاليا، فقد تبيّن أنه ذو فائدة في دراسة عدد من الظواهر التي لم يفلح التحليل الدلالي الصرف في شرحها. لكن التداوليات لم تعد، نتيجة لهذا التحوّل (على الأقل منذ أعمال بول غرايس)، تجتهد في بلورة تحليل يُمكّن من الكشف عن الظواهر نفسها، وغاب عنها ما هو منجز، بحق، بالفعل الكلامي، وتحلّلت من وجهة النظر ذات النزعة التواضعية « conventionnaliste »، من أجل تبني تصور صدقي-شرطي « véériconditionnel »، بادئ الأمر، ثم وجهة نظر ذهنية « mentaliste » للآثار التي تحدثها اللغة، وهي وجهة النظر التي باتت تحول دون عودة التداوليات إلى رحاب الدلاليات الموسعة، لا سيما في التحوّلات الأخيرة التي شهدتها»[169].

---

[168] - Idem, pp. 257-258.

[169] - B. Ambroise, « Le tournant cognitif en pragmatique. Un aller-retour transatlantique et ses impacts philosophiques », Revue d'Histoire des Sciences Humaines, vol. 2, n° 25, 2011, pp. 83-84.

الاستعارة بين تأويليات ريكور ولسانيات دو سوسير الجديدة

قد تصدق المقولة: «لا يُكتب التاريخ إلا مرة واحدة» على عدد من المعارف أو العلوم التي اهتدى المؤرخ إلى تحديد أصولها، وانتهى من ترتيب نتائجها، لكنها لم تعد تصلح في اعتقادنا لتاريخ اللسانيات، هذا التاريخ الذي باتت مخطوطات دو سوسير تلزم القائمين عليه بإعادة النظر في كثير من المسلّمات التي ركنوا إليها وقد اكتفوا بترسيخ نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدو سوسير ردحا من الزمن، ونسبوا إليه جملة من الثنائيات التي كانت، وما تزال، كأركان العقيدة التي لا يحاد عنها. لقد غفل هذا التاريخ عن كثير من النقود التي توالت على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولئن كان أشار إلى عدد من الطعون التي نالت من هذه الثنائيات، عندما راح مثلا يؤرخ للتقارير التي تلت نشر الكتاب، وأجمعت، في مجملها، على ردّها والقدح في صلاحيتها، لم يحتف إلا لماما بالنقود التي جاءته من خارج دائرة اللسانيات.

إنّ النقود التي وجهّت لكتاب المحاضرات المنسوب إلى فرديناند دو سوسير لم تأت من جهة اللسانيات فقط، بل جاءته أيضا من جهة التأويليات. ولسنا نروم في هذا المقال الدفاع عن دو سوسير من جهة عدم نسبة مضامين كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولا رفض النقود التي عبّر عنها بول ريكور اتجاهه، بل نريد، على العكس من ذلك، القول بأن الفيلسوف أعاد الاعتبار للساني. وإننا إذ نطمئن إلى عدم فصل دو سوسير بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام الذي روّج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المحرّر من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، فإننا نرى في هذه النقود انتصارا لدو سوسير الأصيل.

لقد كان الفيلسوف الفرنسي بول ريكور (1913–2005) ممن نبّهوا، منذ سبعينيات القرن الماضي، إلى بطلان الفصل بين اللسان والكلام، في كتابه «الاستعارة الحية» الصادر عام 1975، وهو الكتاب الذي نقله إلى اللسان

العربي محمد الولي، وراجع جورج زيناتي ترجمته. لكن الترجمة هذه، شأنها شأن الترجمة العربية لكثير من المؤلّفات الغربية التي استدعت، من قريب أو من بعيد، فكر دو سوسير ولسانياته، يشوبها بعض الخلل في ترجمة المصطلح السوسيري، فتحُول دون فهم علّة هذا الاستدعاء، إذ لم ينتبه المترجم إلى أنه عبّر عن مفهومين سوسيريّيْن مختلفين بمفردة واحدة، فكتب ناقلا لنص بول ريكور: « فالقول مع سوسير إن اللغة نسق من الدلائل لا يميّز اللغة إلا في أحد مظاهرها وليس في واقعها الشامل »[170]، وعبّر بمصطلح اللغة وحده عن المصطلحين السوسيريين « langue » و« langage »، المستعمليْن في النص الفرنسي المترجَم المدوَّن في الهامش أدناه[171].

إنّ فهم نص بول ريكور وترجمته الترجمة السديدة منوطان بما أضحى يعرف في أدبيات الترجمة بالمعارف الموسوعية، وهي في هذه الحالة تتحقق في المعارف التي عبّر عنها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، إذ هو المرجع الذي يلجأ إليه بول ريكور. والمراد من النص المنقول عن ريكور أن قول دو سوسير بأن «اللسان نسق من العلامات» قول لا يعبّر عن حقيقة ملكة اللغة إلا من جانب واحد، فملكة اللغة لا تتجلى إلا في الكلام ولو كان ذلك باستعمال اللسان. ولذلك ألزمنا نفسنا، في هذا البحث، وفي غيره من بحوثنا الأخرى التي تناولنا فيه فكر دو سوسير، أن نتجنّب الترجمات العربية للمؤلفات الغربية اللسانية.

الاستعارة، إلى أيّهما أقرب: إلى اللّسان أم إلى الكلام

إنّ المقاربة التي انتهجها بول ريكور في كتاب «الاستعارة الحية»، لاسيما في الدراسة الثالثة من الكتاب، تمثل تحوّلا نظريا مهما في تاريخ البحث الاستعاري، فقد سلك المسلك اللساني في مقاربتها، خلافا للدراسات السابقة التي كانت تنحو المنحى السيكولوجي. والظاهر أن الاستعارة لم تكن، حتى

---

[170]– بول ريكور، الاستعارة الحية، تر. محمد الولي، مر. جورج زيتاني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2016، ص. 138.

[171] - « Dire avec Saussure que la langue est un système de signes ne caractérise le langage que dans un seul de ses aspects et non dans sa réalité totale ». Cf. P. Ricoeur, La métaphore vive, Paris, Seuil, 1975, p. 91.

نهاية سبعينيات القرن الماضي، مسألة تصنّف في دائرة المسائل اللسانية بصفة خاصة، وكان جيرولد صادوق واحدا ممن عبروا عن هذا الرأي، إذ كتب عام 1979، ضمن الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه أندرو أورتوني وخُصّص للبحث في علاقة الاستعارة بالفكر والعلم، وعلاقتها باللسانيات، والدلاليات، والتداوليات: «ليست دراسة الاستعارة موضوع بحث خاص باللسانيات الآنية بحجة أن الأساس الذي تقوم عليه الاستعارة انزياح يشترك في تحقيقه السلوك غير اللساني. وإني، مهما كانت الطريقة التي تستعمل بها الاستعارة وبها تفهم، على قناعة بأن الآليات التي تستند إليها الاستعارة آليات من نمط سيكولوجي، وليست إذن آليات لسانية محضة. ولئن كانت الملكات الفكرية التي تسهم في ذلك ملكات لا غنى للكلام عنها، إلا أنها مستقلة عنه، إن المجموعة من النجوم التي توحي في سماء الليل إلى المتأمل بصورة الثور، وصورة الأسد الموضوعة على درع المحارب التي توحي بشجاعة هذا المحارب، يمثلان، في اعتقادي، مثالين غير لسانيين لذلك الميول إلى المشابهة الذي يعمل في حدوث الاستعارة وتلقيها»[172].

لكن الاعتقاد بأنّ اللّسانيات ليست أقرب المعارف العلمية إلى شرعية اتخاذ الاستعارة موضوعا للبحث لم يعد يجد من يناصره، فقد نبّه جونثان كوهين، على إثر المثالين اللذين استعان بهما جيرولد صادوق، إلى ضرورة التمييز بين الاستعارة وبين التشبيهات من جهة، وبينها وبين مختلف التشبيهات غير المجازية من جهة أخرى. فإلى أي المجالين هي أقرب، إلى لسانيات للسان، أم إلى لسانيات للكلام؟ إن الموقف الذي عبّر عنه جونثان كوهين صريح في هذا الشأن فقد كتب يقول: «إن الموقف الذي أتخذه، في المقابل من الموقف الذي ينزع إليه صادوق، يتمثل في القول بأن المسألة الرئيسة الّتي تتمخض عن الاستعارة مسألة تتعلق بنظريتنا حول اللسان، ولا تتعلق بنظريتنا حول الكلام. لكن الرأي هذا لا ينطبق إلا على الاستعارة، ولا يشمل الصور الأخرى»[173].

---

[172] - J. M. Sadock, Figurative speech and Linguistics, in A. Ortony (dir.), Metaphor and thought, Cambridge, Cambridge University Press, 2^{e} ed., 1993, p. 42.

[173] - L. J. Cohen, The semantics of metaphor, in A. Ortony (dir.), Metaphor and thought, p. 58.

الاستعارة الحية وموقف بول ريكور من كتاب المحاضرات

لقد كان كتاب «الاستعارة الحية» لبول ريكور واحدا من المؤلفات التي اجتهدت في ردّ المسلمات التي ركنت إليها اللسانيات البنوية التي استمدّت عددا من أسسها من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة. ولعل أهم هذه الأسس الفصل بين اللسان والكلام، فقد انتهى كتاب المحاضرات المنسوب إلى دو سوسير من قبل مُحرّريْه شارل بالي وألبير سشهاي، إلى الإقرار بأن «موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في ذاته ولذاته»[174]. ولقد اقتفى بول ريكور أثر رومان ياكبسون ومن نحا نحوه في الاعتراض على إزاحة الكلام من حقل تحريات اللسانيات، إذ إن الفصل بين اللسان والكلام فصلا تاما لا يمكن، في رأي ياكبسون، من إدراك الصلة الوثقى القائمة بين تحليل السَنن « code » وتحليل المرسلات « messages »، فقد كتب يقول: «وعلى الرغم من أن وجهة النظر المُقيِّدة هذه ما تزال تجد من يدافع عنها، فإن الفصل المطلق بين المظهرين ينتهي إلى التسليم بوجود علاقتين متراتبتين مختلفتين: تحليل للسنن يأخذ بالحسبان المرسلات، وتحليل للمرسلات يأخذ بعين الاعتبار السنن، لكن العزوف عن مقابلة السنن بالمرسلات يحول دون إدراك القدرة الخلاقة للغة»[175].

ولئن كانت الأمثلة التي استعان بها رومان ياكبسون تمثل بالنسبة لبول ريكور حججا قوية تدحض الفصل بين اللسان والكلام (أو بين السَنن والمرسلة)، من مثل الدور الذي تضطلع به السنن الفرعية « sous-code » التي يختارها الأفراد المتكلمون حسب حالات التواصل، أو إنشاء السنن الفردية التي تمكن الأفراد من تحقيق هويتهم، فإن الاستعارة تمثل هي الأخرى حجة دامغة لرد الفصل بين اللسان والكلام، إذ تعد في نظره أرقى الأمثلة الدالة على التبادل الحاصل بين السنن والمرسلة، والصلة الوثقى القائمة بينهما[176].

---

[174] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par CH. Bally et A. Sechehaye avec la collaboration d'A. Riedlinger, Paris, Payot, 1971, p. 317.

[175] - R. Jakobson, La linguistique, in Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales, Première partie, préface de R. Maheu, Paris-La Haye, Mouton-Unesco, 1970, p. 550.

[176] - P. Ricoeur, La métaphore vive, p. 156.

إنّ التصوّر الذي يرتضيه بول ريكور للاستعارة ينبني على تصوّر لا يقدح في نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة إلى دو سوسير، إذ لا نكاد نعثر في كتابه على ما يوحي إلى غير ذلك، على الرغم من استدعائه لكتاب روبار غودال، «الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة»، فهو لا يستدعيه إلا للتوكيد على مبدأ يقرّ به كتاب المحاضرات، إذ كتب يقول: «لقد كشف النظر في البلاغة القديمة والبلاغة الكلاسيكية عن العلاقة القائمة بين تصور للاستعارة بوصفها إبدالا « substitution » وتصور للغة يجعل من الكلمة الوحدة الدنيا، لكن الأولوية الممنوحة للكلمة لم تكن تستند إلى علم للعلامات، بل كانت مستندة إلى تضايف بين الكلمة والفكرة. ولقد باتت الدلاليات الحديثة قادرة، انطلاقا من دو سوسير، على تزويد هذا الوصف نفسه للمجازات « trope » بأسس جديدة إذ إنها باتت تتوفر على مفهوم جديد للكيان اللساني الأساس، أي مفهوم العلامة. إن نشر غودال لمخطوطات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة تشهد أن ذلك كان الشغل الشاغل لرائد الدلاليات الحديث: أي التعرّف على الوحدة اللسانية الدنيا، أي العلامة، والتعريف بها وتحديدها»[177]. ولذلك وجب أن ننبّه، في هذا السياق، إلى أن نسبة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لدو سوسير لم تكن مسألة تحتاج إلى نظر في كتابٍ يُعني بالاستعارة ويتبع مسارا «يبدأ بالبلاغة الكلاسيكية ليمرّ بالسيميائيات والدلاليات لكي ينتهي إلى التأويليات، وهو تدرّج من مادة علمية إلى أخرى يتبع التدرّج في الكيانات اللسانية المتصلة بها: أي الكلمة، ثم الجملة، ثم الخطاب»[178].

وكتاب الاستعارة الحية عبارة عن ثمان دراسات عقدها بول ريكور للنظر في تاريخ الاستعارة نظرة نقدية متفحصة، لكن الإحالة إلى دو سوسير لا تبرز إلا في الصفحات التسعون الأولى من الكتاب، وهي الجملة التي أسلفنا الإشارة إليها ولم نرتضي ترجمتها العربية التي اختارها الباحث محمد الولي مترجم الكتاب. وإننا إذ نعيد التذكير بها فإنما من أجل التقليل من حدة الإقرار الذي تنطوي عليه، إقرار مفاده أن تصور دو سوسير قاصر عن تمثل اللغة « langage » تمثلا شاملا إذ يقتصر على التعريف بها من جانب واحد، هو جانب اللسان بوصفه نسقا من العلامات. إن هذه المقولة النقدية تحتمل، في

177 - Idem, p. 130.

178 - Idem, p. 7.

اعتقادنا، تفسيريّن، فإما أن تصور دو سوسير للغة قاصر في اعتقاد ريكور لأنه يكتفي باللسان من أجل فهم اللغة فلا يستدعي عنصر الكلام، وإما أن ثمة تصورا آخر للسان لم يستعده، غير كونه نسقا من العلامات. وإننا، في غياب قرائن نصية صريحة نفصل بها بين التفسيرين، نميل إلى التفسير الأوّل، لكننا لا ننفك نرده من وجوه، على الرغم من أننا نقرّ بأن قراءة ريكور لفكر دو سوسير اللساني إنما تستند إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وإقراره في هذه الحالة غير مجانب للصواب إذن، إذ لا يكاد كتاب المحاضرات يحيد عن هذا التصور.

ولأنّ الاقتصار على فهم اللغة من جهة اللسان، بوصفه نسقا من العلامات، فهم قاصر، يلجأ بول ريكو إلى إيميل بنفنست من أجل إدراج عنصر آخر يتمّم النقص الذي يعتري التصور السوسيري (المزعوم)، هو عنصر الخطاب، ومستفيدا من الثنائية التي أسس لها بنفنست بين السيميائيات بوصفها علما للعلامات، والدلاليات بوصفها علما للخطاب، وبينما يتخذ الأوّل من العلامة وحدته الدنيا يتخذ الثاني الجملة وحدته الدنيا[179]. إن الانتقال من الكلمة-الاستعارة إلى الملفوظ الاستعاري إجراء مكّن ريكور من تجاوز الإطار الضيق الذي دُرست فيه الاستعارة في البلاغة الكلاسيكية، إذ إن الملفوظ هو المحيط السياقي الذي يقع فيه التغير الدلالي الذي يحدث مع الاستعارة، ومكّنه من التفكير في نظرية خطابية للاستعارة. لكن سلوك سبيل الملفوظ الاستعاري بغية فهم الاستعارة لا يعني - في اعتقاد ريكور – الاستغناء عن الفهم الأرسطي للاستعارة لأن الاسم أو الكلمة هما المحلّ الذي تحل فيه، «وإذا كانت الكلمة هي الحامل للأثر الذي يحدثه المعنى الاستعاري، فذلك لأن وظيفة الكلمة تتمثل، ضمن الخطاب، في تجسيد المماثلة الدلالية، وإن المماثلة هذه هي التي تُؤثّر فيها الاستعارة»[180].

---

[179] - Emile Benveniste, « La forme et le sens dans le langage », 1966, Actes du XIIIe Congres des Sociétés de philosophie de langue française, Le Langage, Genève, La Baconnière, 1967, p. 7.

[180] - P. Ricoeur, La métaphore vive, p. 88.

الاستعارة ورد الفصل اللسان بين والكلام

لسنا نعلم إلى أي مدى كان بول ريكور سيُعيد النظر في هذا الموقف من كتابه لو أنه كان اطلع، قبل ذلك، على مخطوطات دو سوسير في اللسانيات العامة، ونعني بها تلك التي تتوارد فيها مصطلحات الكلام أو اللسان الخطابي « langue discursive » والخطاب التي باتت تؤسس لتيار لساني سوسيري جديد لا يقيم فصلا بين لسانيات اللسان التي اعتنقتها البنيويات الأوروبية ولسانيات الكلام والخطاب التي بدت منذ ثمانينيات القرن الماضي كالبديل الناجع والحل الناجح للأزمة التي انتهت إليها لسانيات اللسان. إن «الملحوظة حول الخطاب»[181] والمخطوطات السوسيرية الأخرى التي تم نشرها ضمن كتاباته في اللسانيات العامة التي حققها سيمون بوكي ورودلف أنغلر، لاسيما المخطوطة التي اتخذ لها المحققان تسمية [الخطابي، موقع التحولات، وأقسام هذا الكتاب][182]، كلّها نصوص تبرز عناية دو سوسير بمفهوم الخطاب، وهو تارة يستعمله مرادفا لمفهوم الكلام، وتارة أخرى يستعمله بمفهوم خاص.

ولئن كان الحديث في هذه المخطوطة حديث عن التحولات التي تطرأ على الألسنة، والتوكيد على أن التحولات هذه إنما تتم في الخطاب، فإن مفهوم الخطاب في هذه الفقرة لا يكاد، في نظر جيرار ديسون، يختلف عن مفهوم الكلام. ولقد أشار ديسون إلى عدد من النصوص التي لا يبتعد فيها مفهوم الخطاب عن مفهوم الكلام الذي تداوله كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فإذا قارنا بين الجملة التي افتتح بها دو سوسير هذا النص، وهي قوله: «إن التحولات كلها، سواء كانت تحولات صوتية، أو نحوية (قياسية)، لا تتم البتة إلا في ما هو خطابي»[183]، والجملة التي تؤدي معناها من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وهي القول: «إن في الكلام منشأ كل التحولات»[184]، أو قارنا بين جملة من نصوص دو سوسير وفيها يقول: «كل اللسان يستقر في الذهن بدءا عن طريق ما هو خطابي»[185]، وتعبير كتاب

---

[181] - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 277.

[182] - Idem, p. 95.

[183] - Ibid.

[184] - Idem, p. 138.

[185] - Ibid.

المحاضرات في اللسانيات العامة عن معناها المماثل: «لا شيء يستقر في اللسان إلا بعد تجربته في الكلام»[186]، لألفينا هذا التماثل في الاستعمال بين المفهومين.

لكن الاستعمال هذا لا يعني، في نظر ديسون، ترادفا بين مصطلحي الخطاب والكلام، وإن مصطلح الخطاب ينطوي، في نظر الباحث، في نصوص أخرى، على شيء آخر يختلف عما ينطوي عليه مصطلح الكلام، ولئن كان دو سوسير عبر أحيانا عن مصطلح الكلام بعبارة اللسان الخطابي، كما في حديثه عن الفرق بين الكلمة والجملة: «بينما نحتاج إلى تحليل من أجل التحقق من العناصر التي تتألف منها الجملة، لا تنتج الكلمة عن تحليل للجملة، لأن الجملة لا توجد في الكلام، في اللسان الخطابي، في حين أن الكلمة وحدة توجد خارج كل خطاب، في المخزون الذهني»[187]، فإن المصطلح هذا يستعمل من قبل دو سوسير لغير الغاية التي استعمل فيها مصطلح الكلام في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، لذلك كتب ديسون يقول: «إن مفهوم اللسان الخطابي يبطل، في هذا الموقع بالذات، المقابلة التي روجت للفصل بين اللسان والكلام [...]. وهو إذ يضع اللسان في علاقة مع الجانب الوضعي للغة، فإنه يضع الكلام، في المقابل من ذلك، في موقع الموضوع الشرعي للسانيات»[188].

ولئن كان بول ريكور استند إذن إلى القول بأن التحوّلات اللسانية (صوتية كانت، أو قياسية، أو دلالية) إنما تتم في الكلام، إذ يستعيد قول ستيفان أولمان: «إن الكلام، بوصفه التحقيق الفعلي للسان، هو المحلّ الأوّل الذي تبرزه فيه التغيّرات الدلالية»[189]، فإنه أردف يقول: «ويمكننا أن نضيف، وقد لاحظنا الطابع غير المتصل لهذه التغيرات، أن الوسائط، التي يشهد عليها تاريخ التغيرات الدلالية التي تعرّض للكلمة، مهما تعددت فإن كل تغيّر فردي يُعد بمثابة القفزة التي تبرهن على ارتباط الابتكار بالكلام. لكن الاستعارة ترتبط من جهة أخرى بخاصية من خصائص السنن، وأعني بها التعدد الدلالي

---

186 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 231.

187 - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 117.

188 - G. Dessons, « Du discursif », Langage, n° 159, 2005, pp. 25-26.

189 - S. Ullmann, Précis de sémantique française, Berne, A. Francke, 1952, p. 237.

« polysémie »، وكأن الاستعارة تنضاف إلى هذا التعدد عندما تكفّ عن كونها مجرد ترادف فتتحوّل إلى استعارة مستعملة « métaphore d'usage »، ثم تصبح تعبيرا مأثورا اطّرد استعماله « cliché »، لينغلق المسار « circuit » على هذا النحو بين اللسان والكلام. وإن هذا المسار المغلق يمكن وصف مراحله على النحو الآتي: التعدّد الدلالي يعني اللسانَ، وتعني الاستعارةُ الحية الكلامَ، وتعني الاستعارة المستعملة العودة من اللسان إلى الكلام، ويعني التعدّد الدلالي اللاحق اللسانَ. وإن هذا المسار المغلق يُبرز بشكل مثالي استحالة الاكتفاء بالثنائية السوسيرية»[190]، أي الفصل بين اللسان والكلام.

الاستعارة وردّ الفصل بين الآنية والتاريخية

لم يكتف بول ريكور في نقده للمسلّمات التي ركن إليها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير بردّ الفصل بين اللسان والكلام بل طال نقده أيضا ثناية الآنية والتاريخية التي أسسها لها الكتاب، وهو إذ يعترف لهذه الثنائية بالدور الذي أسهمت به في الحدّ من هيمنة النزعة التاريخية على البحث اللساني طيلة القرن التاسع عشر، لا ينفك، كصنيعه مع الثنائية السابقة، ينفي قدرتها على تفسير طبيعة الاستعارة المزدوجة، إذ إن للاستعارة، في تصوره، جانبا نسقيا وآخر تاريخيا لا ينفصمان، فكتب يقول: «لم تكن الثنائية الكبرى الثانية – تلك التي تقابل بين وجهة النظر الآنية ووجهة النظر التاريخية – أقل فائدة من الثنائية السابقة، إذ لم تُمكّن فقط من رفع اللبس بين علاقتين للواقعة اللسانية بالزمن، وهما واقعتي التزامن والتتابع، بالتفريق بينهما، بل مكّنت أيضا من الحدّ، على المستوى مبادئ الفهم، من هيمنة التاريخ، بفرض أولوية جديدة، هي أولوية النسق على التطوّر. لكن التعقيد الذي نجم عن هذه الثنائية بات على قدر واحد من الأهمية التي ينطوي الاهتداء إليها، وإن ظاهرة كظاهرة الاستعارة لها أبعاد نسقية وأخرى تاريخية. إن تعدد دلالات الكلمة واقعة آنية، وإن الكلمة هذه تنطوي، في الزمن الحاضر، ضمن السنن، على أشياء عديدة، ووجب والحال هذه تصنيف التعدد الدلالي من جهة الآنية، لكن التحوّل الدلالي الذي يضيف إلى التعدد الدلالي، والذي أسهم، في الزمن الماضي، في تشكيل التعدد الدلالي الآني،

---

190 - P. Ricoeur, La métaphore vive, p. 156.

يعد واقعة تاريخية (دياكرونية). إنّ الاستعارة بوصفها ابتكارا وجب تصنيفها ضمن التغيرات الدلالية، ووضعها ضمن الوقائع التاريخية، لكنها بوصفها انزياحا تستطف إلى جانب التعدد الدلالي، وإلى جانب المحور التاريخي إذن. إن الكلمة تقع حقا عند مفترق نمطين من الاعتبارات، اعتبارا لكونها خليقة بأن تكتسب دلالات جديدة، وأن تحتفظ بها دون أن تتخلى عن الدلالات القديمة. إن الصيرورة التراكمية هذه تستدعي إذن، نظرا لطابعها المزدوج، وجهة نظر بانكرونية « panchronique » »[191]، أي لا هي آنية ولا هي تاريخية. وإننا نفهم من تصور بول ريكور للبانكرونية بأنها منزلة تجتمع فيها الآنية والتاريخية معا، فتنتجان تصورا ثالثا تُحشد فيه التصورات الآنية والتاريخية للاستعارة من أجل فهم اشتغالها فهما موحدا، من حيث كونها واقعة نسقية لارتباطها بالتعدد الدلالي، ومن حيث كونها واقعة تاريخية لارتباطها بالتغير الدلالي.

وقد يحسب قارئ كتاب الاستعارة الحية لبول ريكور بأن إحداث البانكرونية كبديل عن وجهتي النظر الآنية والتاريخية ابتكار من صاحب الكتاب ويجب ألا يعزى إلا إليه، بيد إن الأمر ليس كذلك أوّلا، إذ إن ما دوّن طلبة دو سوسير عنه يشير صراحة إلى استعمال دو سوسير لهذا المصطلح، بيد إن تصور دو سوسير للبانكرونية يختلف ثانيا كل الاختلاف عن التصور الذي يرتضيه بول ريكور لها. وإن النظر في اللسان خارج إطار الزمن، أي لا من حيث كونه واقعة آنية، ولا من حيث كونها واقعة تاريخية، لم يكن، كما قد يتوهم البعض، خارجا عن دائرة تصورات دو سوسير اللسانية، وإن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة نفسه يطلعنا على هذا الجانب النظري الذي يحتفي بالوقائع اللسانية التي تتصف بالثبات لمدة زمنية طويلة دون أن يتسلّل إليها التغيّر ويطالها التحوّل.

لكن الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة تبدو أكثر وضوحا في هذا الشأن، فقد نقل رودلف أنغلر، في طبعته النقدية لكتاب المحاضرات، عن كراسات ليوبولد غوتيي، موقف دو سوسير من هذه المسألة: «تمييز ضروري: إن العموميات قد تكون بانكرونية « panchronique »، كالقول مثلا إن التحوّلات الصوتية قانون، ولكن ما إن ننتقل للحديث عن

[191] - Idem, p. 156-157.

الوقائع الوضعية، فإنه لا وجود لوقائع ثابتة في اللسان»[192]. إن البانكرونية مرادفة إذن، في الفكر السوسيري، للتعميم « généralisation »، أو مشتّقة عنه، لكن التعميم لا يقتصر عند دو سوسير على الجانب التاريخي الدياكروني من الوقائع اللسانية، خلافا للاعتقاد الذي رسّخه محررا كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل يشمل أيضا الجانب السنكروني الآني منها. ولقد استند بيتر وندرلي[193]، من أجل بيان طبيعة البعد البانكروني في الفكر السوسيري، إلى النص الذي دوّنه: «وثمة شيء آخر ذو أهمية كبرى: إذ إننا ما إن ننتهي من وضع هذه الفروق النظرية، يمكننا حينئذ إجراء التعميم في كلا التوجهّين من البحث، لأننا نجد أنفسنا، ونحن ندرس سلسلة من الأوضاع، إزاء أوضاع متشابهة. ويمكنني أن أجري التعميم على الوقائع في كلا المجالين، فكل مجال يمثل كلا متجانسا. ويمكننا بعد ذلك إحداث علم يعنى بالتنسيق بين الظواهر الملحوظة في الأوضاع اللسانية، وتصنيفها»[194].

ليست البانكرونية، في فكر دو سوسير، استغناء عن الفصل بين الآنية والدياكرونية، أو بديلا عنهما، بل هي مرحلة قد يُعبر إليها في كل منهما، نتيجة عملية التعميم التي ينتهي إليها الباحث. إن التمييز بين الآنية والتاريخية مطلب لا غنى عنه، ولقد عبر دو سوسير هذا الموقف في أكثر من مناسبة، وفي عدد كبير من النصوص، وإننا نكتفي ههنا بإيراد هذا النص فقد نقل عنه رودلف أنغلر في طبعته النقدية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، قوله: «إنه لمن الوهم السعي إلى الجمع بين النطين في وجهة نظر واحدة»[195].

---

192 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 1, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1968, p. 437.

193 - P. Wundeli, « F. de Saussure : Synchronie, diachronie, panchronie », dans Louis Hébert (dir.), Signo [en ligne], Rimouski Québec), http://www.signosemio.com/saussure/sychronie-diachronie.pdf.

194 - F. de Saussure, Troisième cours de linguistique générale (1910-1911) d'après les cahiers d'Emile Constantin, édité par E. Komatsu, Tokyo, Pergamon, 1993, p. 120.

195 - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 1, p. 190, III C 346.

التّداوليات المُدمجة وثنائيّة لسانيات اللّسان ولسانيات الكلام

سنكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى المناسبات، والمواطن من مؤلفاته، التي ألمح فيها أوزفالد ديكرو، مؤسس التداوليات المدمجة، إلى ضرورة الكفّ عن الفصل بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، دون أن نعنى بالاسترسال في تفسير هذا الموقف، والأسباب التي أدت بديكرو إلى اتخاذه، لأننا ننوي تخصيص كتاب مستقل للتداوليات المدمجة، نعرض لهذه المسألة بشيء من التفصيل.

التّداوليات المدمجة

تمثّل التداوليات المدمجة « pragmatique intégrée » أهم تطورات التداوليات في فرنسا خلال سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته، وهي تستمد جملة من مفاهيمها وتصوراتها عن لسانيات التلفظ التي أسهم إيـميل بنفنست في تـحديد أطرها العامة وتجسدت بكل وضوح في أعمال أنتوان كيليولي. وتستمد التداوليات المدمجة اسمها من عملية إدراج التداوليات ضمن حقل اللسانيات، وليس يخفى على أحد ما لهذا الإدماج من نتائج على البعد التداولي الذي طالما نشأ وتطور بمعزل عن اللسانيات.

ولقد تزامنت، في الخمسينيات من القرن الماضي، نشأة التداوليات، بمعناها الحديث لدى الغرب، مع ظهور أنـموذج جديد فـي عدد من العلوم الـحديثة عرف بالأنموذج المعرفي « paradigme cognitif »، إذ لم يمر عام على إلقاء جون أوستين (سنة 1955)، لمحاضراته فـي فلسفة اللغة، التي عدت

فيما بعد، المعين الذي اغترفت منه التداوليات اللسانية أهم أدواتها الإجرائية، حتى شهدت الساحة الفكرية الأمريكية ظهور أولى مقالات شومسكي، وميلر، ونيوال وسيمون، ومينسكي، التي حددت أبرز ملامح الـمشروع الـمعرفي الذي ما انفكت تنتسب إليه، وتتبناه، علوم من مثل علم النفس، واللسانيات، وفلسفة العقل، والذكاء الاصطناعي، والعلوم الذهنية « neurosciences ». ولئن برز الطابع المعرفي للتداوليات بشكل جلي، أوّل الأمر، فـي بعض كتابات الباحثين الأنجلوسكسونيين من مثل بول غرايس وجون سيرل، فإن التداوليات التي تطورت فـي حقل اللسانيات، خاصة فـي فرنسا، ظلت فـي منأى عن تحولات العلوم الـمعرفية، واجتهدت، فـي دراستها لأفعال الكلام وما اشتملت عليه من تطبيقات، فـي تجاهل الآليات الاستدلالية « inférentiels » التي تمثل دراستها إحدى أهم ميادين البحث فـي التداوليات المعرفية.

وتختلف التداوليات المدمجة عن التداوليات ذات النزعة المعرفية من نواح شتى، ففضلا عن استلهامها من لسانيات التلفظ وتبنيها لآراء فلسفة اللغة العادية وتوجهاتها، لاسيما نظرية أفعال الكلام، أسهمت التداوليات المدمجة في تجديد كثير من المسائل ذات الصلة بالبلاغة. كما أحدث إدراج التداوليات كمادة فرعية ضمن اللسانيات، إلى جانب فروعها الأخرى، الصوتيات، والتركيبيات، والدلاليات، تحولا بليغا في ميدان الدراسات اللسانية، لاسيما الدلالية منها، فقد اغتنت هذه الأخيرة، واكتسبت قاعدة علمية إضافية تـمكنها من وصف الملفوظات وتأويلها. ولقد كان ذلك مدعاة للتداوليات المدمجة في تقديم تفسير مخالف لعدد من المسائل التداولية، ومنها- على سبيل المثال لا الحصر – مسألة التضمين.

لقد قادت النقود التي وجهت إلى التصور البنوي للألسن إلى إعادة النظر في طبيعة الملفوظات التي تتناقلها، فهذه الأخيرة ليست في كل أحوالها ملفوظات صريحة، كما إن المتلفظ ليس في كل أحواله خليقا بأن يعبر عن أفكاره تعبيرا صريحا فيلتزم بمسؤوليته عنها، بل إن من الكلام ما لا يمكن التعبير عنه، بالنظر إلى العلاقات الاجتماعية التي تنعقد بين الأفراد إلا بصفة ضمنية « implicite ». لقد تنبهت التداوليات المدمجة[196] إلى مثل هذه

---

[196] – أوّل ما ينظر من مؤلفات أوزفالد ديكرو كتابه:

الملفوظات وسعت إلى وصفها، لكنها اجتهدت أوّل الأمر في التنبيه على كثرة تداولها بين الناس.

إنّ الظّروف الاجتماعية التي تكتنف المتحاورين، والعادات الكلامية التي يحتكمون إليها في كثير من المواطن، وكثرة الموضوعات التي لا يتيسر الإفصاح عنها في كل المقامات، والأحاسيس والمشاعر التي يتعين كتمانها، والوقائع التي لا يمكن الإخبار بها، والمعلومات التي لا يتعين إفشاؤها، والحقائق التي لا يمكن الإدلاء بها خشية الوقوع في الكبر، أو التعريض للإهانة أو التجريح، كل ذلك يسوق المتحاورين إلى تفادي التصريح، واللجوء إلى التلميح، والكناية، والإخفاء، والإضمار والستر. ثم إن التعبير عن الأفكار يعرض المتلفظين بها، في كثير من الأحيان كذلك، إلى المعارضة، والنقد، والجزر، والتوبيخ، بله الاضطهاد والقهر والظلم، لأجل ذلك يلجأ الأفراد، لاعتبارات أيديولوجية، أو فكرية، أو حزبية، أو لمقتضيات نفسية كالحياء، أو الخجل، أو الخوف، إلى اعتماد الأسلوب الضمني.

إن المتأمل في عدد من مخطوطات دو سوسير، إذا ما تمثلها في ضوء تصورات التداوليات المدمجة اللسانية سيشعر ببعض الألفة القائمة بينهما، وهذه الألفة، منشأها الرئيس، في نظرنا، الامتناع عن الفصل بين دراسة اللسان ودراسة الكلام، والانصراف عن تخلي اللسانيات عن هذا الأخير. لقد تخلّفت اللسانيات الأوروبية، كما هو معلوم، لمدى عقود متوالية، عن النظر في الكلام، بحجة التفرغ لدراسة النسق اللساني امتثالا للمقولة التي اختتم بها شارل بالي وألبير سشهاي كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة: «إن الموضوع الوحيد والحقيقي للسانيات هو اللسان « langue »، في ذاته ولذاته»[197].

وليس لنا – في هذا المقام – أن نعيد القول في مدى صحة انتساب مضامين كتاب المحاضرات لدو سوسير، فقد بات معلوما أن المصادر التي استقى منها ناشرا كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لم تكن مصادر تتصل مباشرة بشخص دو سوسير إذ لم يتوفر لهما آنذاك من مسوداته إلا النزر القليل، فقد كان يُعتقد أن دو سوسير غالبا ما كان يمزق تباعا كل المسودات

- O. Ducrot, Dire et ne pas dire. Principes de sémantique linguistique, Paris, Harmann, 2e éd., 1980 (1e éd., 1972), pp. 5-6.

[197] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique établie par T. de Mauro, Paris, Payot & Rivages, 1995, p. 317.

التي كان يحضر بها دروسه على طول السنة الجامعية، لذلك لم يكن بيدهما حيلة آنذاك سوى اللجوء إلى ما نقله طلبته، وتناقلوه، عنه. ولقد تبين من بعد ما علم الباحثون المحدثون بما تركه دو سوسير من مخطوطات أودعتها عائلته بمكتبتي جامعتي جنيف وهارفارد أن الحجة التي استندا إليها حجة واهية. لكن الاعتقاد في ضرورة الاكتفاء بدراسة اللسان وإرجاء دراسة الكلام كان قد توطد في أدبيات اللسانيات البنيوية حتى أصبح مسلمة لا يجب الحياد عنها، فقد كتب شارل بالي إلى لويس يمسليف يوما يصف منهجه اللساني بقوله له: «إنك تواصل بكل ثبات ما أوجزه دو سوسير في الجملة الأخيرة من كتابه»[198].

ولئن كانت التداوليات الفرنسية سارعت، على إثر تلقيها لنظرية أفعال الكلام الأنجلوسكسونية، إلى إعادة النظر في كثير من مسلمات اللسانيات البنيوية، فإن ضرورة الكف عن الفصل بين دراسة اللسان ودراسة الكلام باتت، في جملة من كتابات أوزفالد ديكرو، ضرورة ملحة، وتجسدت، في مواطن مختلفة من هذه الكتابات، بوسائل مختلفة، على حسب المناسبات العلمية التي استدعت ذلك. وإننا، حتى لا نمزج بين ما فهمناه من لسانيات دو سوسير الجديدة بما توفر لنا من البحوث التي تناولتها بالنظر والتمحيص، وبين تصورات ديكرو التداولية، فإننا نحبذ تتبع آرائه في هذا الشأن بحسب المناسبات العلمية هذه، فنصف ما انطوت عليه هذه الكتابات من قرارات.

ولعل أهم هذه المناسبات، في نظرنا، هو مناسبة ترجمة كتاب جون سيرل، «أفعال الكلام. بحث في فلسفة اللغة»[199]، سنة 1972، إلى اللسان الفرنسي، فقد خص ديكرو الترجمة هذه بتقديم « préface »، فيه اجتهد في تجاوز الفصل بين اللسان والكلام مستندا إلى نظرية أفعال الكلام الأوستينية. وليس علينا أن نذكّر، إذ هو بادٍ ومعلوم، بأن النقود التي وجهها ديكرو إلى ثنائية اللسان والكلام إنما هي نقود تستند إلى قراءته لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وأن السبعينيات من القرن الماضي إنما تمثل مرحلة من مراحل تلقي الفكر السوسيري لم تزل فيه سطوة كتاب المحاضرات قوية، ولم تكف مقررات تعليم اللسانيات في شتى جامعات العالم عن توارث الثنائيات

[198] - L. Hjelmslev, « l'analyse structurale du langage. (1948) », tr. J.-F. Brunaud, in Essais linguistiques, Paris, Minuit, 1971, p. 40.

[199] - J. R. Searle, Les actes de langage. Essai de philosophie du langage, tr. H. Pauchard, préface de O. Ducrot, Paris, Hermann, 1972.

التي أسست لها، على الرغم من نشر الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من قبل روبار غودال، سنة 1957، ونشر الطبعة النقدية للكتاب ذاته من قبل رودلف أنغلر، سنة 1968.

نظرية ديكرو الدلالية واللسانيات الموحّدة

برزت فكرة الكفّ عن الفصل بين لسانيات اللسانيات ولسانيات الكلام في أدبيات التداوليات المدمجة أوّل الأمر سنة 1972، بمناسبة نشر أوّل مؤلفات أوزفالد ديكرو[200]، وعلى الرغم من التحولات التي شهدتها النظرية الدلالية التي تمخض عنها هذا الكتاب، نتيجة عدد من النقود التي وجهت لها من قبل إيبال وفيالا سنة 1974[201]، وأنري سنة 1977[202]، إلا أن الفكرة تمكّنت، وازدادت تأصيلا في كتابات ديكرو اللاحقة، وإلى هذا التمكن أشار سنة 1978 قائلا: «على الرغم من التصويبات، والتحولات، والتطورات التي لحقت بالنظرية الدلالية التي عرضناها في كتابنا « Dire et ne pas dire »، فإن ثمة فكرةً بقيت ثابتة، وهي الفكرة التي أوّد إعادة صياغتها ههنا قبل أن أعرضها على جملة من الملاحظات والتأملات التي تتعلق بأفعال الكلام. إن الوصف الدلالي للسان ما، بوصف هذا الأخير مجموعة من الجمل أو الملفوظات، لا يمكن إتمامه، بل لا يمكن البدء فيه بصفة منتظمة ما لم يقف منذ البداية على عدد من مظاهر النشاط اللساني المحقق من قبل هذا اللسان. ولو أردنا التعبير عن هذه الأطروحة باستعمال مصطلحات دو سوسير التقليدية، لجاز لنا القول، مثلا، أن لسانياتٍ للسان ستبقى مستحيلة إن لم تكن أيضا لسانياتٍ للكلام»[203].

لكن تمثل مثل هذه الأطروحة لا يستوي دون النظر في مفهومي اللسان والكلام من خلال، أوّلا، مختلف توارداتهما في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي نشره شارل بالي وألبير سشهاي، سنة 1916، استنادا

---

[200] - O. Ducrot, Dire et ne pas dire. Principes de sémantique linguistique, Paris, Hermann, 1972.

[201] - M. Ebel et M. Fiala, « Présupposition et théorie du discours », Cahiers Vilfredo Pareto, n° 32, 1974, pp. 115-136.

[202] - P. Henry, Le mauvais outil, Paris, Klincksieck, 1977.

[203] - O. Ducrot, « Structuralisme, énonciation et sémantique », Poétique, n° 33, 1978, repris dans Le dire et le dit, Paris, Minuit, 1984, p. 67.

إلى عدد من كراسات طلبة دو سوسير، ومقابلتهما، ثانيا، بالمفهومين اللذين تنطويا عليهما في مخطوطات دو سوسير الأصيلة التي ألمحنا إليها سالفا. وإنا يجب أن نقف قبل المضي في أشياء أخرى عند صفة التنكير التي لجأ إليها ديكرو في عبارتي لسانياتٍ للسان ولسانياتٍ للكلام، لـما لـها من صفة الإطلاق التي تطال كل المحاولات اللسانية التي تروم وصف لسان من الألسن. ولو أردنا، في نظرنا، التحقق من هذه الأطروحة باختبارها على اللسان العربي، لجاز لنا القول بأن محاولة دراسة بنياته الصوتية والصرفية والتركيبية لن تتحقق ما لـم تجتهد بادي الأمر في وصف مختلف الاستعمالات التي أبدعها الناطق العربي، قديما وحديثا.

دلالتي ثنائية اللسان والكلام حسب ديكرو

إنّ الظاهر من أوزفالد ديكرو أن ثنائية اللسان والكلام تنطوي، في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، على دلالتين اثنتين، فهي من جهة في إحدى تواردداتها ثنائية منهجية، وفي الأخريات ثنائية مادية. أما دلالتها المنهجية فهي تستقيها من التمييز التقليدي بين الموضوع الذي يصوغه الباحث والمعطى الذي من شأنه تفسير هذا الموضوع، وأما دلالتها المادية فهي تستقيها من دائرة المعطى فتحدد بها منطقتين من قبيل التمييز بين المقطوعة الموسيقية وعزفها، فكلاهما، المقطوعة وعزفها، شيئين ماديين يمكن ملاحظتهما مباشرة[204]، وهو الأمر الذي سنتولى التحقق منه بالرجوع إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في الفقرات التاليات، ثم نتتبع تفسير ديكرو لها، ونعارضها بما استجد في مخطوطات دو سوسير الأصيلة.

ويجب أن نقر حقيقة، قبل المضي في تتبع دلالات ثنائية اللسان والكلام في الفكر السوسيري، وهي حقيقة وقفنا عندها بشيء من التفصيل في واحد من كتبنا[205]، يجب أن نقر، كما أقر الباحثون المحدثون من لدن روبار غودال الذي عرف الناس بالأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة سنة 1957 إلى سيمون بوكي الذي أعاد قراءة كتاب المحاضرات في ضوء هذه

[204] - Idem, p. 68.

[205] – مختار زواوي، دو سوسير من جديد. مدخل إلى اللسانيات، بيروت، دار الروافد ناشرون، 2018.

الأصول[206]، سنة 1997، بأن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ليس من وضع دو سوسير، بل هو في حقيقة أمره كتاب جامع، مركِب، لمجموعة من كراسات طلبة دو سوسير، اجتهد في تأليفه شارل بالي وألبير سشهاي، بالتعاون مع ألبير رايدلنغر، فما استطاعا أن يعبرا تعبيرا سديدا عن كل ما أودعه دو سوسير، في دروسه التي ألقاها على مدى السنوات الجامعية الثلاث، أي (1906-1907)، (1908-1909) و(1910-1911)، من أفكار وتصورات، بل أضافا إليها أشياء ليست لدو سوسير، إذ لم تقتصر اجتهاداتهما على إعادة ترتيب محتوى المحاضرات ترتيبا لا يتناسب مع تطور فكر دو سوسير اللساني، لا يفي طبيعة تحول تفكيره من مسألة إلى أخرى ولا يعي حقيقة تناوله للمسائل نفسها من وجهات نظر مختلفة، بل أكثرا من الزيادات، وبالغا في الاختزالات، وأفرطا في استعمال المصطلحات. ولئن كانت الغاية من هذا الترتيب التخلص من مواطن الإسهاب والإطناب التي كان دو سوسير يسترسل فيها للتعبير عن المسائل اللسانية تعبيرا دقيقا يستنفد كل دقائقها، فإن هذا الترتيب أربك كل ذي بصيرة بفكر دو سوسير اللساني.

لكن أخطر اجتهاد لشارل بالي وألبير سشهاي هو اختزال فكر دو سوسير اللساني في لسانيات اللسان، بل إن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي وضعاه، ونسباه إلى دو سوسير، قوامه هذا الاختزال: «إن اللسان هو الموضوع الحقيقي والوحيد للسانيات»، فليس بعد هذا الإخلال إخلال، وإنما كل ما أخفقا فيه تبع له، ونتيجة حتمية ناجمة عنه. صحيح أن دو سوسير تكشّفت له ضرورة التمييز بين اللسان والكلام حتى أضحى أمرا بديهيا، مثلما أسر بذلك إلى ليوبلد غوتيي، وهو تمييز كانت الغاية منه استخلاص المسائل اللسانية من كل ما هو فيزيولوجي[207]، فلا يبقى إلا ما هو نفسي، لكن التمادي في إخراج الكلام من دائرة اللسانيات كان عملا لا يستند إلى أي إقرار صريح من لدن دو سوسير، بل إن النصوص التي ما انفك الباحثون يستكشفونها تعبر عن عكس ذلك. وليس من اليسير استخلاص تصور دو سوسير الأصيل لمفهوم اللسان « langue »، إذ إن الأمر يستدعي الاطلاع على كل ما كتب دو سوسير في هذا الشأن، وهو ما ليس متوفرا فكثير مما كتب لا يزال حبيس مكتبتي

---

[206] - S. Bouquet, Introduction à la lecture de Saussure, paris, Payot, 1997.

[207] - L. Gautier, « Entretien avec M. De Saussure, 6 Mai 1911 », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 58, 2005, p. 70.

جامعتي جنيف وهارفارد، ولا يمثل ما حُقق منه ونُشر إلا جزءا يسيرا. وليس لنا، والحال هذه، سوى السعي إلى الاجتهاد فيما توفر لنا مـما نشره روبار غودال من الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ومـما حققه ونشره سيمون بوكي ورودلف آنغلر، سنة 2002، من كتابات[208].

208 - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, Texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002.

عبد الرّحمن الحاج صالح وثنائية
اللسان والكلام السوسيرية

يندرج هذا المقال ضمن مجموعة من البحوث القصار التي نسعى بها إلى التأسيس لمشروع نظرية عربية جديدة، ولقد باتت - الآن - الأسس النظرية العامة التي نروم الاستفادة منها من أجل البحث، في أدبيات لسانياتنا العربية، عن معالم لنظرية لسانية عربية أسسا جلية، فقد استنفذنا، في بحوثنا السابقة، أهم مكوّنات هذه النظرية العامة. وهي نظرية تقوم - في اعتقادنا - على مبدأين: أما مبدأها الأوّل فتمييزها بين اللسان والكلام، وأما مبدأها الثاني فعدم الفصل بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام. ولقد كنا نأمل، ونحن نعدّ لهذه الدراسة، أن نجد في لسانياتنا العربية، قديمها أو حديثها، ملامح وعيٍ بثنائية اللسان والكلام. ولقد كان هذا الأمل معلّق بذكرى قراءةٍ قديمةٍ لمقدّمة ابن خلدون (ت. 808 هـ)، وإننا ما إن عدنا إلى النص حتى ألفينا الثنائية قائمة فيه. يقول ابن خلدون في الفصل الخامس والأربعين من مقدمته، في علوم اللسان العربي: «أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسنّة وهي بلغة العرب، ونقَلتُها من الصحابة والتابعين عربٌ وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة. وتتفاوت في التأكُّد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام»[209]. ولسنا ننزل هذا النص منزلة الوثيقة الرسمية التي يُستدلّ بها على وعي فكري نظري ومؤسِّس، بل يكفي أن نحصّل منه على أمرين: فأوّلهما إدراك ابن خلدون لثنائية اللسان (أو اللغة) والكلام، وأما ثانيهما، فإدراكه - أيضا - لعلاقة قائمة بين علوم اللسان والكلام، وهي تفاوتها في التوفيق بمقصود الكلام، أي بالمعنى.

---

[209]- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح. خليل شحادة، مر. سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 2001، ص. 753.

ولقد أدرك الباحثون العرب المحدثون هذه الحقيقة، واستقرّوا إلى الرأي بما استقرئوا من النصوص بأن لغويينا القدامى كانوا مدركين لهذه الثنائية، فقد انتهى عبد الرحمن الحاج صالح إلى القول بأن المقابلة التي أسس لها النحويون القدامى بين اللغة (اللسان) واستعمالها (أي الكلام) والتي اشتهرت عندهم بثنائية الوضع والاستعمال أعمق وأوسع بكثير من المقابلة التي أسس لها دو سوسير بين اللسان والكلام، بل إن عبد السلام المسدي يذهب إلى القول بأنهم كانوا مدركين لمراتب الظاهرة اللغوية الثلاث، وهي التي عبّر عنها دو سوسير بمصطلحات « langage »، و« langue » و« parole »، واستقر إلى الرأي بأن الفكر اللغوي العربي تدرّج من الكلام، إلى اللسان، إلى اللغة، إلا أنه عبّر عن المصطلح السوسيري الأوّل بالكلام، وعن الثاني باللغة وعن الثالث بالعبارة، فكتب يقول: لقد «فكّر أعلامها في اللغة العربية فاستنبطوا منظومتها الكلية وحدّدوا فروع درستها بتصنيفٍ لعلوم اللغة وتبويبٍ لمحاور كل منها، فكان من ذلك جميعا تراثها اللغوي في النحو والصرف والأصوات البلاغة والعروض... ولكنّهم تطرّقوا إلى التفكير في الكلام من حيث هو كلام، أي في الظاهرة اللغوية كونيا. ولئن ورد ذلك جزئيا في منعطفات علوم اللغة العربية وخاصة عندما فلسفوا منشأ نظامها وقواعدها فوضعوا علم أصول النحو، فإنهم دوّنوا ذلك خصوصا في جداول تراثهم الآخر غير اللغوي أساسا. وما خلّفوه لنا في هذا المضمار يكشف لنا بجلاء أنهم ترقّوا في بحوثهم اللغوية من مستوى العبارة وهو مستوى اللغة مجسدة في أنماط من الكلام قيلت فعلا إلى مستوى اللغة وهي في مقامهم اللغة العربية، إلى مستوى الكلام أي الحدث اللساني المطلق من حيث كونه ظاهرة بشرية عامة»[210].

ولئن كان عبد الرحمن الحاج صالح وعبد السلام المسدي أدركا أهمية تمييز دو سوسير بين اللسان والكلام، وراحا يبحثان له عن وجود فعلي في أدبيات اللسانيات العربية القديمة، ويبررّان وعي لغويينا القدامى به، فإن الباحثين المحدثين العرب الآخرين أقروا هم أيضا بالقيمة النظرية للثنائية السوسيرية فصدّروا بها مؤلفاتهم التي وضعوا في اللسانيات العامة، لكنّهم اقتصروا على التوكيد عليها دون الاجتهاد في البحث عن تصور مماثل لها في

---

[210]- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1986، ص. 24.

قديم ما كتب العرب عن لسانهم. والظاهر أنهم اختلفوا في تمثل هذه الثنائية كما اختلفوا في وضع المصطلحات العربية المكافئة لها.

وإننا سنقتصر من مؤلفات هؤلاء على المؤلَّفيْن اللذين صدرا، في العام نفسه، 1998، لكل من مصطفى حركات ومحمود فهمي حجازي. أما الأوّل، فقد افتتح الفصل الأوّل من كتابه، اللسانيات العامة وقضايا العربية، بالتعريف بهذه الثنائية، فكتب يقول: «هناك مفهوم واسع للغة ومفهوم ضيق. فالمفهوم الواسع ينطبق على نظام من الإشارات وظيفته الأساسية التواصل، فتقول لغة إشارات المرور، لغة الزهور، ولغة القوة إلخ، وتترجم لغة هنا في الفرنسية ب (langage). أما المعنى الضيق فهو الذي نستعمل لما نتكلم عن لسن قوم ما، فنقول: اللغة العربية، واللغة السويدية، واللغة الألمانية، ومقابله الفرنسي هو (langue). وبين المعنى الواسع والضيق يشير اللسانيون إلى القدرة الخاصة بالبشر للتواصل بواسطة الأصوات وهو ما يسمونه باللسان البشري، ولكنهم يتناسون في جل الأحيان النعت ويستعلمون فقط كلمة (langage) للدلالة على المفهوم المجرد للغة»[211]. وأما محمود فهمي حجازي، فقد كتب يقول: «لقد ميّز اللغوي السويسري دي سوسير بين ثلاثة مصطلحات أساسية في نظرية اللغة، وهي مصطلحات « langue » ويعني اللغة الواحدة مثل اللغة العربية أو اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية إلى آخره، و« parole » وتعني الكلام أو الاستخدام الفردي للغة الواحدة عند الفرد، و« langage » القدرة اللغوية عند الإنسان بصفة عامة. ولهذا التمييز أهمية في البحث اللغوي المعاصر، فالبحث اللغوي يتجاوز الاستخدام الفردي للغة إلى ظاهرة اللغة في أبعادها العامة المشتركة عند أفراد الجماعة اللغوية، فالإنسان الواحد مهما أوتي من المهارة اللغوية والقدرة اللسانية والتنويع في أسلوب الكتابة لا يستخدم كل المعجم الذي تعرفه لغته ولا يفيد من كل إمكانات البنية اللغوية المتاحة له عندما يتحدث أو يكتب اللغة»[212].

ولقد كنا نظرنا في عدد من المؤلفات الأخرى التي أشار إليها أصحابها إلى أهمية صنيع دو سوسير، بتمييزه بين اللسان والكلام، في الدرس اللساني

---

[211]– مصطفى حركات، اللسانيات العامة وقضايا العربية، بيروت، الكتب العصرية، الطبعة الأولى، 1998، ص. 7.

[212] – محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ص. 12.

الحديث، فلم نجدهم على قدر واحد في التفصيل في هذه الثنائية، والبحث في ملامح وعيٍ للفكر العربي القديم بها، على نحو ما ألفيناه عند ابن خلدون، وما قد نلفيه عند من سبقه من النحاة واللغويين، ولم نجدهم في مؤلّفتاهم التي نظرنا فيها سوى مجتهدين في رصّ المعارف اللسانية الغربية إلى جانب المعارف اللسانية العربية ليس إلا، باستثناء عدد منهم، كما هو شأن عبد الرحمن الحاج صالح عندما راح يقارن بين ثنائية اللسان والكلام السوسيرية وثنائية الوضع واستعمال العربية فانتهي إلى القول بأن النظرية العربية أعمق وأوسع بكثير من نظرية سوسير. ولقد كنا نرجو أن يصلح لنا تصوره ليكون منطلقا للنظرية التي نروم، لاسيما وقد زعم أن التمييز بين اللغة واستعمالها من قبل النحاة العرب يعد أساس النظرية اللسانية التي بنيت عليها علوم العربية. لكننا سرعان ما أدركنا أن هذه الثنائية العربية التي بنى عليها عبد الرحمن الحاج صالح كل أبواب كتاب الخطاب والتخاطب لا تصلح للتعبير عن ثنائية اللسان والكلام، ولا تمكننا من تحقيق الغاية التي نصبو إليها، وهي تصنيف علوم العربية وهي الاجتهاد في توحيدها.

ولئن كنا لا نجد في المقارنة التي عقدها الحاج صالح بين الثنائية العربية والثنائية السوسيرية ما يعيننا في مسعانا، فإننا في المقابل من ذلك نُعنى كثيرا بالإشارة التي ألمح بها إلى أهمية مفهوم الموضع (أو الموقع حسب الاصطلاح السوسيري الجديد « position ») في التركيبيات العربية، إذ كتب يقول، في سياق تعريفه بأحد طرفي الثنائية التي أسس لها، وهو الوضع: «ولهذه الكلمة ومشتقاتها معنى آخر، لا جعل اللفظ المعين لمعنى، بل جعل الكلام على صورة معينة وتركيب معين، وهو من معاني وضع أيضا كما سنراه. وذلك في قوله: "لأنك إنما تسألهم على ما وضع عليه المتكلم كلامه". فهذا ما يأتي في الحدود النحوية فهو الوضع النحوي، أي التركيب الذي اختاره المتكلم بالنسبة لكلامه بناء على غرض له. ولهذا المفهوم الآخر أهمية كبيرة جدا، وللوضع بهذا المعنى مشتقات تقوم بدور عظيم في النحو العربي ولاسيما في زمان سيبويه ومنها كلمة موضع وسنرى أن الجانب التركيبي للغة عند العرب كلّه مبني على الوضع»[213].

---

[213]- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب، ص. 23.

إن إشارة الحاج صالح إلى الوضع النحوي (أو الموقع التركيبي « position syntaxique » بتعبير سيمون بوكي) إشارة مهمة جدا، لاسيما وأنها تنسجم كل الانسجام مع التصور السوسيري الأصيل الذي يُنزل الفرد المتكلم منزلته الطبيعية من النظرية اللسانية، من خلال التوكيد على أن الوضع النحوي، أي التركيب، هو من اختيار المتكلم، وأنه يختاره بناء على غرض له. لأجل ذلك، سنخصص الفصل الأوّل من هذا الباب للنظر في جدوى المقارنة التي عقدها عبد الرحمن الحاج صالح بين ثنائية الوضع واستعمال العربية وثنائية اللسان والكلام السوسيرية، ونرجئ الحديث عن مفهوم الموضع (أو الموقع التركيبي) عندما نأتي إلى تصنيف علامات اللسان العربي وكلامه، وعندما نأتي إلى أهمية مسألة الأجناس الأدبية، المتصلة بمسألة اختيار المتكلم لتركيب معين بناء على غرض له.

لكن الوعي في الثقافة اللسانية العربية بمقابلةٍ بين اللسان والكلام لا يعني بالضرورة إنزال هذه المقابلة منزلة الثنائية النظرية التي يستفاد منها للنظر في جملة من المسائل، إذ إن فعل ذلك يقتضي التمييز بين المسائل المرتبطة باللسان والمعارف المتصلة به، وبين المسائل المرتبطة بالكلام والمعارف المتصلة به، كالقول مثلا إن اللسان نسق من العلامات وهو من هذه الناحة خليق بأن يدرس دراسة سيميائية، وكالقول إن الكلام هو الاستعمال الفردي لنسق العلامات اللسانية وهو خليق من هذه الناحية بأن يدرس دراسة تركيبية أو أسلوبية. ولأن الباحثون المحدثون كانوا مدركين للأهمية النظرية لثنائية اللسان والكلام السوسيرية، فإننا سنخصص هذا التمهيد للنظر في تمثل عدد من هؤلاء الباحثين لهذه الثنائية، وسعي بعضهم للتعرّف على ثنائية شبيهة بها في تراثنا اللغوي.

ثنائية اللسان والكلام من منظور عبد الرحمن الحاج صالح

وجد عبد الرحمن الحاج صالح أصولا نظرية في النحو العربي تؤسس لثنائية شبيهة بالثنائية التي أسس لها دو سوسير، وهي ثنائية اللسان والكلام التي خصصنا لها البابين السابقين، فكتب يقول منذ الصفحات الأولى من كتابه «الخطاب والتخاطب»، الصادر عام 2012، قائلا: «إن هذا الاحتياج الشديد الذي تتصف به البلاغة، وعلم المعاني خاصة، إلى مفاهيم النحو يقابله

الفارق الصارم القائم بينهما في الهدف وهو عدم اهتمام البلاغة بالصيغ كصيغ. فاختيار المتكلم لبعضها وتركه لبعضها في كل حالة خطابية لغرض معيّن هو الذي يهم البلاغيين. واتحاد النحو والبلاغة في الاهتمام بالتراكيب، وخاصة في تنوعها بالنسبة للمعنى الواحد، قد أثبته النحويون في إطار مقابلتهم بين اللغة والكلام أي بين اللغة واستعمالها، وهي أساس نظريتهم اللسانية التي بُنيت عليها علوم العربية. فهي من وضع النحاة الأولين مثل الخليل وسيبويه. واشتهرت هذه المقابلة بعدهم باصطلاح خاص هو الوضع والاستعمال وذلك ابتداء من الزجاجي في القرن الرابع. ولئن كان هذا هو الأساس الذي بنى عليه دي سوسير مقابلته بين langue وparole فإن النظرية العربية هي أعمق وأوسع بكثير من نظرية العالم السويسري كما سنراه أيضا»[214].

ولقد كنا عند قراءتنا لهذا النص ابتهجنا ابتهاجا، لاسيما وقد وجدناه يقر بأن اللغويين العرب أسسوا نظريتهم اللسانية التي بنيت عليها علوم العربية في إطار التمييز بين اللسان (اللغة) واستعمالها، أي الكلام. ولقد كدنا ننصرف إلى أعمال أخرى، وإلى كل الاستنتاجات التي نطمح إلى التحقق منها لولا أننا رحنا نتحرى مصطلح الوضع الذي استند إليه في هذه المقابلة ودلالته التي استعان بها في هذا الكتاب، من أجل الزعم بأن النظرية العربية أعمق وأوسع بكثير من نظرية العالم السويسري. وليس لنا بأن نتحرى سلامة هذا الاعتقاد الذي ينبني على طرف واحد من المفاضلة المقارِنة، إذ يقتصر الحاج صالح من فكر دو سوسير على كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في طبعته الخامسة الصادرة عام 1955، على الرغم من أن تحريره لكتابه (2012) متأخر بأكثر من عقود أربعة على صدور الطبعتين النقديتين لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة اللتين أخرجهما تيليو دو مورو (1967) ورودلف أنغلر (1968)، ومتأخر بعقد كامل على صدور كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة (2002).

وليس ضمن مجموع المؤلفات الغربية التي استعان بها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح ما يوحي بعلمه بما حُقّق من مخطوطات دو سوسير ونشر، فقد اكتفى ببحوث من أحال إليهم من السوسيريين القدامى كإيميل

[214]- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب. في نظرية الوضع والاستعمال العربية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2012، صص. 11-12.

بنفنست، ولويس بريبطو، وأنطوان كيليولي، ومن السوسيريين الجدد كفرانسوا راستيي، بما أُلّف خارج دائرة السوسيرية الجديدة، على الرغم من أنه ألمح إلى مخطوطات دو سوسير إذ كتب يقول: «وأهم فرق يوجد بين سوسير والعلماء العرب يكمن في الرؤية إلى الأساس الذي بني عليه وضع اللغة. فالنظرية السوسيرية تؤكد على الجانب التبايني لأدلة اللغة كما قلنا، وألحّ دو سوسير على ذلك بحيث وصل إلى أن يقول: "لا توجد في اللغة إلا الاختلافات" على أن ما جاء به دو سوسير وما وصل إلينا مما تركه مخطوطا يدلّ على اهتمامه بالجوانب الأخرى. ثم إن مقياس التباين بالصفات الذاتية يصلح وخاصة، كما مرّ بنا، لنظام الأصوات وهذا سر نجاح الفونولوجيا فيما أنتجه أتباع دو سوسير وحلقة براغ»[215]. فلا نعلم إلى ما رام إليه الحاج صالح مما وصله مما ترك دو سوسير من مخطوط.

إن القول بأن ثنائية اللسان والكلام التي أسس لها دو سوسير تستند عنده إلى ثنائية الوضع والاستعمال يحتاج إلى تحقيق وتدقيق، ومن حظنا أن الأستاذ الحاج صالح أفرد صفحات من الفصل الأوّل من الباب السادس من الكتاب لتعريفنا بقراءته للسانيات دو سوسير، فقد أودع فيها جملة من المسائل المتصلة بالثنائية، كمفهوم اللسان، والكلام، والعلامة، والوضع، والإحالة، والمحور التركيبي، والمحور الاستبدالي، والقياس، والجملة، والبنية[216]، وهي كلّها مفاهيم نسبها عبد الرحمن الحاج صالح إلى دو سوسير من طريق كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة. وإن مما لا شك فيك أن الأستاذ الحاج صالح كان مجيدا للسان الفرنسي ومحيطا بالمسائل المتصلة باللسانيات العامة، فقد نال عن رسالته الفرنسية، « Linguistique arabe et linguistique générale »، درجة الدكتوراه في اللسانيات، عام 1979، من جامعة السوربون، لكن الراجح عندنا أن عنايته باللسانيات العربية واجتهاده في تطوير ما اصطلح عليه بالنظرية الخليلية الحديثة حالا دون عنايته بالفكر السوسيري العناية المعمقة. لأجل ذلك، سنعيد النظر في المسائل اللسانية التي عالجها في هذا الفصل من كتابه السالف الذكر، لاسيما ما اتصل منها بثنائية الوضع والاستعمال العربية التي يرى أنها أعمق من ثنائية اللسان والكلام السوسيرية وأوسع.

---

[215]- المرجع السابق، ص. 202.

[216]- المرجع السابق، صص. 201-208.

مفهوم الوضع في اللسانيات العربية من منظور الحاج صالح

افتتح الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح الفصل الذي يعنينا بالقول: «إن وضع اللغة كما وصفناه يشبه إلى حد بعيد ما يسمّيه دي سوسير باللغة « langue » وهو يحدّدها بأنها نظام من الأدلة « système de signes » متواضع عليها في مجتمع »، وقال بصفة خاصة: « ... إن اللغة نظام تكون فيه جميع عناصره متضامنة (أي متوقفة، بعضها على بعض في الوجود) حيث تكون قيمة الواحد منها نتيجة تواجد العناصر الأخرى في نفس الوقت»[217]. ولا يمكننا أن نفهم حقيقة المقارنة التي يقيمها الحاج صالح بين مفهوم الوضع العربي ومفهوم اللسان السوسيري إلا إذا عدنا إلى الصفحات الأولى من الباب الأوّل التي وصف فيها مفهوم الوضع وراح يبحث في نشأته عند النحاة وعلوم الأصول. لكننا نودّ قبل ذلك أن نشير إلى أننا نستعمل مصطلح اللسان بدل مصطلح اللغة الذي يستعمله الحاج صالح، ومصطلح العلامة بدل مصطلح الدليل، ومصطلح النسق بدل مصطلح النظام، فاللسان، عندنا، وهي الترجمة التي نرتضيها لنصوص دو سوسير، نسقٌ من العلامات.

والظاهر عندنا أن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح لم يهتدي إلى الازدواج اللغوي الذي تتصف به لفظة الوضع، فقوله: «وضع اللغة» يحتمل معنيان، فأما المعنى الأوّل فهو المعنى الذي يندرج ضمن ثنائية الوضع اللساني/التحوّل اللساني، أو ثنائية الآنية والتاريخية السوسيرية، وأما المعنى الثاني فهو المعنى الذي يندرج ضمن ثنائية الإبداع والاحتذاء، وهو المعنى الذي يستخلص منه معنى آخر، الدال عليه مصطلح المواضعة. يقول الحاج صالح: «سبق أن قلنا بأن مفهوم الوضع الفلسفي الذي استعمله المتكلمون والفلاسفة يتضمن معنى الاتفاق (الضمني) بين أفراد الجامعة الناطقة بلغة من اللغات. ولا يوجد مثل هذا عند سيبويه إلا أن هذا التصور الفلسفي مع مفهوم الوضع يقتضيان معا، كما قلنا، معنى التأسيس على مستوى المجتمع ولمصلحته، لأن التأسيس هو معنى قديم في استعمال العرب للفظة الوضع، فقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عموان، 96]. وجاء المتكلمون والفلاسفة منذ

---

[217]- المرجع نفسه، ص. 201.

نهاية القرن الثالث فشيعوا لفظة المواضعة ولفظة تواضع للدلالة على هذا الاتفاق اللغوي الجماعي غير الشعوري وما يقوم مقامه على مستوى المجتمع مبررين بذلك التفاعل الذي يتصف به الوضع الجماعي. ولم يستعمل هذان اللفظان قبلهم في غالب الظن إلا أن مفهوم الوضع الجماعي (للانتفاع به) كانت تدل عليه لفظة الاصطلاح وقد استعملها الجاحظ في كتابه البيان (كما سبق أن قلنا) ولم يستعمل مشتقات وضع لهذا المدلول»[218].

وكان الحاج صالح قبل ذلك اجتهد في بيان تداول مفهوم الوضع في الثقافة اللسانية العربية بدءا بسيبويه، فكتب يقول: «إن لفظة الوضع كمصدر لفعل وضع/يضع قديمة في كلام العرب. ووردت في كتاب سيبويه بمعناها الأصلي في العربية إذ لم ترد كمصطلح من مصطلحات النحو إلا أن تطبيقها على ألفاظ العربية كان جاريا عند أقدم النحاة وهو المنطلق الحقيقي لتطورها وتخصصها على أيدي نحاة القرن الرابط كمصطلح لغوي معين»[219]، ثم قال بعد أن استدعى عددا من الأمثلة التي استعمل فيها سيبويه لفظة وضع: «كل هذا يبين أن سيبويه قد استعمل بالفعل، كما مر بنا، فعل "وضع" في الميدان اللغوي وجعل معناه الأصلي الذي هو "تخصيص الشيء للشيء" ينطبق على تخصيص اللفظ لمعنى»[220].

لقد اجتهد الأستاذ الحاج صالح في التقريب بين ثنائية (الوضع والاستعمال) العربية وثنائية (اللسان والكلام) السوسيرية، إذ كتب يقول: «إن وضع اللغة كما وصفناه يشبه إلى حد بعيد ما يسمّيه دي سوسير باللغة (langue)»، لكنه وقع – في اعتقادنا – في شراك الازدواج اللغوي الذي ألمحنا إليه، والظاهر عندنا أنه لم يُميّز بين مفهوم الوضع « état de langue » الذي هو حالة لسان ما، أي وضعه القائم في مكان وزمان معلومين، ومفهوم الوضع الذي هو الابتكار الذي يؤول إلى المواضعة، فأما المفهوم الأوّل فهو مفهوم مرتبط باللسان من حيث هو نسق من العلامات قائم في مكان وزمان معلومين، وأما المفهوم الثاني فهو متربط أوّلا بالفرد المتكلم من حيث هو فرد

---

[218]– نفسه، ص. 25.

[219]– نفسه، ص. 21.

[220]– نفسه، ص. 22.

مبدع، ثم يصير إلى المجموعة اللسانية التي ينتمي إليها هذا الفرد من حيث كونها مصدر المواضعة.

لقد أنشأ عبد الرحمن الحاج صالح ثنائية جديدة ليبرّر، في اعتقادنا، سبب تفوق ثنائية الوضع والاستعمال العربية على ثنائية اللسان والكلام السوسيرية، هي ثنائية اللسان بوصفه وضعا والاستعمال أي الكلام بوصفه حدثا، مستعينا بتحليل سيبويه للفعل، ونقرأ في كتاب سيبويه قوله: «اعلم أن الفعل ... إنما يذكر ليدل على الحدث...، [و] فيه بيان ما مضى وما لم يمض منه كما أن فيه استدلالا على وقع الحدث... إذا قال: ذهب أو قعد فقد علم أن للحدث مكانا وإن لم يذكره كما علم أنه كان له ذهاب»، ثم أردف القول مفسرا: «فالفعل الذي هو من أهم أركان الكلام يدل على الحدث وكل حدث يحصل بالضرورة في زمان ومكان معينان. وأما الكلام كاسم مصدر لفعل تكلم فهو حدث، فلا بد أن يكون له زمان ومكان معينان. وبهذا يفترق الكلام كفعل وكحدث عن الجهاز الذي يستعمله المتكلم وهو اللغة إذ هو أداة لتبليغ الأغراض وبما أنها نظام من الأدلة المتواضع عليها لا ترا لذاتها بل للانتفاع بها كأداة تبليغ فهي كيان مجرد لعموم استعمالها ولعدم اختصاص كل عنصر فيها كأسماء الأجناس والفعال وحروف المعاني فهي صالحة للاستعمال في كل مناسبة وفي أي وقت. ولا يختص استعمالها بكلام قد يتكلم به أو سيتكلم به شخص معين في ظروف معينة. فالكلام حدث والأحداث هي أشياء جزئية تدرك بحاسة السمع كأصوات فلكل حدث خصوصية. أما اللغة فهي من الكليات لأنها غير مدركة بالسمع كوضع كما أنها ليست حدثا بل هي أداة مهيأة للاستعمال في كل الأوقات وكل الظروف»[221].

تحقيق مفهومي الوضع والمواضعة في لسانيات دو سوسير

إنّ أغلب الظن عندنا أن عبد الرحمن الحاج صالح اطلع في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة على مصطلح « état de langue »، وهو المصطلح الذي يراد القول منه بأن اللسان يتصف في زمان ومكان معلومين بوضع خاص، والوضع بهذا المعنى هيئة الشيء التي يكون عليها، وإلا ما كان أقدم – في اعتقادنا – على القول بأن ثنائية الوضع والاستعمال هي الأساس

[221]– نفسه، ص. 43.

الذي بنى عليه دو سوسير مقابلته بين « langue » و« parole ». وإن الذي يدعونا إلى القول بذلك قوله: «أما فضل سوسير في غير هذا فجدير بالثناء لأنه أوّل من بنّه في أوروبا على أن اللغة كوضع ونظام غير الكلام الذي هو استعمال لها ولكلا الجانبين خصوصياته. فهذا لم يفكر فيه اللغويون التاريخيون إلا القليل منهم. وقد بين لأول مرة أيضا أن للغة محورين: التركيبي وهو توالي عناصر الكلام واستبدالي»[222].

وإن نحن عدنا إلى الفصل الذي تناول فيه كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة ثنائية العلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية، لألفيناه يفتتحه بالقول: «كل شيء، في وضع لساني ما، قائم على العلاقات»[223]. ولذلك فإن مفهوم الوضع لا يبرز، في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، مؤسسا لثنائية اللسان والكلام، كما يعتقد الحاج صالح، بل يبرز مقترنا بثنائية الآنية والتاريخية، إذ «ليس ثمة من مجتمع لا يتعرّف، أو تعرّف على لسانه إلا بوصفه نتاجا موروثا عن الأجيال السابقة، وليس له إلا أن يفعل ذلك. ولأجل ذلك، فإن مسألة أصل اللغة « langage » لا تتسم بالأهمية التي تعزى إليها، بل إنها مسألة ما كانت لتطرح، إذ إن موضوع اللسانيات الوحيد هي الحياة الطبيعية والمضطردة للسانٍ موجود سلفا، وإن كل وضع لساني هو دائما نتاج عوامل تاريخية، وإن هذه العوامل هي التي تفسّر لماذا تتصف العلامة بالثبات، أي أنها تقاوم كل نزوع للتغيير الاعتباطي»[224].

ثمّ إنّ الذي يدعونا، كما قلنا، إلى الزعم بأن الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح لم يكن، في كتابه «الخطاب والتخاطب»، قارئا متفحصا لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فانساق إلى الموازاة بين ثنائية الوضع والاستعمال العربية وثنائية اللسان والكلام السوسيرية، فلم يتحرى دلالة مصطلح الوضع على النحو التي هي عليه في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إذ نقرأ فيه: «إن أوّل أمر يلفت الانتباه عند دراسة وقائع اللسان هو كون تعاقب هذه الوقائع عبر الزمن لا وجود له عند الفرد المتكلم: لأنه أمام وضع. ولذلك فإن اللغوي الذي يروم فهم هذا الوضع عليه أن يضرب صفحا عن كل

[222]- عبد الرحمن الحاج صالح الخطاب والتخاطب، ص. 203.

[223] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, p. 170.

[224] - Idem, p. 105.

الذي أنتج هذا الوضع فيتغاضى عن الدياكرونية، إذ لا يمكنه الولوج إلى وعي الأفراد المتكلمين إلا إذا ألغى الماضي»[225].

وليس الوضع إذن في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة سوى خصيصة من خصائص اللسان الآنية، إلى جانب خصيصة كونه نسقا من العلامات التي أشار إليها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، فقد جاء في كتاب المحاضرات القول على لسان دو سوسير: «وحرصا منا على التوكيد على هذه المقابلة، وعلى هذا التلاقي بين نمطين من الظواهر المتعلقة بالموضوع نفسه، نفضّل استعمال مصطلحي اللسانيات الآنية واللسانيات الدياكرونية، فكل ما اتصل بالمظهر الثابت « statique » لعلمنا هو آني « synchronique »، وكل ما اتصل منه بالتحوّلات هو دياكروني. وعليه، فإن الآنية تدلّ على وضع اللسان، وتدلّ الدياكرونية على مرحلة من مراحل تحوّله»[226].

وليس مفهوم «وضع اللسان»، أو الوضع اللساني، أي بمعنى هيئته التي هو عليها في زمان ومكان معلومين، مفهوم متأخر في تاريخ فكر دو سوسير، ولا يعود تاريخ تداوله إلى الدروس التي ألقاها دو سوسير بين عامي 1907 و1911 والتي تمخض عنها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، بل يعود إلى بدايات القرن التاسع عشر، إذ كتب في كتابه «في جوهري اللغة»: «إن وجود صوت ما في لسان ما هو الشيء الذي يمكن تصوره بوصفه العنصر البسيط في بنية هذا اللسان، بيد إنه من اليسير البرهنة على أن وجود مثل هذا الصوت لا يكتسي قيمة له إلا من خلال مقابلته بالأصوات الأخرى الموجودة في اللسان ذاته. وإنا ههنا إزاء التطبيق الأوّل والبسيط لمبدأ عام لا يمكن الاعتراض عليه، هو مبدأ الاختلافات، أو القيم الخلافية، أو الكميات السلبية والنسبية، التي منها ينشأ الوضع اللساني»[227].

إن أحسن التشبيهات التي تقرّبنا من مفهوم الوضع وأيسرها فهما لهو التشبيه الذي أقامه دو سوسير بين اللسان ولعبة الشطرنج، فإذا كانت هذه اللعبة سلسلة من الحركات التي يقيمها اللاعبان، فإن كل حركة تؤدي إلى

---

225 - Idem, p. 117.

226 - Ibid.

227- فردیناند دو سوسیر، في جوهري اللغة، ص. 165.

إحلال وضع قائم. وليس من المهم، في نظر دو سوسير، من أجل فهم هذا الوضع، استدعاء سلسلة الحركات السابقة التي أدت إلى أوضاع متوالية، إذ «إن الميزة الخاصة لكل موقع من مواقع القطع في لعبة الشطرنج هي تحرّرها مما سبقها من المواقع، أي أنها مختلفة تماما عما سلف، وليس الذي تابع كل اللعبة منذ بدايتها بأوفر حظا في فهمها من الذي حلّ لتوّه، ولن يلجأ أحدهما في وصف مواقع القطع الحالية إلى ما كان منها سلفا»[228].

ثمّ إنّ هذا التشبيه، فضلا عن إبرازه للسان بوضعه وضعا قائما، في كل مرحلة من مراحل تحولاته عبر الزمن، وإمكانية الاستقلال بدراسته بمعزل عن دراسة الأوضاع السابقة، يبرز كذلك طبيعة العناصر، أو الوحدات، التي يتألّف منها اللسان بوصفه وضعا قائما، إذ «لئن كان مخالفا للعقل التساؤل عما هي الملكة، والبيدق، والفيل، والجندي، خارج إطار لعبة الشطرنج، فإن البحث فيما يؤسس للعناصر التي يتألف منها اللسان، وعما هي عليه في ذاتها، أمر لا معنى له، لأن القطع هذه لا قيمة لها إلا بالتقابل الذي تقيمه فيما بينها، بموجب مواضعات ما. ولئن لم تكن المواد التي يتألّف منها اللسان مواد متغيرة، تُحدث بتغيرها تحولا حتميا في شروط اللعبة، فإن السعي إلى استكشاف طبيعة هذه المواد لن يكون ضروريا، ولن تكون لنا حاجة في التفكير فيه: ويصبح حينئذ هذا السعي مجرد سعي غير مجد. إن فهم التحوّل الذي يحدث لمختلف القطع عبر الزمن منوط به تحليل هذه القطع في ذاتها. وإننا لا نريد تقرير هذه القاعدة بقدر ما نريد التوكيد على أن ثمة، في كل مرحلة زمنية، تقابلات، وقيما نسبية (والتي هي في حقيقة أمرها نتيجة المواضعة، حتى وإن استندت قبل ذلك إلى إمكانية تقابل كل عنصرين من خلال منح كل واحد منهما قيمة خاصة)»[229].

وإنّنا من ههنا نفهم العلاقة الجدلية، في نظر دو سوسير، بين الوضع والمواضعة. ولئن كان التدرج يحصل، عند النحاة العرب القدامى، في نظر عبد الرحمن الحاج صالح، من الوضع بمفهوم الإبداع الأوّل إلى المواضعة، فإن العلاقة القائمة بين العناصر المؤسسة للوحدات المكوّنة للوضع، بمعنى الهيئة التي هي عليها اللسان في زمان ومكان معلومين، علاقة قائمة، في نظر دو

[228] - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 216.

[229]- فرديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، تر. مختار زواوي، صص. 219-218.

سوسير، نتيجة المواضعة بين أفراد المجتمع، الذي لا يمكن لأي فرد من أفراده أن يحدث (أي أن يضع مفردة جديدة) إلا إذا أجاز المجتمع ذلك. وإن دو سوسير إذ يقول: «إن الوضع اللساني لا يُبرز للغوي إلا موضوعا محوريا وحيدا هو العلاقة القائمة بين الأشكال والأفكار التي تنطوي عليها، ومن الخطأ الاعتقاد بأنه يبرز موضوعا محوريا ثانيا، بأن يبرز الأفكار في ذاتها مثلا، أو الأشكال، أو الأصوات التي تتألف منها الأشكال»[230]، من شأنه أن ينبّهنا إلى أن الوضع اللساني يؤول دائما إلى إحداث نسق من العلامات.

إنّ اجتهاد عبد الرحمن الحاج صالح في البحث عن ثنائية شبيهة بثنائية اللسان والكلام السوسيرية لم يفلح إذ لم ينتبه - في اعتقادنا - إلى الازدواج اللغوي الذي تتصف به لفظة الوضع، وإنا علينا أن نسلك إذن سبيلا آخر، نتحرى منها الوعي الذي وجدناه عند ابن خلدون، بين اللسان والكلام. ولقد وجد الباحث نوزاد حسن أحمد هو الآخر في كتاب سيبويه من القرائن ما يدل على وعي دو سوسير بثنائية اللسان والكلام، فقد أورد في دراسته التي خصّصها لمنهج سيبويه الوصفي جملة من الأقوال التي تشفع لذلك، فكتب يقول: «يميز علم اللغة الوصفي في منهجه بين اللغة والكلام، فإذا كانت اللغة مظهرا اجتماعيا، فإن الكلام عمل فردي مقصود. فاللغة تكسب وجودها الفعلي من خلال الكلام الذي هو نشاط يجري على شروط اللغة. والاتجاه الذي اهتدي به سيبويه إلى دراسة اللغة، هو أن اللغة يبرز وجودها من خلال الاستعمال، أي التداول الفعلي لها، ويتضح من العبارات التي يستعملها في كتابه تحديد هذه الخصيصة، يقول: "المعارف الغالبة أكثر في الكلام وهم لها أكثر استعمالا"، وقوله: "ومن كلامهم أن يجري الشيء على ما لا يستعمل في كلامهم"، وقوله: "ولا يستعمل في الكلام"، وقوله: "وإن كانوا لم يستعملوا في كلامهم ذلك"»[231]. ولئن انتهى الباحث إلى القول، متحدثا عن سيبويه بأن «منهجه الوصفي كان يحتم عليه دراسة اللغة من خلال الكلام، إيمانا منه بأن الكلام هو النشاط البيّن للغة، وقد قرن الكلام بالنظام واهتدى إلى النظام عن طريق تلمس العلاقات الداخلية التي تربط أعضاء الجملة الواحدة، وتحليل

---

[230]- المرجع نفسه، ص. 245.

[231]- نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، بنغازي، منشورات جامعة قان يونس، الطبعة الأولى، 1996، ص. 42.

عناصر الجملة الواحدة من جانبها الشكلي والوظيفي»[232]، فإن القرائن النصية التي استشهد بها لا تبرز - في نظرنا - طبيعة وعي سيبويه بالعلاقة الجدلية القائمة بين اللسان والكلام، بل اكتفى بإيراد ما نعتقد أنه ينضوي في دائرة المواضعة.

إنّ البحث عن قرائن نصية في التراث العربي لثنائية شبيهة بثنائية اللسان والكلام السوسيرية ضرب من الوهم، إذ إن الاعتقاد في ذلك يستلزم الاعتقاد بأن النحاة القدامى كانوا يتمثلون اللسان نسقا من العلامات، ونسقا من القيم الخلافية، على نحو ما كان دو سوسير يؤسس له. والظاهر أن لغويينا ما ابتعدوا كثيرا عن مفهوم اللّسان بوصفه مدونة من المفردات.

[232]- المرجع نفسه، ص. 43.

القسم الثّاني – بحوث سوسيرية

قيل إن دو سوسير كان يمزّق
مسودّاته؟

لم يُتّخذ كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى فرديناند دو سوسير، بعد ترجمته إلى اللسان العربي في ثمانينيات القرن الماضي، موضوعا للنقد والتمحيص، إلا لماما، على الرغم من بداية تداول عدد من مخطوطات دو سوسير التي أخرج جملة منها روبار غودال في النصف الثاني من الخمسينيات، ونشرِ طبعتي تيليو دو مورو رودلف أنغلر النقديتين لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة في النصف الثاني من الستينيات، وتناقلِ عدد من كراسات الطلبة بداية من التسعينيات. وعلى الرغم من أن الفيلولوجيات السوسيرية كانت قد خطت خطوات كبيرة في سبيل فهم فكر دو سوسير الأصيل وتمييزه عن اجتهادات شارل بالي وألبير سشهاي، ناشري كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إلا أن نصوص دو سوسير وكراسات طلبته لم تحل دون تعلق الباحث العربي بكتاب المحاضرات الذي بات الأورغانون الأوّل الذي يلجأ إليه في أدبيات اللسانيات العربية الحديثة من أجل فهم الأصول الأولى للسانيات، بل إن الاختلاف الكبير الذي اكتنف ترجماته العربية الخمس كان سببا آخر حال دون تشكّل مجتمع لساني عربي متجانس، ولم يسهم في إنتاج لغة واصفة « métalangage » منسجمة لا تقبل الاشتراك اللفظي، متحررة قدر الإمكان من الاقتراض اللفظي.

ولم تُتخذ إذن، فيما نعلم، مضامين كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، من حيث مقارنتها بالنصوص المخطوطة التي ألّف انطلاقا منها، إلا في السنوات القليلة الأخيرة، لكن التوطئة « préface » التي قدّم بها شارل بالي وألبير سشهاي لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لم تنل عناية الباحثين بعدُ، على الرغم من الإشارات المهمة التي تحتوي عليها، بل إن ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، وترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش

ومحمد عجينة، تنازلتا تماما عن ترجمة التوطئة، على الرغم من أنها جزء مهم من الكتاب، وعتبته الأولى.

ولما كانت توطئة شارل بالي وألبير سشهاي عتبة الكتاب الذي ألّفاه استنادا إلى كراسات طلبة دو سوسير ونسباه إليه، وتبيّن أن بين الكتاب وأصوله اختلافات جمة، كان الأحرى أن يوقف عند هذه التوطئة للنظر فيها بوصفها وثيقة مهمة من الوثائق التي يلجأ إليها من أجل فهم طبيعة تأليف كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وتمثل بداية تشكّل التلقي الغربي الأوّل لفكر دو سوسير، وإذا كان الباحثون العرب المشتغلون بمسائل اللسانيات ملزمين اليوم، أكثر من أي وقت مضى، بضرورة إعادة النظر عن كثب في اللغة الواصفة التي اشتركوا في صياغتها من أجل نقل فكر دو سوسير إلى اللسان العربي، فإنهم ملزمين أيضا بتفحص هذه التوطئة وسائر الوثائق الأخرى التي باتت في متناول الباحثين المعاصرين من أجل فهم سديد لفكر دو سوسير اللساني، والإقبال على نصوصه الجديدة بالنظر والتفحص.

وإننا عندما نقرأ هذه التوطئة التي لا تكاد تتجاوز خمس صفحات نشعر بذلك التقدير الكبير الذي كان يكنّه الطلبة لأستاذهم، وبالتأثير البليغ الذي أحدثه دو سوسير في الفكر اللساني، لكننا نطالع في المقابل من ذلك ما يُشعر بالقلل، إذ يقر شارل بالي وألبير سشهاي بعدم حضورهما شخصيا أي درس من الدروس التي ألقاها دو سوسير في اللسانيات العامة ما بين 1907 و1911 والتي منها استخرجا كتاب المحاضرات، ليقررا بعد ذلك أن دو سوسير كان يمزق تباعا كل مسوّداته التي كان يحضر بها دروسه، فهل كان دو سوسير حقا يمزق ملحوظاته؟

هل كان دو سوسير – حقًّا – يُمزق ملحوظاته؟

لم يعد لإقرار شارل بالي وألبير سشهاي بأن دو سوسير كان «يُمزق تباعا كل مسوداته التي كان يخط فيها يوميا مخطط درسه» سند يقوّيه، فقد بات معلوما أن دو سوسير لم يكن يستغني عن مسوداته التي كان يحضر بها دروسه، إذ إن عددا من الوثائق التي أصبحت في متناول الباحثين المعاصرين، سواء تلك التي نشرها من قبلُ روبار غودال ورودلف أنغلر، أو تلك التي عثر

عليها عام 1996 ونشرت عام 2002، يُصنّف الآن ضمن مجموعة الوثائق التحضيرية للمحاضرات في اللسانيات العامة.

ولقد كان دنيال غمبارارا اجتهد، بمناسبة العدد الثامن والخمسين من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير الذي نشر فيه عددا من هذه الوثائق التحضيرية، ومضامين كراسات إيميل كنستنتان للسنة الجامعية الثالثة (1910–1911)، في ردّ زعم شارل بالي وألبير سشهاي فكتب يقول، مؤرّخا لمراحل اكتشاف هذه الوثائق: «لقد كان دو سوسير، كغيره من الأستاذة، يحضر لجل دروسه بملحوظات مكتوبة، وكان ألبير سشهاي قد استعان بعدد من هذه الملحوظات أثناء التحضير لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة. وكان غودال قد تعرّف على ملحوظات أخرى ضمن المجموعة الأولى من مخطوطات دو سوسير التي أودعت بمكتبة جنيف العمومية والجامعية، ثم نشر رودلف أنغلر كل الملحوظات التي كانت معلومة حتى عام 1967، موزعة بحسب ترتيب فصول كتاب المحاضرات في طبعته النقدية التي أخرجها عنه. ولقد عثر أنغلر أيضا، في العام 1996، ضمن مجموعة مخطوطات دو سوسير الجديدة، على ملحوظات أخرى ونشرت عام 2002 ضمن كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة، لكنني تمكنت من التعرّف على ملحوظات أخرى، أثناء قراءة لمخطوطات دو سوسير في شهر أبريل من عام 2005»[233].

وفضلا عن الآثار المخطوطة التي بات الباحثون يتوفرون عليها والتي تثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن دو سوسير لم يكن بأي حال من الأحوال يستغني عما كان يُحضِّر به دروسه في اللسانيات العامة، إن ثمة شهادات تفنّد ما ذهب إليه شارل بالي وألبير سشهاي في مقدمة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فقد عبّرت السيدة دو سوسير عن العناية التي كان يوليها زوجها لتحضير دروسه إلى درجة حالت دون عنايته ببحوثه الأخرى، فقد قالت في الرسالة التي بعثت بها إلى أنطوان مايي في الخامس والعشرين من شهر مايو عام 1913: «لقد أعطى جل وقته للتدريس وكان تحضيره للدروس يستغرقه إلى درجة لم يسعه نشر أبحاث شخصية أخرى». ثم إننا بتنا أكثر تمثلا للمنهج الذي كان دو سوسير ينحوه في كتابته العلمية، إذ لم يكن من الذين يتيسر عليهم الاستغناء عما كتبوا، بل كان في المقابل من ذلك من

233 - D. Gambarara, « Un texte original. Présentation des textes de F. de Saussure », *Cahiers Ferdinand de Saussure*, n° 58, 2008, p. 37.

الذين لا يتحرجون من المحو، ويصرّون في معاودة التعبير عن أفكارهم حتى تستقيم لهم فيرضون عنها.

لقد كان تفكير دو سوسير في المسائل التي رام تلقينها لطلبته يتبلور، في اعتقادنا، أثناء مرحلتين اثنتين، مرحلة تسبق الدرس وأخرى أثناء الدرس، فأما المرحلة الأولى فالراجح أنه كان يضع خلالها مسوداته للتعبير عن الأفكار الرئيسة وضعا مؤقتا، ويفّسر هذا الوضع المؤقت، في اعتقدنا، طبيعة النصوص المنتجة، إذ إنها في مجملها نصوص غير مكتملة، تتخللها الفراغات ويكثر فيها المحو. والظاهر أن المرحلة سرعان ما بدأت تنضج مع مرور الشهور، لاسيما في غضون السنة الجامعية الثالثة (1910-1911)، ويتحوّل أسلوب الأستاذ المحاضر إلى أسلوب المؤلف الكاتب، على نحو ما ألمحت إليه كلوديا ميخيا. وأما المرحلة الثانية فهي المرحلة التي كان يختبر فيها أفكاره أمام طلبته، وهي المرحلة التي تكتسب فيها الأفكار وضعا يحسن فيه التبليغ عنها، فتقيد تقييدا نهائيا في كراسات الطلبة.

ومن الطبيعي إذن أن نجد في ما دوّنه طلبته عنه، في أثناء هذه السنوات، آثارا لمضامين هذه المسودّات. ولقد خضنا في هذه المسألة، في كتابنا «مسائل في اللسانيات وعلم العلامات: قراءة في نصوص فرديناند دو سوسير الجديدة»، الصادر عام 2021 عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بقطر، وتمكّنا هنالك من ربط الصلة بين كل ملحوظة من الملحوظات الجديدة، أي تلك التي عثر عليها عام 1996 وبين مضامين كراسات الطلبة. ولقد نظرنا - مثلا - في النص الأوّل من الملحوظات، وهو النص الذي اصطلح المحققان على تسميته «الطبيعة غير المادية للوحدات اللسانية»، فوجدنا أصله مخطوطٌ حضّر به دو سوسير الدرس الرابع (23 نوفمبر 1909) من دروس اللسانيات العامة من السنة الجامعية الثانية (1908-1909)، ودوّنه كل من بوشاردي، وغوتيي، وكنستنتان، في كراساتهم تدوينا يكاد يكون حرفيا، وهي تلك التي استعان بها رودلف أنغلر في طبعته النقدية، أو تلك التي حققها أيسوكي كوماتسو ونشرها، استنادا إلى ما دوّنه كل ألبير رايدلنغر وشارل باتوا بشيء من التعديل.

لكن ما نشره أيسوكي كوماتسو من كراسات يمتاز عما أثبته رودلف أنغلر في طبعته النقدية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من نصوص سوسيرية بإمكانية استعادة السياق الذي ورد فيه هذا النص والغايات

التعليمية التي رام دو سوسير تحقيقها منه. ولعل الغاية من هذا النص تقرير قاعدة مهمة، تلك التي تقر بالأصل الاجتماعي للأنساق السيميولوجية، فقد دوّن رايدلنغر مباشرة قبل هذا النص، أي في سياقه النصي « cotexte » المباشر، عن دو سوسير قوله: «إننا الآن مُحصّنون ضد بعض الأخطاء، وأصبحنا ندرك، أحسن من أي وقت مضى، أن الحدث الاجتماعي هو وحده الكفيل بإبداع ما هو موجود في كل نسق سيميولوجي»[234].

ولما كنا خضنا في المجموعة الجديدة من الوثائق التحضيرية للمحاضرات في اللسانيات العامة في كتابنا السالف الذكر، فإننا سنكتفي فيما يلي بوصف مضامين النصوص القديمة وصفا موجزا، ليس القصد منه سوى توكيدا للغاية التي نروم في هذا المقال، وهي العدول عن إقرار شارل بالي وألبير سشهاي بأن دو سوسير كان «يُمزق تباعا كل مسوداته التي كان يخط فيها يوميا مخطط درسه»، وسنقتصر من هذه الملحوظات على الملحوظتين الأوليين، ملحوظة من السنة الجامعية الأولى 1907، وأخرى من السنة الجامعية الثانية (1908-1909).

الملحوظات التّحضيرية القديمة

صنّف سيمون بوكي ورودلف أنغلر، محققا كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة المنشورة عام 2002، مسوّدات دو سوسير التي كان يحضر بها دروسه في اللسانيات العامة التي ألقاها في السنوات الجامعية الثلاث في مجموعتين: فأما المجموعة الأولى من الوثائق فهي تلك التي أودعها أنغلر في طبعته النقدية التي أخرج منها الجزء الأوّل عام 1968، والجزء الثاني عام 1971، وأما المجموعة الثانية فتضم مجموع الملحوظات التي عثر عليها عام 1996 ونشرت عام 2002 ضمن مجموع كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة.

وتتألف مجموعة النصوص الجديدة من الملحوظات من ثمانية نصوص قصار، وهي نصوص تنتمي كلّها، باستثناء النص الأخير، إلى دائرة

---

[234] - F. de Saussure, *Deuxième cours de linguistique générale d'après les cahiers d'A. Riedlinger et Charles Patois*. Edition E. Cumatsu, Tokyo, Pergamon, 1997, p. 15.

السيميولوجيات، أي علم العلامات، منها ما له أثر في هذه النصوص بغير الصيغة التي عبّر بها دو سوسير عن أفكاره، كما هو الشأن مثلا بالنسبة للنص الأوّل من هذه المجموعة، ومنها ما هو أكثر تقييدا في هذه الكراسات نسبة لما هو من تعبير دو سوسير كما هو الشأن مثلا بالنسبة للنصين الرابع والخامس. وهذه النصوص هي: 1) الطبيعة غير المادية لوحدات اللسان، 2) عدم أهمية الوسيلة، 3) اللسان، 4) السيميولوجيات، 5) نسق العلامة والمجتمع، 6) القيمة والمجتمع، 7) الانفصال الجغرافي، و8) التبادل بين سكان مناطق بعيدة. وفضلا عن تعريفنا بهذه النصوص في كتابنا الذي ألمحنا إليه قبل قليل، فقد نقلناها أيضا إلى اللسان العربي، إلى جانب ما بات يعرف بنصوص دو سوسير الجديدة، وقدمنا لهذه الترجمة بفصول في الفيلولوجيات السوسيرية[235].

وتتألف مجموعة النصوص القديمة من إحدى عشر ملحوظة، وهذا تفصيلها بحسب السنوات الجامعية الثلاث، وبيان أهم مضامينها والمسائل التي عني بها دو سوسير فيها: السنة الجامعية الأولى (ملحوظة واحدة: دلالة مصطلح الصوتيات التاريخية)، السنة الجامعية الثانية: (ملحوظات ثلاث: الثنائيات، ويتني، الألسن السلتية)، السنة الجامعية الثالثة: (ملحوظات سبع: اللسانيات الجغرافية، تحليل السلسلة الصوتية، المدونة، الكيانات، اعتباطية العلامة ومفهوم العنصر، ضورة التغيرات التي تطرأ على العلامات وثنائية الآنية والتاريخية، القيمة اللسانية).

الملحوظة الأولى (1907): في تعريف الصّوتيات التاريخية

لا تحتوي النصوص التي نشرها بوكي وأنغلر من هذه السنة الجامعية الأولى إلا على ملحوظة واحدة، وهي تنتمي، استنادا إلى قرائن نصية، إلى ملحوظات السداسي الثاني من السنة الجامعية نفسها، لقول دو سوسير فيها: «سأخصص هذه الحصة الأولى كلّها للنظر معكم في ما يتألّف منه الحقل الخاص من اللسانيات الذي يسمى الصوتيات، أو في ما يتألّف منه استنادا

---

[235]- فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، تر. مختار زواوي، بيروت، دار ابن النديم ودار الروافد الثقافية، 2021.

إلى ما أثبتناه من حقائق عامة، في مناسبات مختلفة من السداسي الأوّل»[236].
ويجب أن نشير، قبل المضي في وصف مضامين هذه الملحوظة، إلى أن مصطلح الصوتيات المستعمل ههنا من قبل دو سوسير لا ينطوي على دلالته الحديثة، بوصفه العلم الذي يُعنى بدراسة الأصوات من حيث إنتاجها وانتقالها وتلقيها، بل إنه يستعمله للدلالة على المادة العلمية التي تعنى بدراسة التحولات الصوتية.

ولسنا نعلم بالتحديد تاريخ تأليف هذه الملحوظة، ولم نوفق في العثور على آثار لها في كراسات الطلبة، فقد تتبعنا كراسات ألبير رايدلنغر من السنة الجامعية الأولى[237]، ولم نجد فيها ما يمت بهذه الملحوظة بصلة. لكن النص ينطوي على قرائن تشير صراحة إلى أن دو سوسير حرّر ملحوظته هذه للتحضير للحصة التي عقد فيها الحديث عن النمط الثاني من التحوّلات اللسانية، وهو نمط التحولات القياسية، فقد كتب فيها يقول: «ما هي الأشكال الأخرى للتحوّل اللساني التي تنشأ عن عوامل ليست صوتية؟ هذا ما سنشرع في بيانه وهو المسألة الأولى التي نعنى بها». وإننا نعلم أن دو سوسير قسّم دروسه في اللسانيات العامة من السنة الجامعية الأولى 1907 إلى أقسام ثلاثة: فأما القسم الأوّل من الدروس فقد ألقى فيه على طلبته عددا من المقدمات العامة تخص تعريف اللسانيات، وعلاقتها بعدد من العلوم الإنسانية، وألمح إلى عدد من المبادئ الصوتية الخالصة، وهي المبادئ التي كان دو سوسير يطلق عليها تسمية « phonologie » (الفونولوجيات)، وهي التسمية التي باتت تطلق، في اللسانيات الحديثة والمعاصرة، على الدراسة التي تعنى، خلافا للصوتيات، بدراسة الأصوات من حيث وظيفتها اللسانية التي تضطلع بها، أي بوصفها فونيمات. ولقد كان دو سوسير ألمح أيضا ضمن هذه المقدمات إلى ضرورة التمييز بين مدخلين لدراسة اللسان، مدخل يؤدي إلى دراسة اللسان بوصفه وضعا قائما، ومدخل آخر يلج بنا إلى دراسة الجانب التاريخي من اللسان. وأما القسم الثاني من دروس السنة الجامعية الأولى 1907 فقد باشر فيه دو سوسير مسألة التحوّلات اللسانية موزعا إياه إلى فصلين، فصل أوّل تحدث فيه عن نمط التحوّلات الصوتية، وفصل ثاني تحدث فيه عن نمط التحولات القياسية

---

[236] - F. de Saussure, Ecrits de *linguistique générale*, pp. 297-298.

[237] - F. de Saussure, *Premier cours de linguistique générale d'après les cahiers d'A. Riedlinger*. Edition E. Cumatsu, Tokyo, Pergamon, 1996.

« changement analogique »، وهو الفصل الذي تُقدِّم له الملحوظة التي نُعنى الآن بوصف مضامينها.

لا تكاد الملحوظة تتجاوز في حجمها الصفحتين، ولا تتناول مسألة التحوّلات القياسية، فقد خصّص دو سوسير، كما أسلفنا، هذه الحصة التي حضّر لها بهذه الملحوظة للتعريف بالصوتيات التاريخية وتمييزها عن المادة العلمية التي تعنى بالأصوات من جانبها الفيزيولوجي. ونود أن نكتفي الآن بنقل الفقرة من الملحوظة التي يُميز فيه دو سوسير بين الصوتيات الفيزيولوجية والصوتيات التاريخية، بقوله: «إنني سأخصص هذه الحصة الأولى كلّها للنظر معكم في ما يتألّف منه الحقل الخاص من اللسانيات الذي يسمى الصوتيات « phonétique »، أو في ما يتألّف منه استنادا إلى ما أثبتناه من حقائق عامة، في مناسبات مختلفة من السداسي الأوّل. وإنني سأبدأ بإيراد عدد من الأسئلة والأمثلة بطريقة تحليلية محضة، فأقول: 1) هل نحن نمارس الصوتيات عندما نسأل مثلا ما إذا كان الصوت الإنجليزي sh في shirt أو show هو الصوت الفرنسي ch نفسه الذي في cher أو chose أم لا؟ وأجيب: بأننا نمارس ههنا فيزيولوجيات خالصة (أي أننا لا نمارس لا الصوتيات ولا اللسانيات أيضا) لأن المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كان النوع الفيزيولوجي š[1] الذي نصادفه في المفردة الإنجليزية širt يتطابق مع š[2] الذي هو في šer أم لا. لكن ما هو الطابع العام الذي يبين لي أنني لا أمارس ههنا الصوتيات؟ والجواب يمكن في أنني لا أضع المفردتين في توالي، بحيث يلي أحدهما الآخر»[238].

الملحوظة الثّانية (1908–1909): في مسألة الثنائيات

تتألّف ملحوظات السنة الجامعية الثانية (1908–1909) التي نشرها سيمون بوكي ورودلف أنغلر ضمن كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة من ملحوظات ثلاث، فأما الملحوظة الأولى فتعالج مسألة الثنائيات « dualités »، وأما الملحوظة الثانية فقد أورد فيها دو سوسير نصا للغوي الأمريكي وليام لويتني وناقشه، وهو النص الذي دافع فيه ويتني عن أهمية اللسانيات الهندية الأوروبية مقارنة بفروع اللسانيات التاريخية المقارنة الأخرى، وأما الملحوظة الثالثة فقد تحدّث فيها عن الألسن السلتية « langues celtiques »

[238] - F. de Saussure, Ecrits de *linguistique générale*, p. 298.

وصعوبة تحديد موقعها الجغرافي وخصائصها التي تُميزها عن الألسن الهندية الأوروبية. وإننا إذ لا نعنى ههنا إلا بالملحوظة الأولى، فإنه من اليسير، خلافا للملحوظة السابقة، التعرّف على آثار نصية لهذه الملحوظة، في مضامين الدروس التي حققها روبار غودال من السنة الجامعية الثانية (1908-1909) مثلا أو في كراسات ألبير رايدلنغر وشارل باتوا التي نشرها أيسوكو كوماتسو، فقد افتتح دو سوسير دروسه في اللسانيات العامة من هذه السنة الجامعية بتنبيه طلبته إلى أن اللسان ينطوي على عدد من الثنائيات، فقد نقل عنه ألبير رايدلنغر وشارل باتوا قوله: « إن اللسان يبدي، مهما كان الجانب الذي نتناوله منه، جانب مزدوج بحيث لا يقوم أحدهما إلا بالآخر »[239].

لقد كانت الغاية من هذه الملحوظة إذن إحصاء هذه الثنائيات التي تتمظهر منها اللغة الإنسانية « langage »، فقد كتب دو سوسير في مقدمتها: « إن اللغة خليقة بأن تختزل في ثنائيات خمس أو ست »، لكن الملحوظة لا تحتوي إلا على بيان ثلاث منها هي: ثنائية (الدال والمدلول)، أو الجانبيين السيكولوجيين للعلامة، وثنائية الفرد والمجتمع، وثنائية اللسان والكلام. ومن اليسير، بتتبع كراسات الطلبة التعرف على الثنائيات الأخرى، فاللغة فضلا عما ذكرنا، تاريخ ووضع قائم، وهو التمييز الذي باتت تعبر عنه فيما بعد ثنائية الآنية والدياكرونية، واللغة أيضا مكتوبة ومنطوقة. وفي حين تكتفي الملحوظة بالإشارة إلى الثنائيتين الأوليين الإشارة السريعة، تضم الفقرة المخصصة للثنائية الثالثة إشارات مهمة، فقد كتب فيها دو سوسير يقول: «تتألف الثنائية الثالثة من اللسان والكلام (وإن العلامة بوصفها مسبقا مزدوجة نتيجة الارتباط الداخلي الذي تنطوي عليه، ومزدوجة نتيجة لوجودها ضمن نسقين، تخضع لاستعمال مزدوج)»، ليختتمها بقوله: «إننا ههنا لأوّل مرة إزاء لسانياتين اثنتين»، وهما لسانيات اللسان ولسانيات الكلام.

ولقد كنّا في مناسبات أخرى أشرنا إلى التأويل الذي ارتضاه شارل بالي وألبير سشهاي لهذا التمييز، فقد اجتهدا، خلافا لما كان دو سوسير يروم، إلى الفصل بين اللسانياتين فاختزلا كل اللسانيات العامة التي راح يؤسس لها دو سوسير منذ السنة الجامعية الثانية (1908-1909) في لسانيات اللسان، وزعما أن البحث اللساني لا يستوي إلا إذ اتخذ اللسان موضوعه الوحيد والحقيقي.

---

[239] - F. de Saussure, *Deuxième cours de linguistique générale d'après les cahiers d'A. Riedlinger et Charles Patois*. p. 2 et 110.

ولقد بات الفصل بين اللسانياتين في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير مبدأ عاما التزمت به كل فصول الكتاب وأبوابه، فقد أقر شارل بالي وألبير سشهاي الفصل بينهما فصلا تاما، على الرغم من إقرارهما بالاستعانة أحيانا بدراسة الكلام، إذ كتبا يقولان: «إننا سنلتزم بهذه الأخيرة وحدها، [يعنيان لسانيات اللسان]، وإن نحن قد نلجأ إلى دراسة الكلام، في أثناء براهيننا، فإننا سنسعى دوما إلى عدم إزالة الحدود التي تفصل الميدانين»[240]، كما كتبا يقولان: «إننا إذ نفصل اللسان عن الكلام، فإنما نفصل في الآن ذاته بين 1) ما هو اجتماعي عما هو فردي، و2) بين ما هو أساسي عما هو ثانوي ونوعا ما عرضي»[241].

لكنّنا لو قارنا مضامين هذه المقولات بمضامين مقولات أخرى، تتصل بالتغيّر اللساني، لوجدنا بينها اختلافا قد يصل إلى درجة التناقض، فقد كتبا يقولان في علاقة اللسان بالكلام: «ليس من شك في أن الموضوعين يتصلان اتصالا وثيقا ويفترض أحدهما الآخر، إذ إن اللسان ضروري للكلام حتى يصبح مفهوما ويحقق كل آثاره، لكن هذا الأخير ضروري للسان حتى يستقر، ومن وجهة نظر تاريخية إن الواقعة الكلامية دائما ما تكون هي السابقة»[242]، كما كتب يقولان أيضا وهو يُميّزان بين الدراسة الآنية والدراسة الدياكرونية للسان: «إن كل ما هو دياكروني من اللسان ليس كذلك إلا من جهة الكلام، إذ إن الكلام هو النواة لكل التحوّلات»[243].

إنّ الغاية التي رمنا في هذا المقال التوكيد على أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة لم يعد المنفذ الوحيد لفكر دو سوسير اللساني، وأن ما بات متداولا من نصوصه التي خطها بخط يده أو تلك التي دونها عنه طلبته، هي وحده الكفيلة بتصحيح الصورة النمطية التي توارثتها أجيال من الباحثين على امتداد القرن الماضي. إن انتهاءنا في هذا المقال إلى التنبيه إلى عدم فصل دو سوسير بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام إنما هو توكيد إلى ما ذهب إليه الباحثون المعاصرون، إن مشروع دو سوسير قائم، خلافا لما روج له شارل بالي

---

240 - F. de Saussure, *Cours de linguistique générale*, p. 39.

241 - Idem, p. 30.

242 - Idem, p. 37.

243 - Idem, p. 138.

وألبير سشهاي، على توحيد لسانيات اللسان ولسانيات الكلام. ولئن كان المرض، ثم الوفاة، حالا دون أن يخصص دو سوسير سنة جامعية رابعة لتحقيقه، فإن الجهود العلمية المعاصرة متجهة صوب تحقيق هذا المشروع باقتراح مخرجات جديدة من شأنها أن تحقق القاعدة الإبستيمولوجية التي تجسد مطلب توحيد اللسانياتين.

المحو الباني ودلاليات الشطوب في مخطوطات دو سوسير

نريد في هذا المقال أن نلمح إلى جملة من التحولات الجديدة في البحث في فكر فرديناند دو سوسير اللساني، ونومئ إلى عدد من الأسئلة النظرية التي أفرزتها منجزات الفيلولوجيات السوسيرية الأخيرة. لقد تجاوزت هذه الفيلولوجيات مرحلة تخليص البحث اللساني المعاصر من سطوة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، وراحت بعد ذلك تبني من جديد نسق دو سوسير الفكري بتمحيصه مما نسب إليه من تصورات، ولا تبغي عن مخطوطاته وما ألقاه حقّا من دروس بديلا ولا منفذا إليه سواها. إن الفيلولوجيات السوسيرية، والتكوينيات النصية، والسيميولوجيات الفرنسية، والسيميائيات وعلوم الثقافة، أسهمت، وما تزال، في تحقيق مشروع دو سوسير الفكري بعد التحول به من لسانيات اللسان إلى لسانيات الكلام، ومن النسق اللساني إلى الفرد المتكلم، ومن اللسانيات بوصفها علما بنيويا إلى وصفها علما إنسانيا.

لقد محّصت هذه البحوث أسلوب دو سوسير العلمي الفريد وأزالت عنه وصفات شارل بالي وألبير سشهاي اللذين أخرجا كتاب المحاضرات، وأبصرت في مخطوطاته آليات كتابية جديدة ليس للباحثين المحدثين عهد بها، فقد كان دو سوسير غالبا ما يمحي. لكن المخطوطات هذه احتفظت بآثار المحو الذي مارسه، وكشفت في الآن ذاته عن أشياء من فكره لا يمكن التحقق منها، مثلا، في كتاباته التي نشرت، مستوفاة للمعايير المطبعية المعاصرة.

لقد كانت الترجمات العربية لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة (CLG)[244]، في ثمانينيات القرن الماضي، حدثا بارزا في مسار التلقي العربي لفكر دو سوسير لكنّها، على الرغم من الفائدة التي قدمتها للقارئ العربي

[244] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration d'A. Riedlinger, Paris, Payot, 1971.

بإطلاعه على أهم منجزات الفكر اللساني وتعريفه بالمصدر المؤسس للسانيات الحديثة، حالت دون الإلمام بالخصائص العلمية للخطاب السوسيري، وأغفلت عنه جانبا هاما من أسلوبه الفكري الفريد. لقد كانت هذه الترجمات، شأنها شأن عدد من الترجمات الأجنبية لكتاب المحاضرات، متأخرة عما حققته الفيلولوجيات السوسيرية منذ أن نشر روبار غوادل أولى مخطوطات دو سوسير، عام 1954[245]، وإصداره سنوات قليلة بعد ذلك كتاب الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات الذي تناول فيه تحليل عدد من كراسات الطلبة الذين دونوا عن دو سوسير دروسه التي ألقاها ما بين سنتي 1907 و1911، بجامعة جنيف، في اللسانيات العامة[246]. وعلى الرغم من أن روبار غودال أنصف إلى حد ما، في هذا الكتاب، أستاذيه شارل بالي وألبير سشهاي، إلا أنه ألمح في كثير من مواطنه إلى الخلل والاضطراب اللذين شابا كتاب المحاضرات، جراء عجزهما عن التعبير عن فكر دو سوسير تعبيرا سديدا. ولم تقتصر هذه الترجمات، وكثير من البحوث اللسانية العربية التي استندت إليها، على جهل ما كان حُقق آنذاك من مخطوطات دو سوسير ونشر، بل تجاهلت أيضا الطبعتين النقديتين لكتاب المحاضرات اللتين أخرجهما رودلف آنغلر (1968)[247]، (1974)[248] وتيليو دو مورو (1972)[249]، وهما تُعتبران من بين أهم منجزات الفيلولوجيات السوسيرية، لما تحتويان عليه من تصويبات جمة وتوجيهات سديدة لجملة من التناقضات والاختلافات التي مست أهم المفاهيم السوسيرية في اللسانيات العامة، لاسيما ما بات يعرف بالثنائيات اللسانية، وما تشتملان عليه أيضا من نصوص سوسيرية أصيلة لم يكن للبحث اللساني عهد بها.

---

[245] - R. Godel, « Notes inédites de F. de Saussure », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 12, 1954, p. 49.

[246] - R. Godel, Sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, Genève, Droz, 1957.

[247] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale de F. de Saussure, tome I, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, 1968.

[248] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale de F. de Saussure, tome II : appendice, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, 1974.

[249] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration d'A. Riedlinger, édition critique par T. de Mauro, Paris, Payot, 1972.

إن نشر روبار غودال عام 1954 لنصوص دو سوسير المخطوطة يُعد في نظر المؤرخين للفيلولوجيات السوسيرية نواتها الأولى، لكن مكتبة جنيف اغتنت في السنوات التي تلت بمخطوطات أخرى لدو سوسير، فقد أودع بها رايموند وجاك، ابني دو سوسير، في عام 1958، مجموعة منها. ولقد كان روبار غودال الذي عمل على توثيق هذه المخطوطات وترتيبها إلى جانب المخطوطات الأولى، لاحظ أيضا بأن شارل بالي وألبير سشهاي كانا قد اطلعا على عدد من هذه المخطوطات المتناثرة: وكتب حينذاك: «لقد تلقت المكتبة خلال عام 1958 من السيدين رايموند وجاك دو سوسير صندوقين يحتويان على مجموعة من المخطوطات التي عثر عليها [...]. لقد طالع ناشرا كتاب المحاضرات هذه النصوص، إذ ما يزال يحتوي عدد منها، في أعلى الصفحة، على اليسار، إشارة بخط يد بالي، لكنهما، لعجزهما عن ترتيب هذه النصوص، عزفا عن مواصلة الانتقاء، ولم يستملا إلا ما نسخ سشهاي منها»[250]. ولئن كان من الطبيعي أن تظل هذه الفيلولوجيات مركزة اجتهاداتها على مضامين كتاب المحاضرات، ويظل هذا الكتاب، لعقود متوالية المنفذ الرئيس لفكر دو سوسير اللساني، حتى حجبت هذه الاهتمامات كل اجتهادات دو سوسير الأخرى التي كانت تصنف آنذاك في دائرة النحو المقارن أو في دائرة اللسانيات التاريخية، إلا أن ما حققت البحوث الفيلولوجية الأخيرة، منذ مطلع هذا القرن الجديد، جدير بالاهتمام، فقد مكّن تحقيق كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة ونشرها عام 2002 من قبل سيمون بوكي ورودلف آنغلر[251]، وتحقيق عدد من الدروس التي ألقاها دو سوسير ابتداء من عام 1891 في النحو المقارن، بعد عودته من باريس، ونشرها عام 2018 من قبل أندري روسو[252]، من تجاوز التصور التقليدي لعدد من الباحثين في فكر دو سوسير الفاصل بين بحوثه في اللسانيات التاريخية المقارنة (أو النحو المقارن) وبحوثه في اللسانيات العامة، وهو فصل يكاد ينسجم، في نظرهم، مع الفصل بين مرحلة باريس (1880-

---

250 - R. Godel, « Inventaire des manuscrits de F. de Saussure remis à la Bibliothèque Publique et Universitaire de Genève », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960, p. 5.

251 - F. de Saussure, Écrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002.

252 - F. de Saussure, La grammaire du gotique, éd. A. Rousseau, Paris, Honoré Champion, 2018.

1891) التي قضى بها دو سوسير عشرة أعوام طالبا للعلم ثم أستاذا بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بعدما باءت بالفشل كل الجهود لإقناعه بالعدول عن مغادرة باريس والقبول بالجنسية الفرنسية قصد الحصول على منصب عمل دائم وبين مرحلة جنيف التي تبدأ بعام 1891 وتنتهي بالسنة الجامعية (1911-1912). لكن باحثين آخرين ردّوا هذا التقسيم معترضين بالقول بأن المقارنة ما كانت يوما ما الغاية التي كان يرومها دو سوسير، بل إنه ما انفك يجتهد في سبيل تجاوز المقارنة واتخاذها وسيلة لبلوغ الأسس العامة، والتحقق من طبيعة الظاهرة اللغوية[253].

إنّ مشروعا لإعادة قراءة فكر دو سوسير اللساني لا مناص له من إعادة الصلة من جديد بالفيلولوجيات السوسيرية، ولسنا نغالي لو زعمنا أن الفكرة هذه تُعدّ من بين أهم منجزات الفيلولوجيات السوسيرية، وهي تعبر في نظرنا عن أصالة الفكر السوسيري، وعن السعي الدائم الذي بذله دو سوسير في سبيل وضع علم اللسانيات الناشئ آنذاك على أسس علمية، إبستيمولوجية، ومنهجية، قويمة، والنأي به عن ممارسات النحو المقارن (أو اللسانيات التاريخية) التي ركنت إلى طريقة في المقارنة لم تُعمل فيها مفهوم النسق اللساني، وراحت بدلا من ذلك تبحث عن التقابلات بين الأشكال اللسانية المنتمية إلى ألسن مختلفة. لقد أبرزت الفيلولوجيات السوسيرية أن موقف دو سوسير من هذه الممارسات، وإحلاله محل الطريقة المقارنة السائدة طريقةً جديدة، أصيلة، تراعى فيها فردانية الألسن، ويُعمَل فيها مفهوم النسق، موقفٌ يبلور أولى المبادئ العامة التي بدأت تتشكل بها معالم لسانياته العامة. ولا يقتصر فضل الفيلولوجيات السوسيرية علينا نحن جيل السوسيريين الجدد بانخراطنا في معاودة النظر في فكر دو سوسير الأصيل من خلال معاينة مخطوطاته الأصيلة التي ما تزال تحقق، وتنشر تباعا، بل قادتنا أيضا إلى معاودة النظر في تاريخ الأفكار اللسانية الحديث، والتحقق من الطرق التي سلكها العلم الحديث والمعاصر في تلقيه. ولقد رحنا في الشهور القليلة الأخيرة، موازاة مع ترجمة كتابات دو سوسير في اللسانيات العامة، ننظر في تلقي سيميولوجيات رولان بارت وسيمولوجيات لويس برييتو، فوجدناهما لا ينهلان من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير

253 - C. Watkins, « Remarque sur la méthode de Ferdinand de Saussure comparatiste », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 32, 1978, p. 60.

كما كنا نعتقد، وكما كان حال كثير من الباحثين العرب قبلنا، بل إنهما نظرا في فكر دو سوسير من خلال مخطوطاته التي حققها روبار غوادل ونشرها عامي 1954 و1957.

لقد كشفت هذه المخطوطات للباحثين في فكر دو سوسير عن أسلوب تحريري علمي فريد يختلف كل الاختلاف عما سوّق له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، واحتفظت الآثار الواضحة للمحو الذي مارسه دو سوسير في كتاباته بطبيعة تكوين فكره، وأسلوبه في التفكير والنظر في طبيعة الوقائع اللسانية. فهذا الفكر، فكر دو سوسير اللساني، فكر قلق، يعاود النظر في الأفكار حتى يطمئن إلى صياغتها الأخيرة، وينتهج منهج الفقرات الصغار في تأليفها، وكأني بها جزرا ترامت في بحر عميق من التأمل والتبصر في طبيعة اللغة الإنسانية، والألسن البشرية، لكنها جزر لا تكاد تنفصل عن بعضها بعض تماما حتى تدرك يسر الانتقال من إحداهن إلى أخرى، وتجد نفسك منساقا إلى إعادة النظر من جديد في ما قرأت من قبل. إن انتهاج فرديناند دو سوسير للكتابة المجزأة « écriture fragmentaire » في مخطوطاته يبدو أنه ناتج عن طبيعة الموضوع ذاته، لأن المدخل إلى علم اللغة والألسن ليس له باب واحد، ولا منفذ وحيد، ولقد أعلن عن هذه الحقيقة منذ الصفحة الأولى من كتاب في جوهري اللغة، إذ كتب يقول: « يبدو في الواقع مستحيلا، في اللسانيات، تفضيل إحدى الحقائق على غيرها حتى تغدو المنطلق الأوّل، لكن ثمة حقائق أساسية، خمس أو ست، متصلة فيما بينها اتصالا وثيقا بحيث يحسن البدء بأي منهن فنصل منطقيا إلى الأخريات، ونصل إلى كل النتائج نفسها كما لو بدئنا بأي حقيقة أخرى »[254]. كما إن انتهاج هذا النمط من الكتابة باد في معاودته المستمرة في صياغة الفكرة الواحدة صياغات متعددة، تنم عن فكر قلق، شاك، لا يركن إلى الوقائع اللسانية التي تبدو حقائق حتى تُمحص معالمها تمحيصا وتستنفد مكنوناتها استنفاذا.

ويعبّر المحو في هذه الحالة عن المراجعة والعدول عن السالف من القول، وهو في غالب أمره، لاسيما في الثقافات الشفوية، يمّحي بدوره حين يمارس وظيفة المحو، خلافا للمخطوط من القول الذي كثيرا ما يحتفظ بآثار واضحة للمحو، تمثلها الشطوب التي يتنازل بها الكاتب عن الفكرة في سبيل

---

[254] - فردیناند دو سوسير، في جوهري اللغة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، تر. مختار زواوي، بيروت، دار ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية، 2019، 156.

الأخرى، أو بالكلمة عن الأخرى، أو بالفقرة كلها لتحل محلها فقرة أخرى. إن المحو في أغلب أحواله محو بان، وهو على هذا النحو بارز في المخطوطة التي أطلق عليها الباحثون ملحوظة « alka »، وهي تتألف من 16 ورقة، يرجح أن دو سوسير حررّها خلال عام 1896، وهي المخطوطة الذي استند إليها لويس برييتو في التأسيس لسيميولوجياته.

وفي هذه المخطوطة، مثلها كمثل عدد كبير من مخطوطات دو سوسير، تتواشج الكتابة اللسانية بالتفكير اللساني، فهي ما تزال تحتفظ بالآثار التي خلّفتها المسالك التي سلكها التفكير السوسيري في سبيل تبيان الفكرة التي رام التعبير عنها، فيبقي منها على الفقرات التي رضي عنها، ويشطب تلك التي لم يرتضيها. كما إن هذه المخطوطات تختزن من الجمل والعبارات ما يدُل على البرامج الحجاجية[255]، التي تسير التفكير، كتلك التي استخرجتها كلودين ميجيا من هذه المخطوطات، كقوله: «يجب الاسترسال»، أو «يجب دراسة كلمة التعبير»، أو كقوله «توضيح أن مصطلح عبارة شأنه شأن مصطلح علامة، لم يكن ليحتفظ بدلالة مادية أو عكس ذلك»، أو «الانتباه إلى»، أو «النظر في شأن المقارنة التكتيكية»، أو «ولكن ليس ذلك ما كنت أنوي قوله، لقد انحرفت»، «إن الغريب في الأمر»، «هل هذا الاختلاف مبرر؟»[256]، وغيرها من العبارات التي تعبر عن مساءلة الفكر لنسفه مساءلة متواترة، تنم عن طريقة تفكير واع بصعوبة التعبير عن الوقائع اللسانية.

إنّ هذه العبارات التي تتخلل مخطوطات دو سوسير، وتسهم في توجيه تفكيره اللساني، ليست المؤشرات الوحيدة الدالة على الفوارق الخطابية التي باتت تميز كتابات دو سوسير الأصلية عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أو كراسات طلبته الذين دونوا عنه خلاصة تفكيره، فالشطوب تعبر هي الأخرى عن حالة من وعي التفكير بذاته، فلا يرضى التدبر العلمي في المسألة المنظور فيها من الفقرات أو العبارات أو الكلمات إلا إذا ما اتسق منها وفق برنامج حجاجي واضح، وإلا كانت مصيرها المحو، كما هو حال الفقرة الأولى من المخطوط الذي يعنينا ههنا، أي ملحوظة « alka »، فهي تبرز مشطوبة

---

[255] - L. Lundquist, « Cohérence : marqueurs d'orientation argumentative et programme argumentatif, Semantikos, vol. 9, n° 2, 1986, pp. 1-20.

[256] - Cl. Mejia, « L'aposème, unité de parole », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 52, 1999, p. 238.

بخط عمودي مائل قليلا إلى اليمين، يتبعها إلى الأسفل خط أفقي قصير دال هو الآخر على تغيير محل الابتداء منها إلى الفقرة التي تليها. لكن الشطوب ليست في كل أحوالها مواد علمية يستغنى عنها الباحث اليوم كما استغنى عنها دو سوسير بالأمس من باب المعلوم عنده بالضرورة، فهي فضلا عن انتمائها إلى مسار سردي (معدل ومحيّن)، تعد اليوم، هي الأخرى، أصلا من أصول التفكير السوسيري.

إنّ الشطوب التي ما تزال تحتفظ بها مخطوطات دو سوسير ليست خصيصة للنصوص في اللسانيات العامة، بل إن الفكر السوسيري لطبيعة القلقة، التي لا تركن إلى لما هو أجود، مارس المحو أيضا في تجاربه الأخرى مع نصوص أخرى، وهي فضلا عن تفسيرها لطبيعة الأسلوب الحجاجي للفكر السوسيري، تمكن الباحث المعاصر من فهم النشأة الأولى للمفاهيم والتصورات السوسيرية، وفي هذا الشأن، لاحظ جون ستروبنسكي، وهو يقدم كتاب «الكلمات تحت الكلمات» الذي خصصه لجناسات دو سوسير، آثارا كثيرة للمحو في كراسات دو سوسير التي حققها، وعلّق على إحدى هذه الشطوب قائلا: «إن من بين هذه الشطوب لذو دلالة مميزة، ويتعلق الأمر ههنا بكلمة التيمة، فقد كان دو سوسير استعمل أوّل الأمر ملحها كلمة النص، لكنه محاها واستعاض عنها بكلمة التيمة»[257]، ثم ينتهي إلى القول: «لقد فكّر دو سوسير إذن في نص تحت النص، أو في ما قبل النص، بمعنى التام الكلمة»[258]. ولسنا نعجب بعد الآن إلى التسمية التي ارتضاها جون ستروبنسكي لتجربة دو سوسير مع الجناسات، «نص تحت النص»، وهي العبارة التي بات يتداولها الباحثون من بعده.

لم يكن لكتاب الأصول المخطوطة لكتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، على الرغم من الأهمية الكبرى التي ينطوي عليها في فهم فكر دو سوسير الفهم السديد، التأثير البليغ في أدبيات اللسانيات في النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى الرغم كذلك من التقارير التي رافقت، أو تلت نشره، عام 1957. ولكن آن لنا الآن أن نستثني من هذا الحكم تأثيره في أدبيات السيميولوجيات، وبعبارة أخرى، فإن الفيلولوجيات السوسيرية كان لها في

---

[257] - J. Starobinski, Les mots sous les mots. Les anagrammes de Ferdinand de Saussure, Paris, Gallimard, 1971, p. 23.

[258] - Ibid.

دائرة السيميولوجيات، لاسيما الفرنسية منها، تأثير مباشر، إذ إن سيميولوجيات لويس برييتو وسيميولوجيات رولان بارت استندتا إليها قصد التقعيد لتصوراتهما. أما لويس برييتو فقد استند إلى مخطوطة من مخطوطات دو سوسير التي حققها غودال ونشرها عام 1954، ضمن مجموعة المخطوطات التي أشرنا إليها سالفا، فكتبت كلوديا ميجيا قائلة: «شرع روبار غودال في نشر مسودات دو سوسير ضمن مجلة كراسات فرديناند دو سوسير، ونشر، على وجه الخصوص، ملحوظة « alka » ضمن العدد الثاني عشر من المجلة (1954)، وتناولها بتحليل مفصّل في أطروحته لعام 1957. لقد قرأ لويس برييتو هذه المنشورات وأعد عنها تقريرا لقراء مجلة « Word » (المجلد الرابع عشر). لقد كان برييتو ترجم كتاب تروبتسكوي، مبادئ في الفونولوجيات، وكان قارئا متمرسا لكتاب بويسنز، اللغات والخطابات، وإن ملحوظة « alka » هي التي كانت مكنته من الربط، على المستوى الإبستيمولوجي، بين مشروع تروبتسكوي الفونولوجي وسيميولوجيات بويسنز، وهو مستوى الرهانُ الأساسي فيه هو الإطار النظري للعلوم الإنسانية»[259].

وأما رولان بارت فقد كانت دروس السنة الثانية (1908–1909) التي ألقاها دو سوسير في اللسانيات العامة والتي حققها أيضا روبار غودال ونشرها عام 1957[260]، أي مباشرة بعد نشر أطروحته، المصدر الرئيس الذي نهل منه أولى تصوراته السيميولوجية، لاسيما مبادئه في السيميولوجيات التي نشرها عام 1964، ضمن العدد الرابع من مجلة « Communications » الفرنسية[261]، وهو العدد الذي اقترح في رولان بارت، في تقديمه له، تعريفا للسيميولوجيات، قائلا: «إن الدلالة التي نرتضيها لمصطلح السيميولوجيات، ونتعامل بها نحن الأوروبيون، تعود إلى فرديناند دو سوسير، أي بمعنى العلم الذي يدرس حياة العلامات ضمن الحياة الاجتماعية. ويمكننا القول من وجهة نظر استشرافية، إذ إن العلم ليس مؤسسا بعدُ، أن السيميولوجيات موضوعها

---

[259] - Cl. Mejia, « L'ouvrage d'un philologue artiste », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 58, 2005, p. 9.

[260] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale (1908-1909). Introduction (d'après des notes d'étudiants), éd. R. Godel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, 1957, pp. 3-103.

[261] - R. Barthes, « Éléments de sémiologie », Communications, n° 4, 1964, Recherches sémiologiques, pp. 91-135.

كل نسق من العلامات، مهما كانت مادته، ومهما كانت حدوده: إن الصور، والحركات، والأصوات الموزونة، وأشياء هذه المواد وتركيباتها التي نصادفها في الطقوس والبروتوكولات، والعروض، إن لم تكن كلّها عبارة عن لغات فهي على الأقل أنساق دلالية. لقد بات أكيدا أن تطور وسائل التواصل الاجتماعي أضحى اليوم يضفي على هذا الحقل المتنامي من الدلالة راهنية كبرى (مع التوكيد على ضرورة التمييز بين التواصل والدلالة)، في الوقت الذي بات فيه نجاح عدد من المواد العلمية كاللسانيات، ونظرية الإعلام، والمنطق الصوري، والأنتروبولوجيات البنيوية، يوفر للتحليل الدلالي وسائل جديدة»[262].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى الثراء المعرفي الذي تنماز به مخطوطات دو سوسير عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه، ويكفي الباحث الإشادة بها بالتوكيد على إثراء هذه المخطوطات لتوجهين رئيسين في دائرة السيميولوجيات الفرنسية، ونعني بهما سيميولوجيات الدلالية التي انتهجها رولان بارت وسيميولوجيات التواصل التي عمل على بلورتها وردّ النقود عنها، «إن أهمية سيميولوجيات التواصل لا تنجم، على نحو ما اعتقده رولان بارت، أو لا تنجم فقط، عن أهمية وسائل التواصل غير اللسانية. إن أهميتها تبرز من حيث إن اعتبار الوقائع التواصلية في جملتها هي التي تحدد وحدها سبب وجود آليات اللسان وخصوصيتها، ومن ثم، القدرة على تفسير الدور الرئيس الذي تضطلع به في تشكيل الفرد وفي حياة الأفراد الجماعية»[263].

لقد كانت كلوديا ميجيا في اعتقادنا هي الباحثة الأولى التي أدركت الصلة بين الفيلولوجيات السوسيرية وسيميولوجيات لويس بربيتو[264]، فقد انتهت في المقال الذي خصصته لتحليل ملحوظة دو سوسير « Alka » التي ألمحنا إليها قبل قليل، الصادر ضمن العدد الخمسين من عام 1997 من مجلة كراسات فرديناند دو سوسير، إلى القول: «لقد كتب دو سوسير الملحوظة « Alka » حوالي عام 1896، وإن بربيتو استطاع أن يحل الفرد المتكلم المحل الذي يحق به، من خلال الربط، على المستوى العام، بين الملاءمة والممارسة، وقد ميّز،

[262] - R. Barthes, « Présentation », Communications, n° 4, 1964, p. 1.

[263] - L. J. Prieto, « Sémiologie », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 50, 1997, p. 18.

[264] - L. J. Prieto, Pertinence et pratique. Essai de sémiologie, Paris, Editions Minuit, 1975.

فضلا عن ذلك، انطلاقا من التمفصل المزدوج، بين البنية التقابلية والبنية السيميائية، واقترح إطارا نظريا للسانيات بوصفها علما إنسانيا»[265]. إن الصلة التي استكشفتها كلوديا ميخيا بين فكر دو سوسير الأصيل، عن طريق الفيلولوجيات التي أتاحت للباحثين الولوج إليه من خلال تحقيق مخطوطاته الأصلية، وبين سيميولوجيات لويس برييتو، ينطوي على إقرار على راهنية هذه الأخيرة، وهي الراهنية التي عبر عنها أيضا أمبرتو إيكو عام 2007، حين كتب قائلا: «إنني أوصي اليوم بإعادة قراءة كتاب لويس برييتو، وهو شأنه شأن كتابات الأخرى، يبدو لي أن كان المبشر لكثير من النظريات وكثير من وجهات النظر التي عُبر عنها من بعد»[266].

وليست راهنية سيميولوجيات لويس برييتو بأحق بالتوكيد من راهنية سيميولوجيات رولان بارت، فقد استقت هي الأخرى من فكر د سوسير الأصيل، بما وفرته لها الفيلولوجيات السوسيرية، الأدوات اللسانية الإجرائية للتأسيس لنفسها، وهو ما ذهبت إليه كلوديا ميخيا عند تحليلها لملحوظة دو سوسير التي تعنينا، بتوكيدها على استناد رولان بارت إلى مقدمة محاضرات السنة الثانية (1908-1909) التي حققها غودال ونشرها، بقولها: «إن محاضرات السنة الثانية هي المحاضرات التي عرض فيها دو سوسير مشروعه السيميولوجي، وإن سيميولوجيات بارت منطلقها مما نشر منها عام 1957»[267]. ولعل الناظر في المبادئ في السيميولوجيات لرولان بارت التي نشرها أوّل الأمر عام 1964، ليدرك أوّل ما يدرك عزوف رولان بارت عن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، إذ لا يجد القارئ ذكرا له، بل إن الصفحات الأولى من المبادئ تحيل كتاب روبار غودال، الأصول المخطوطة لكتاب الحاضرات في اللسانيات العامة، وإننا نرى في هذا العزوف عن كتاب المحاضرات دليلا على وعي رولان بارت بالمسافة النقدية التي باتت تفصل كتاب المحاضرات عن كتاباته الأصلية، وأن جانبا كبيرا من فكره اللساني والسيميولوجي لم يعبّر عنه في هذا الكتاب، فقد أشار بارت في مذكراته إلى هذه المسافة التي باتت تفصل كتاب المحاضرات عن دو سوسير الحقيقي بقوله عن نفسه: «لقد كان يميل إلى العلماء الذين

---

[265] - Cl. Mejia, « Unde Exoriar », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 50, 1997, p. 110.

[266] - U. Eco, « La pertinence de Luis Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007, p. 39.

[267] - Cl. Mejia, « Unde Exoriar », p. 101, n 14.

كان يبدو عليهم التوتر، والرجف، والهوس، والهذيان، والعدول، ولئن كان استفاد بشكل كبير من كتاب المحاضرات، إلا أن دو سوسير بات أهم لديه منذ أن تعرف على اشتغاله بالجناسات»[268].

ولقد أبرز رولان بارت الأشواط التي قطعها في مشروعه السيميولوجي، بمناسبة تقديمه لكتابه الجامع، المغامرة السيميولوجية، كما أبرز في الآن ذاته مدى تقدم معرفته بفكر دو سوسير الأصيل، أما المرحلة الأولى من مشروعه السيميولوجي فهي مرحلة الميتولوجيات[269]، التي تبدأ بعام 1956، وهي المرحلة التي تعرّف فيها بارت أوّل الأمر على دو سوسير (من خلال كتاب المحاضرات)، وكانت السيميولوجيات آنذاك بالنسبة إليه مجرد مشروع، كما كانت أيضا على هذا النحو في كتاب المحاضرات. لكن المرحلة الثانية، وهي مرحلة العلم كما يسميها، فإنها تبدأ بعام 1957، تاريخ صدور كتاب الأصول لغودال، ونشر هذا الأخير لمحاضرات السنة الثانية (1908-1909) في اللسانيات العامة لدو سوسير، وهي المرحلة التي عكف فيها بارت على الاشتغال على الموضة[270]، وعلى بلورة المبادئ في السيميولوجيات. وإننا لو وضعنا كتاب المبادئ هذا في مقابل مقدمة دروس السنة الثانية (1908-1909) في اللسانيات العامة لدو سوسير، لأظهرت لنا المقارنة بين النصين مدى القرابة المفهومية والاصطلاحية التي تجمع بينهما. لكن المقارنة هذه لن تتبع بالضرورة المسارين اللذين سلكهما دو سوسير وبارت في عرض مشروعيهما السيميولوجيين، بقدر ما تعتمد على تتبع آثار المشروع الثاني المستثمر للمشروع الأوّل. ولقد ارتبطت السيميولوجيات في بدايات مشروع رولان بارت بالعلاقة الجدلية القائمة بين الدال والمدلول، العنصرين المؤسسين للعلامة، ففي وصفه للأسطورة بوصفها نسقا سيميولوجيا، يقول: «يجب التذكير بأن كل سيميولوجيات تفترض علاقة ما بين عنصرين، دال ومدلول، وإن هذه العلاقة تخص شيئين من نمطين مختلفين، ولأجل ذلك ليس ثمة مساواة أو تكافئ بين الاثنين. ويجب الحذر من العرف الشائع الذي يقتصر على القول بأن الدال يعبّر عن المدلول، إذ إن الأمر يتعلق، في كل نسق سيميولوجي بثلاث عناصر وليس اثنين، إن ما أدركه ليس العنصر تلوى الآخر،

---

[268] - R. Barthes par Roland Barthes, Paris, Seuil, 1980, p. 163.

[269] - R. Barthes, Mythologies, Paris, Seuil, 1957.

[270] - R. Barthes, Système de la mode, Paris, Seuil, 1957.

بل هو التضايف القائم بينهما: ولذلك إن ثمة الدال، والمدلول، والعلامة التي هي الكل الجامع بين العنصرين الأولين»[271].

إنّ البحوث العربية اللسانية المعاصرة يجب أن تتجه، في اعتقادنا، إلى مدارسة النصوص السوسيرية الأصيلة، استئناسا بما حققته الفيلولوجيات السوسيرية من استكشافات أماطت اللثام عن خصائص كانت خفية من فكر دو سوسير اللساني والسيميولوجي (السيميائي)، وهي خصائص لا يمكن تلمسها بأي حال من الأحوال ابتداء من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إليه. إن تحقيق مخطوطات دو سوسير اللسانية ونشرها أخذ في التنامي في السنوات القليلة الأخيرة، فمهّد السبيل لمقاربات معاصرة راحت هي الأخرى تختبر آلياتها على النصوص السوسيرية المخطوطة، على نحو ما راحت تفعله علم أصول النصوص « génétique textuelle »، أو علم النص التكويني. وليست هذه المادة العلمية وليدة القرن الواحد والعشرين، بل كانت نشأت أثناء سبعينيات القرن الماضي على أعقاب النقد البنوي، وهي ترمي إلى «تجديد المعرفة بالنصوص عن طريق المخطوطات التي احتوت عليها، وتحويل السؤال النقدي من المؤلف إلى الكاتب، ومن النص إلى الكتابة، ومن البنية إلى السيرورة، ومن الأثر الأدبي إلى نشأته التكوينية الأولى»[272]. وليس التحوّل من هذه التسمية إلى تلك تحوّلا في الاصطلاح بقدر ما هو تحوّل عن النقد التأويلي التقليدي الذي ظل يتمسك بمقاصد الكاتب، وتحوّل عن النقد المقارن الذي ركن إلى استشعار الأساطير في النصوص، كما إنه أيضا تحول عن النقد التيمي، والنقد الفيلولوجي التقليدي[273].

ولئن انتهى فرانسوا راستيي في كتابه الأخير عن دو سوسير إلى القول: «يمكننا اليوم قراءة دو سوسير بطريقتين متكاملتين: يمكن للأولى أن تسعى إلى إعادة تشكيل الفكر السوسيري نسبة إلى لسانيات عصره، ويمكن للثانية أن تسهم في تطوير التيارات السوسيرية للسانيات المعاصرة»[274]، فما حض

---

[271] - R. Barthes, Mythologies, p. 185.

[272] - P.-M. de Biasi, La génétique des textes, Paris, Nathan, 2000, p. 9.

[273] - D. delas, La pensée saussurienne et la génétique des textes littéraires, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz, En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature ?, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, p. 97.

[274] - F. Rastier, Saussure au futur, Paris, Les Belles Lettres, 2015, p. 203.

اللسانيات العربية من كل هذا؟ إننا نجتهد في إعادة بلورة تعريف جديد للسانيات العربية، استئناسا بالمعادلة السوسيرية التي ما انفكت الدراسات السوسيرية الحديثة تتخذها برنامج بحث معاصر، وهي: «السيميولوجيات = المورفولوجيات، النحو، التركيبيات، الدلاليات، البلاغة، الأسلوبيات، المعجميات، الخ.، الكل متصل»[275]، مع التوكيد على أهمية عبارة «الكل متصل» التي تدل على ضرورة عدم الفصل بين مكونات البحث في اللسان العربي، والمبادرة إلى إعادة ترتيب ما اصطلح عليه اللغويون العرب الأوائل بعلوم العربية، من منظور التعاون العلمي « interdisciplinarité » الذي تكاد تفتقد إليه البحوث العربية المعاصرة.

---

[275] - فرديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، ص، 187.

اللّسان والإنسان والقطيعة الأنطولوجية
في كتابات دو سوسير الجديدة

لـم تعُد اللّغة، أو الألسن أحرى، موثوقة الصلة بعالم الأشياء، موصولة بها فلا تُؤدَى معاني الكلمات إلا بالإحالة إليها، ولـم يعد الباحثون المحدثون يحتفون بالتصور الذي ما انفك يحتفي به تاريخ اللسانيات منذ آراء أرسطو اللغوية، ونحو مدرسة بور روايال، ولسانيات القرن التاسع عشر المقارنة، وعددٍ من مدارس الفكر اللساني في القرن الماضي. لـم تعد الألسن البتة مدوناتٍ من أسماء تحيل إلى أشياء. إن النقلة هذه تحققت في فكر دو سوسير، وتجسدت في كتاباته ومحاضراته ومذكراته ومقالاته ورسائله وتقاريره ومخطوطاته.

ولـم نكن، قبل سنة 2002، تاريخ نشر عدد من مخطوطاته الأصلية، ننفذ إلى فكره إلا من خلال كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، الذي ألّفه من بعد موته، شارل بالي وألبير سشهاي، استنادا إلى ما دونه عنه طلبته في أثناء المحاضرات التي ألقاها بجامعة جنيف فيما بين سنتي 1907 و1911، وظل كتاب المحاضرات هذا المؤلف الفريد في نشأة اللسانيات الحديثة، على الرغم من كل ما احتوى عليه من خلل، واضطراب، وسوء ترتيب، وزيادة، ونقصان، واختزال، وتفريط، في أفكار دو سوسير الأصيلة التي لا يمكن التحقق من أصالتها إلا بالتخلي عن كتاب المحاضرات والإقبال على الكتابات المنشورة سنة 2002، والعودة من جديد إلى دو سوسير.

لـم يعد الإنسان، أو الفرد المتكلم أحرى، في كتابات دو سوسير الجديدة، تأسره الأشياء فلا يعبر إلا بها، بالإحالة إليها، تارة إحالة مباشرة تعيينية، وتارة أخرى إحالة مجازية تضمينية. إن التصور هذا تصور عقيم، لأنه لا يستكشف طبيعة اللسان الحقيقية، ولا يعي كنهها، ولا عميق جوهرها. لأن وجود الكلمات غير متصل بوجود الأشياء، أو الموجود المادي، بل هو في انفصال تام عنه، لأن محله الذهن، ذهن الفرد المتكلم الذي يختزن نسقا من العلامات اللسانية. إن الكلمات، بانتمائها إلى هذا النسق، لا تستقي دلالاتها مما يعتقد أنها تحيل

إليه، بل تستقيها من الاختلافات التي تقيمها مع كلمات أخرى من نمطها، بحيث يغدو لكل واحدة منهن قيمة محددة، يستأنس إليها الفرد وتقرها المجموعة اللسانية.

إن استخلاص اللسان، موضوع اللسانيات، من القبضة الأنطولوجية حرر اللسانيات من قبضة طرائق علوم الطبيعة التي ظلت السبيل الذي سلكته لسانيات القرن التاسع عشر في مدارسة الوقائع اللغوية، لكن اللسانيات عادت، في النصف الأوّل من القرن العشرين تقيم الصلة الوثقى بين اللسان وواقع الأشياء من جديد، واستقر هذا التصور في أدبيات اللسانيات الحديثة منذ أن وضع أودغن وريتشارد مثلثهما الدلالي، واستندا إليه للإقرار بالعلاقة السببية التي تنعقد، من وجهة نظرهما، بين العلامات والأفكار، فإذا ما كانت العلامات دالة، فهي كذلك لأنها تقرر شيئا ما، وهو العلاقة القائمة بين الأشياء والأفكار[276]، وجرى ليونس مجراهما وأقر بتصورهما، «لقد أضحى من المعتاد القول إن العبارات، وليست المفاهيم، تحيل إلى الأشياء، (وهي تمثيل لها)، وإننا نأخذ نحن أيضا هذا بهذا الاستعمال»[277].

ولقد أسهمت دلاليات أودغن ورتشارد في إرساء دعائم هذا التصور، وهو تصور يعقد الصلة بالفكر اليوناني، فقد كانت فلسفة اللغة منذ أفلاطون وأرسطو ومن حذا حذوهما من فلاسفة القرون التي خلت غالبا ما تتصور اللغة بوصفها أداة تحيل إلى واقع الأشياء من خلال التوكيد على الخصائص التالية التي وسمت بها: 1) إن الألسن عبارة عن جملة من الأسماء التي تشير إلى موجودات، 2) إن وظيفتها التعبير عما هو كائن موجود، 3) إن أصل المعنى يجب البحث عنه في الموجودات، بحيث إن معاني الأسماء تنصهر مع ما تحيل إليه، وهي بذلك معاني قابعة خارج اللسان، 4) إن طبيعة الموجودات المحال إليها هي التي يعنى النظر به، وليست طبيعة الإحالة التي تضطلع بها اللغة، من خلال ابحث عما إذا كانت هذه الموجودات المحال إليها حقائق، أو أحاسيس، أو أفكار، أو غير ذلك، 5) إن البحث في وظيفة اللغة الإحالية تقع موقع الصدارة من الخطاب الفلسفي، لأن الفلسفة تعد في جانبها الأعم أنتولوجيات، أي خطاب حول الموجود، حول الواقع الخارجي.

---

[276] - C. K. Odgen & I. A. Richards, The Meaning of Meaning, New York, Harcourt, Brace & World, Inc, 8 éd., 1946, pp. 10-11.

[277] - J. Lyons, Eléments de sémantique, tr. J. Durand, Paris, Larousse, 1978, p. 84.

وتلقفته معظم النظريات اللسانياتية فراحت تسعى إلى تطويره أو التوفيق بينه وبين التصور السوسيري، وتمخضت عن هذا التوفيق مجموعة من المثلثات من مثل مثلثات أولمان (1952)، وهيغر (1965)، وبالدينغر (1966)، وغيرهم من الباحثين الذين عاودوا النظر في تصور أودغن وريتشارد لطبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والواقع، لكنهم فعلوا ذلك من وجهة النظر التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، وهي الوجهة التي لا تعبر عن تصور دو سوسير الأصيل تعبيرا صادقا. ولقد استندت جل هذه البحوث إلى ما أثبته شارل بالي وألبير سشهاي ضمن الفصل الأول من الجزء الأول من كتاب المحاضرات[278]، وهو الفصل الذي يعنى بالتعريف بالعلامة اللسانية وبطبيعتها.

وليس لنا أن نعاود التذكير، في هذا المقام، بضرورة وضع كتاب المحاضرات المنسوب إلى دو سوسير جانبا والإقبال على نصوص دو سوسير الأصلية الأصيلة، فقد عقدت فعلا ثلة من الباحثين في البلدان العربية من مثل المغرب، والجزائر، والمملكة السعودية ومصر، وغيرها، هذه الصلة، وإننا نرجو أن تثمر هذه الجهود الرائدة في تحقيق النقلة التي نترقبها عن كثب. ولقد تجسدت القطيعة الأنطولوجية في كتابات دو سوسير الجديدة من طرائق شتى، أقربها، في نظرنا، في تعريف اللسان بوصفه نسقا من العلامات التي لا تستقي وجودها إلا من خلال العلاقات التي تقيمها فيما بينها، وهي علاقات الاختلاف.

إن التعرف على تصور دو سوسير الأصيل لطبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والواقع لا يتحقق إلا بتحليل نقدي لما جاء في كتاب المحاضرات في اللسانيات العام المنسوب إليه، في ضوء ما استجد من لسانيات دو سوسير واستنادا إلى ما حُقق من مخطوطاته المودعة بمكتبة جنيف. لقد باتت كتابات دو سوسير المنشورة حديثا منفذا قويا لتصوره الأصيل، وإن المتأمل في المقال الذي أعدّه سنة 1894 عن ويتني، تبرز أمامه بكل وضوح، خلافا لما هو عليه الأمر في كتاب المحاضرات، خاصية استقلال العلامة عن الواقع، مستعملا لذلك مصطلح العلامة المستقلة، ويقول مثلا في إبراز هذا الموقف: «لعل الفلاسفة، والمناطقة، وعلماء النفس تمكنوا من إطلاعنا على العقد الذي

[278] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration de A. Riedlinger, pp. 97-100.

ترتبط الفكرة بموجبه بالعلامة، وتحديدا بين الفكرة والعلامة المستقلة. ونحن نعني بالعلامة المستقلة أصناف العلامات ذات الخاصية التي تتمثل في افتقادها لكل رابطة مع الشيء المراد الإشارة إليه»[279]. إن توكيد دو سوسير على استقلال اللغة عن الواقع يستند إلى عدد من المبررات والحجج، لعل أهمها، في نظره، يكمن في ميزتيها الرئيستين، فهي في الآن ذاته مواضعة وإرث تاريخي.

إن الألسن لا تقيم، في تصور دو سوسير، علاقة مباشرة بعالم الموجودات، وليست بأي حال من الأحوال مرايا عاكسة، ولا هي وظيفتها الأولى تمثيل هذه الموجودات تمثيلا وفيا صادقا عنها. إن الألسن، أو الكلمات، أو الكيانات التي تفترض اللسانيات وجودها، وتسعى إلى استكشاف طبيعتها وجوهرها، ليس لها وجود إلا وجودها في ذهن الفرد المتكلم، وليس لها من قوام « substratum »، إلا ما تقيمه من علاقات سالبة فيما بينها، وإن اللغوي الذي يعنى بالصوتيات، أو المورفولوجيات، أو التركيبيات، لهو، في تصوره، إذا ما انتهج وجهة النظر هذه القائمة على العلاقات السالبة، على النقيض مباشرة بعالم الكيمياء، أو عالم الأحياء، مثلا، اللذين إذا اشتغلا بأشياء معنية من حقليهما، فإنما يشتغلان بأشياء لها وجود في ذاتها، أما هو فلا، إنه يشتغل على أشياء لا وجود لها إلاّ في الذّهن.

---

279 - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, p. 209.

دو سوسير والشِّعر العربيّ

نروم الحديث، في هذا المقال، عن مسألتين اثنتين: عن سر اهتمام فرديناند دو سوسير (1857-1913)، مؤسس اللسانيات الحديثة، بالإيقاع، وعن موقع الشعر العربي من البحث في هذه الواقعة الشعرية. وتندرج هاتين المسألتين السؤالين ضمن مشروع العودة من جديد إلى فكر دو سوسير، نتيجة العثور، سنة 1996، على مخطوطات في اللسانيات العامة ومسائل أخرى. وقد قاد هذا الاستكشاف الباحثين المعاصرين إلى معاودة النظر في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة بالنقد والتمحيص من جهة، وفي مراسلاته العلمية، ومذكراته الخاصة، ومحاضراته، ومقالاته المنشورة، وبحوثه الأكاديمية، بالبحث والتنقيب من جهة أخرى، قصد تبديد الصورة النمطية التي توارثتها، عنه، أجيال من الباحثين، تختزل هذا الفكر المتنوع المتعدد، في جملة من المقولات، بات جليا أنها لا تعبر عنه تعبيرا سديدا.

ولعل أهم النتائج التي خلص إليها هذا المشروع وفاتحته التوكيدُ على عدم فصل دو سوسير بين لسانيات اللسان ولسانيات الكلام، خلافا لما كان يعتقد من أن لسانيات دو سوسير لـم تكن تُعنى بالفرد المتكلم، واكتفت بمقاربة اللسان مقاربة آنية، محايثة، على نحو ما يزعم كتاب المحاضرات المنشور من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، وجملته، المشهورة، المزعومة، التي اختتماه بها: «إن موضوع اللسانيات، الوحيد والحقيقي، هو اللسان، في ذاته ولذاته»[280].

لقد ركنت لسانيات القرن الماضي إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فأسست لنا مدارس وأنشأت نظريات راحت تتدارس الوقائع الشعرية قصد استكشاف بنية النص (نثرا كان أو شعرا) والتعريف بالعلاقات التي تقيمها عناصره فيما بينها، ولو أنها اهتدت إلى استكشاف مخطوطات دو

---

[280] - F. de Saussure, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye avec la collaboration de A. Riedlinger, édition critique de T. de mauro, Paris, Payot, 2005, p. 317.

سوسير، وتحققت من بحوثه في الشعر اليوناني، والشعر الفرنسي، وغيرها من اهتماماته الأدبية، لأدركت أنه كان يروم استحداث نسق مفهومي يقارب به الواقعة الشعرية مقاربة أصيلة جديدة. لكن قلة تحقيق مخطوطاته المودعة بمكتبي جنيف وهارفارد ونشرها، وقلة العناية بتكوين دو سوسير العلمي والفلسفي واللساني، حالا دون فهم سديد لهذا الفكر المتعدد، وسدّ المنافذ دون إمكانية الولوج إلى عالمه وتحديث مشروعه.

معارف دو سوسير الأدبية واللسانية والترجمية

لقد كان لدو سوسير، خلافا لما هو مُغيب عنه في أدبيات اللسانيات الحديثة، اهتمام بالأدب والشعر والترجمة، فقد باتت المعرفة العلمية، والأدبية، واللسانية منذ بدايات نضج مشروعه الفكري، أهم روافد تفكيره اللساني، فقد حصّل دو سوسير منذ مراحل تعليمه الابتدائية الأولى، أي إلى نهاية سنة 1872، معرفة جيدة في عدد من الألسن، من مثل الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية، واليونانية، واللاتينية، وهي المعرفة التي ألـهمته الرغبة في صياغة نسق شمولي للألسن. لكن هذه المعرفة ما كانت لتستوي دون معرفة باللسان السنسكريتي، لأجل ذلك، انكب دو سوسير، بإيعاز من أدولف بكتي، على تعلم هذا اللسان، لما كان له من أهمية بالغة في الدراسات المقارنة آنذاك، من خلال قراءة كتاب النحو المقارن لفرانز بوب، منذ سنة 1874.

وليس لنا أن نعيد التوكيد على أهمية موقع اللسان السنسكريتي ضمن معادلة اللسانيات التاريخية المقارنة، إذ بات منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر عنصرا رئيسا في ممارسات النحاة المقارنين، ومن حذا حذوهم على امتداد النصف الثاني منه والعصر الذي تلاه، وسعيها إلى إثبات القرابة بين الألسن الهندية الأوروبية. ولأننا أرجأنا الحديث عن علاقة فكر دو سوسير بالفكر الهندي إلى الفصل الثاني من الباب الثاني، فإننا نقصر الحديث عن معارفه اللسانية والترجمية بالألسن اليونانية، واللاتينية والألمانية.

ولقد تجلت معارفه اللسانية هذه في مجال الترجمة، فقد بات معلوما أن دو سوسير مارس منذ سنوات المدرسة، كما هو معهود في برامج التعليم الابتدائي بسويسرا، تمارين في الترجمة في الفترة الممتدة بين 1872 و1874،

ولئن لم ترتقي الترجمة آنذاك إلى مستوى الحرفية، إلا أنها كانت تدرس في سبيل تعليم الألسن الأجنبية. بيد إن إقبال دو سوسير على الترجمة سرعان ما تجاوز أطر التعليم المؤسساتي، فأورثته ممارستُه لها حبا لها، وتعلقا بالترجمة الشعرية التي باتت بالنسبة إليه ميدان اختبار وإبداع.

ولقد احتفظت مكتبة جامعة جنيف بعدد من هذه المحاولات التي تحصلت عليها ضمن ما تحصلت عليه سنة 1996 من مخطوطاته. ولقد عكف عدد من الباحثين المحدثين على إبراز منزلة الترجمة من فكر دو سوسير اللساني، ففي أثناء السنوات الأخيرة من حياته، وفي أثناء محاضرات السنة الثالثة (1910–1911) من محاضراته في اللسانيات العامة، التي نشرها شارل بالي وألبير سشهاي، اجتهد دو سوسير في إبراز ما يمكن أن يجنيه اللغوي من أبحاث المترجمين، وأشار هنالك إلى الدور الذي تضطلع به الترجمة في ثبات الألسن[281]. أما معرفته باللسان اليوناني فقد تجلت في ترجمته لعدد من أشعار اليونان وتجسدت فيها، من مثل ترجمته للشاعر اليوناني إسخليوس « Aeschylus » (525–456 ق.م.) الذي نقل عنه إلى الفرنسية قصيدة أجاممنون « Agamemnon »، وقد نقلها إلى العربية لويس عوض وقدّم لها بمقدمة فيها اجتهد في التعريف بالفن الذي ينتمي إليه نص أجامـمنون، وهو الفن التراجيدي.

إن إقبال دو سوسير على ترجمة نص من نصوص إسخليوس يدّل على معرفته المتقدمة بالفكر اليوناني القديم وبلسانه، على الرغم من حداثة سنة، وعلى الرغم كذلك مما تكتنف ترجمة الشعر اليوناني من صعوبة. ولقد ألمح لويس عوض في مقدمة ترجمته إلى أدب إسخليوس عندما سجل أهم النقود التي وجهت إليه، قائلا: «ولعل أهم الأركان في نقد أدب إسخليوس ثلاثة: أولها كلفه المسرف بفخامة اللغة وبجلال الشعر ورفعة الفكر إلى حد جعل أسلوبه موضع نقد القدماء، ومنهم من نبه، مثل أرسطوفانيس في كوميديا الضفادع بغلوه وافتعاله وشموخه فوق رؤوس السامعين»[282].

281 - C. Mejía Quijano et N. Restrepo Montoya, « F. de Saussure, traducteur », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 61, 2008, pp. 175-177.

282 – إسخليوس، أجممنون، تر. لويس عوض، القاهرة، الدار القومية للنشر والتوزيع، د. ت.

إن أهمية الفكر اليوناني وآثاره الأدبية بالنسبة لأدباء القرن التاسع عشر ولغوييه لا يخفى على أحد، فقد باتت آداب اليونان تدرس للناشئين منذ المراحل التعليمية الأولى، وفي هذا السياق نكتفي بالإشارة إلى المكانة التي باتت أعمال إسخليوس تحظى بها فقد ترجم عنه إلى اللسان الألماني واحد من أبرز مفكري القرن التاسع عشر ولغوييها، وليام فان همبولد (1767-1835)، سنة 1816[283].

ولقد قادت عناية دو سوسير بالفكر اليوناني وبلسان اليونان بعض الباحثين المحدثين إلى البحث عن صلات قربى، أو خصائص مشتركة بين لسانيات دو سوسير وسيميائياته والفكر الفلسفي اليوناني، ولقد برزت، من ضمن ما حقق من مخطوطاته الجديدة، مجموعة تحمل عنوان « items »، وهي نصوص متكونة من فقرات قصار، اختلف الباحثون المحدثون في تاريخ تحريرها، فمنهم من ردّها إلى التسعينيات من القرن التاسع عشر[284]، وهي في هذه الحالة معاصرة لكتابه «في جوهري اللغة»، والمحاضرات الافتتاحية بجامعة جنيف، ومنهم من أخّرها إلى السنوات الأخيرة من القرن، أي ما بين سنتي 1897 و1900[285]، بل إن منهم من اعتبرها نصوصا متأخرة جدا لـما تتميز به الأفكار التي تنطوي عليها هذه النصوص من نضج.

ولعل ما يلفت الانتباه من هذه النصوص اشتمالها على نظرات في فلسفة العلامة، والشبه الكبير مع نظرات الرواقيين الفلسفية حول العلامة. ولقد بدت ملامح الشبه بين الفكريْن توحي إلى علاقات تأثير وتأثير، لاسيما على المستوى المصطلحاتي، فقد اقترض دو سوسير عددا من المصطلحات عن اللسان اليوناني، إذ استعملت هذه النصوص مصطلح « sème » للدلالة على مصطلح العلامة بدلا من المصطلح « signe »، الذي يشيع استعماله في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ومصطلح « sème » هذا مقتبس، عن طريق النقحرة، أي النقل الحرفي، من المصطلح اليوناني « σημα »، أي سيما.

---

283 - Wilhelm von Humboldt, Aeschylos Agamemnon, Leipzig, Bei Berhard Fleischer, 1816, pp. 73-101.

284 - S. Bouquet, Introduction à la lecture de Saussure, Paris, Payot & Rivages, 1997, p. 280.

285 - R. Engler, « European Structuralism : Saussure », in Current trends in Linguistics, vol. 13, Historiography of Linguistics, The Hague-Paris, Mouton, 1975, p. 840.

والظاهر مما تناقله الباحثون المحدثون من أن دو سوسير كان لجأ إلى هذا المصطلح حتى ينأى عن مصطلح « signe » الذي لا يوحي استعماله الشائع إلا إلى الجانب المادي من العلامة[286]، كما يوحي إليه تعريفه للمصطلح الجديد بقوله: «إن كلمة « sème » تزيل، أو تسعى إلى إزالة كل هيمنة، أو كل فصل بين الجانب الصوتي والجانب الفكري للعلامة. إنها تمثل العلامة كلّها، أي العلامة والمعنى كما لو كان مجتمعين في شخصية واحد»[287].

ولئن بدا مصطلح « sème » مصطلحا جديدا بالنسبة لمتلقي فكر دو سوسير اللساني لاعتيادهم على مصطلح العلامة « signe » الذي روج له كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، فإنه، أي المصطلح « sème » مصطلح متداول في أدبيات سيميائيات غريماس وقد نقله الباحثون العرب المحدثون إلى اللسان العربي بمصطلح السيم. ولقد انقاد دو سوسير نتيجة انزياح مصطلح العلامة في أدبيات لسانيات عصره عن الكلية التي يجب أن يدل عليها، أي المجموع المكون من الجانب المادي والجانب الفكري، إلى اتخاذ مصطلح « sème » واشتقاق مصطلحين آخرين يعبران عما يراد بها اليوم بالدال والمدلول، وهما مصطلحي « aposème »، و« parasème ». لقد كان دو سوسير لا يركن البتة إلى المصطلحات التي تداولتها أدبيات لسانيات عصره، كما لم يكن سريع الاطمئنان للمصطلحات التي كان يستخدمها، ولقد لخص فرانكو لو بيبارو الغاية التي كان يرجوها دو سوسير من خلال لجوءه إلى الاقتراض عن اللسان اليوناني فقال: «إن العقبة التي كان على دو سوسير تخطيها تتمثل في البحث عن اصطلاح يعبر، تعبيرا لا يعتريه اللبس، عن مسائل ثلاث هي: أولا الطبيعة المزدوجة للسام، الذي قام مقام مصطلح العلامة، ثانيا ارتباط وجود الجانب المادي بوجود السام، وثالثا كون الدلالة مرتبطة هي الأخرى بالسام وإحالتها إلى سامات أخرى»[288].

وأما معرفة دو سوسير باللسان اللاتيني فقد تجلت هي الأخرى في ممارساته الترجمية، إذ قام بترجمة جزء من آثار اللاتينيين، فنقل إلى

[286] - F. Lo Piparo, « Saussure et les Grecs », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007, p. 140.

[287] - F. de Saussure, « Anciens Items (Edition Engler 1968-1974) », in Ecrits de linguistique générale, p. 105.

[288] - F. Lo Piparo, « Saussure et les Grecs », pp. 142-143.

الفرنسية شيئا من أشعار هوراس، ولقد نقل الباحثان ميجية كيخانو وراستريبو مونتويو جانبا من هذه الترجمة، لكنها أشارت كذلك إلى أن دو سوسير، إلى جانب ممارسته للترجمة الشعرية في حداثة سنه، قام بدراسة تشبيهات هوراس ووقف عند العلاقة القائمة بين الموضوعات التي يحيل إليها الخطاب والمعنى المجازي الذي تنطوي عليه هذه التشبيهات[289].

وأما معرفته باللسان الألماني فقد تجلت في ترجمته، في أثناء مقامه بباريس، لمقال زميله بليبزغ، جوهان بوناك (1854-1928)، والغالب أن المقال هو «ملاحظات حول أشكال الضمائر في الألسن الآرية، واليونانية واللاتينية، الذي نشر بدفاتر جمعية باريس اللسانية سنة 1882»[290]. ولقد كان دو سوسير أشار إلى هذه الترجمة في إحدى رسائله التي بعث بها إلى أمه، وهي منشورة ضمن الجزء الأول من كتاب كلوديا ماجية كيخانو حول سيرة دو سوسير[291]. ولئن دلت الترجمة على معرفة متقدمة باللسان الألماني، فإن دو سوسير كان متشبعا باللسان الألماني منذ صباه، وكنا أشرنا إلى محاولته الأولى التي سعى فيها إلى ردّ كلمات الألسن اليونانية، واللاتينية والألمانية إلى عدد محدود من الجذور، كما إن مقامه بليبزغ مكّنه من التفقه في هذا اللسان أكثر من غيره من الألسن الأجنبية لاتصاله المباشر به وبالثقافة الألمانية، لمدة تزيد عن أربع سنوات، بليبزغ أولا، ثم ببرلين فيما بعد.

ولـم ينتهي اهتمام دو سوسير بالترجمة عند هذا الحد من الممارسات، بل إن فكره اللساني كثيرا ما كان يقيم مع الترجمة ونقدها جسورا نظرية، فقد أشار الباحثين أيضا إلى دو سوسير كثيرا ما كان، في أواخر حياته، أي في فترة تدريسه لمادة اللسانيات العامة التي تمخض عنها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنشور من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، يلجأ إلى الترجمة بغية تفسير عدد من المسائل اللسانية، فقد أشار مثلا في خضم السنة الجامعية الثالثة من دروسه في اللسانيات العامة إلى الدور الذي تضطلع به

---

[289] - C. Mejía Quijano et N. Restrepo Montoya, « F. de Saussure, traducteur », p. 177.

[290] - Ibid.

[291] - C. Mejía Quijano, Le cours d’une vie. Portrait diachronique de Ferdinand de Saussure, Tome 1, Nantes, Cécile Defaut, 2008, p. 369.

الترجمة في نقل الثقافات والألسن، وكيف يمكن للغوي الاستفادة من أعمال المترجمين[292].

مُراسلات دو سوسير العلميّة واهتمامه بالشّعر العربي

تحتلّ المراسلات العلمية موقعا متميزا من فكر دو سوسير اللساني لأنها كثيرا ما تميط اللثام عن جوانب، كثيرا ما كانت خفية، من مغامراته الفكرية، وهي فضلا عن ذلك معينا لا ينضب لكل ذي عناية باهتماماته الأخرى. ولقد كنا في مناسبة أخرى كثيرا ما لجأنا إلى عدد المراسلات العلمية التي تزامنت مع الإعداد لمشروع نشر كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة من قبل شارل بالي وألبير سشهاي، وأبرزنا هنالك دورها الفاعل في الكشف عما خفي من هذا المشروع. كما إن هذه المراسلات، لاسيما تلك التي تشارك فيها دو سوسير مع عدد من معاصريه، لا يقتصر دورها في إبراز عدد من الظروف الخارجية التي أحاطت بتطور فكر دو سوسير العلمي، بل إنها غالبا ما تسهم في حسن تمثله، كما هو الشأن مثلا بالرسالة التي أحطنا بها خبرا، من قبل، وعرّفتنا بسمة التعالق القائمة بين عدد من مخطوطاته، أو ما أسميناه بالتناص الداخلي الماثل في كتاباته ومحاضراته.

لقد كانت لدو سوسير مراسلات غزيرة على الرغم من ثقل مسؤولياته الإدارية، والتعليمية، والبحثية، وهي من هذه الناحية تبدد الفكرة القائلة بأنه كان رجلا منطويا، لا يرنو إلى نتاج غيره الفكري إلا لماما، ومفكرا ميالا إلى العزلة إلا إذا اضطرته الحاجة إلى التواصل. إن في هذه الفكرة الرائجة في عدد من دوائر الفكر اللساني العربي كثير من الإفراط، وقليل من التفريط، ونحسب أننا لا نغالي لو زعمنا أن الجانب التراسلي من فكر دو سوسير لا يزال هو الآخر بحاجة إلى اهتمام من قبل الباحث العربي لـما تستكشفه هذه المراسلات من خبايا، وهي تعد من هذا المنظور واحدة من الوثائق التي أضحت عند مؤرخي اللسانيات مصادرا لا يمكن الاستغناء عنها.

وليس هذا ديدن تاريخ اللسانيات فقط بل إن تاريخ العلوم عموما لا ينفك يستقصي من فن التراسل ما أورده العلماء وتناقلوه من ظروف خاصة

---

[292] - C. Mejía Quijano et N. Restrepo Montoya, « F. de Saussure, traducteur », p. 177.

أحاطت بإنجازاتهم الفكرية. إن التراسل كان أهم طرائق التواصل العلمي بين الباحثين والعلماء ولا يزال، وإن اختلفت طرائقه في العصر الحالي، وظلت المراسلات حتى نهاية القرن التاسع عشر وعقود متوالية من القرن العشرين تعبر عن جوانب فكرية لا يجد لها الباحث المعاصر حضورا في كتب هؤلاء العلماء، بل كثيرا ما وجب اللجوء إليها قصد تفسير أمور أوجزوها فيها أو استغنوا عن ذكرها.

وبعدُ، فقد كانت لدو سوسير مراسلات علمية أشرك فيها عددا من معاصريه جملة من مسائله العلمية التي نظر فيها، وأطلعهم على بعض من تصوراته الفكرية التي لاحت له. لقد راسل، وراسله، أنطوان مايي (1866-1936)، وشارل بالي (1867-1947)، وبودوان دو كورتوني (1845-1929)، ولويس هافي (1849-1925)، وجيوفاني باسكولي (1855-1912)، وماكس فان برشام (1863-1921)، وفيل تموسون، ولقد جمعت الباحثة كلوديا ماخيا كيخانو جميع مراسلات دو سوسير في مؤلف واحد[293]. ولئن كنا نروم التوكيد على ما تبرزه هذه المراسلات من مسائل قد لا يسعنا الاطلاع عليها إلا من خلال التنقيب في هذه المراسلات، فإن اهتمام دو سوسير بالشعر العربي خير مثال على ذلك، وإنها لعمري لمسألة لم نجد من الباحثين المحدثين من أشار إليها ولو الإشارة العابرة.

لقد كان ماكس فان برشام ممن امتهن الأركيولوجيات « archéologie » الإسلامية، وفضلا عن صلة القرابة التي كثيرا ما كانت تقربه بدو سوسير منذ صباهما، فقد أسهم مشوارهما العلمي في توطيد هذه العلاقة وتمتينها طوال حياتهما. ولئن أكملا تعليمهما الابتدائي بالمدرسة نفسها بجنيف، والتحقا معا بجامعة ليبزغ الألمانية، ليتحصلا منها على دكتوراهما، فإن اهتماماتهما العلمية سرعان ما افترقت السبل بها، إذ بينما اتجه دو سوسير نحو مدارسة الألسن، انكب فان برشام على دراسة الحضارة الإسلامية ولسانها العربي، وتناول في دكتوراه موضوع، الملكية الإقليمية والضريبة العقارية في عهد الخلفاء الأولين[294]، وهي الرسالة التي تطورت عن مشروع ترجمة فصل من

---

[293] - C. Mejia Quijano, Une Vie en Lettres, (1866-1913) : Ferdinand de Saussure, Paris, Cecile Defaut, 2014.

[294] - M. Van Berchem, La propriété territoriale et l’impôt foncier sous les premiers califes. Etude sur l’impôt du Kharâg », Genève, Librairie de l’Université, 1886.

كتاب الماوردي حول ضريبة الخراج، وإنا نحسبه، استنادا إلى إشارة برشام في دكتوراه، الباب الثالث عشر، في وضع الجزية والخراج من كتابه الأحكام السلطانية[295].

وإنّا نقدم ههنا على افتراض فرضية لا نحسب أنها تنتفي إلى الصحة نظرا لصلة القرابة، وحجة الصداقة، وكثرة الاهتمامات المشتركة بين برشام ودو سوسير، العلمية والفنية والأدبية واللغوية، فرضية دعواها اطلاع دو سوسير على جانب غير قليل من الحضارة الإسلامية، بمناسبة لقاءاتهما الكثيرة ومحاوراتهما المثيرة. ولقد أشار أنور لوكا إلى أن ترتيب برشام لمراسلاته مع دو سوسير ضمن طائفة المراسلات العلمية وليس ضمن طائفة المراسلات العائلية لدليل على أن الرجلين كثيرا ما كانا يستشيران بعضهما البعض في كثير من المسائل التي شغلتهما[296].

ولعلّ الرّسالة التي بعث بها دو سوسير إلى برشام بتاريخ 25 جوان 1910 فيها من الدلائل على ما جئنا على ذكره، وإننا ننقلها ههنا على النحو الذي يلي. يقول دو سوسير في رسالته: «عزيزي ماكس. ألف شكر على الرأي الذي أسديته إليّ وعلى الدعوة التي أرفقتها به لأحضر إلى مدينة كران للاطلاع على الكتب. لست أعلم متى يحين ذلك، لكنني سأسعى إلى ذلك. سيكون لقائي بك من دواعي سروري، وإني لست من جهة أخرى أنسى مسألة « Ragnars Saga » التي قادتني إلى محاورتك عن الأصول العربية»[297]. إنها واحدة من مجموعة من الأساطير الإسكندينافية التي تتألف من خمس وعشرين أسطورة[298]، ولسنا نعلم ما إذا كانت هذه المحاورة استفسار من دو سوسير عن أصول عربية محتملة لهذه الأسطورة، أم إنه احتمال يعبر عنه إلى صديقه برشام، ولو كنا نستطيع الاطلاع على الرسائل التي بعث بها برشام إلى دو سوسير لأمكننا التحقق من هاتين الفرضيتين.

---

[295] – أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي، الكويت، مكتبة دار بن قتيبة، الطبعة الأولى، 1979، صص. 181–200.

[296] - A. Louca, « Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 29, 1974-1975, p. 25.

[297] - Idem, p. 32.

[298] - R. Broyer (tr.), Sagas légendaires islandaises, Textes traduits annotés avec le concours de J. Renaud, Toulouse, Anacharsis Editions, 2012.

دراسة البنيات الإيقاعية

لـم تنل بحوث دو سوسير في الأدب والشعر اهتمام الباحثين المحدثين، فقد غيّبت هيمنة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة وسطوته على العقول مائة عام خلت، هذا الملمح من فكره الغزير، على الرغم من العلاقات الوشيجة التي باتت مخطوطاته المنشورة حديثا تبرزها بين تفكيره اللساني والسيميائي وبحوثه في الأسطورة والجناسات التصحيفية. أما الأولى، ونعني بها بحوثه في الأسطورة، فهي مجموع البحوث التي باشرها منذ جوان 1903 إلى غاية أبريل 1911، وهي بحوث تعنى، إن جاز التعبير الحديث، بالتحليل البنوي للأسطورة، لاسيما الأسطورة الجرمانية، وعلم الأساطير المقارن. وقد ترك دو سوسير في هذا المجال من البحث كما كبيرا من المخطوطات المودعة بمكتبة جنيف.

وأما بحوثه في الجناسات التصحيفية فهي مجموع البحوث التي باشرها من نهاية سبتمبر 1905 وامتدت حتى نهاية محاضراته في اللسانيات العامة التي ألقها بجامعة جنيف خلال السنة الجامعية (1910-1911)، شهر جوان 1911. وفضلا عن هذا التزامن التاريخي بين الدرس اللساني والاهتمام الأدبي، فإن كثيرا من أفكار دو سوسير في السيميائيات منشؤها هذه البحوث الأدبية، على نحو ما بينه الباحثون مما اتصل بمسألة العلامة. لكن لم ينج مفهوم العلامة لم ينج مفهوم العلامة من الخلل، شأنه شأن كثير من المفاهيم التي روج لها كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، ومرد هذا الخلل في نظر فرانسوا راستيي إلى الاختزال الذي مارسه عليه شارل بالي وألبير سشهاي، فقد قدما العلامة على أنها كيان مستقل عن باقي العلامات المجاورة، سواء أكانت المجاورة خطية أو استبدالية، وعلى أنها مكونة من دال ومدلول، لكل منهما استقلال ذاتي[299].

صحيح أن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة أشار في بعض مواطنه إلى المستويين التركيبي والاستبدالي، بيد إن المخطوطات التي عثر عليها تستخدم تمييزا آخر. لقد ميز دو سوسير بين الكلام الفعلي، الموجود حقيقية والكلام الكامن، أما الكلام الفعلي فهو كل تركيب ناجم عن تواجد عدد من

---

299 - F. Rastier, Saussure au futur, Paris, les Belles Lettres, 2015, p. 64.

العناصر ضمن جزء من الكلام، وأما ما هو كامن من الكلام فهو مجموعة العناصر المدركة من قبل العقل ومرتبطة فيما بينها[300]. ولئن أبنا إلى كتاب المحاضرات ورمنا التعرف على التصور الذي يروجه عن العلامة اللسانية لألفيناه يسند إليها مبدأين رئيسين هما مبدأي اعتباطية العلامة اللسانية وخطية الدال، وهما مبدأين لا يخلوان من ضبابية.

وعلى الرغم من اجتهادهما في الوفاء لتصور دو سوسير عن العلامة، فإن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة الذي وضعاه يختزله اختزالا شنيعا، إذ فضلا عن تصورهما العلامة مستقلة عن باقي العلامات المجاورة لها، وتجريدها عن وجودها الخطابي، جرداها من ميزة ثانية تكاد تكون جوهرية، هي خاصية تبليغها. إن للعلامة حركية عبر الزمن ليست في نظر دو سوسير ميزة خارجية عنها، بل هي في حقيقة أمرها ميزة داخلة جوهرية فيها، مُؤسسةً لها. ولقد تنبه جُوان فهر إلى هذه الميزة المنسية من فكر دو سوسير، ولكن الطريف أنه لا يستند في إثباتها إلى كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، أو إلى سائر أعمال دو سوسير اللسانية سواء المخطوطة أو تلك التي تم تحقيقها ونشرها مؤخرا، وإنما اجتهد في توكيدها باستطلاع أعماله حول الأساطير[301].

ولقد كان دو سوسير، بالتوازي مع أعماله في اللسانيات العامة، واللسانيات التاريخية والمقارنة، وغيرها من اهتماماته اللسانية، يجتهد خلسة بعيدا عن مسامع معاصريه من اللسانيين وأنظارهم في فك بعض رموز نصوص أدبية، منها نصوص عن الأسطورة الجرمانية وعلم الأساطير المقارن، وأخرى عن الجناسات التصحيفية. بيد إن مقاربة تصورات دو سوسير الأدبية ليس مشروعا يمكن الاضطلاع به في الوقت الراهن، ولعله مجازفة لا تخلو من مخاطر، لعدم تحقيق مخطوطاته المودعة بمكتبة جنيف ونشرها عن آخرها حتى يصل الباحث إلى تكوين فكرة عامة، شاملة، عنها. لكن ما أضحى معلوما من اهتمامات دو سوسير الأدبي أنه اهتم بمسائل تتصل بالأصول التاريخية للأساطير الجرمانية والاسكندنافية وانتقالها، ولقد كان تكوّن الشخصيات

---

[300] - F. de Saussure, Ecrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002, p. 61.

[301] - J. Fehr, Saussure entre linguistique et sémiologie, tr. P. Caussat, Paris, P. U. F., 2000, p. 118.

الأسطورية أهم المسائل التي نظر فيها، ولقد باتت في تصوره رموزا إلى تحولات متوالية عبر الزمن في الحياة الاجتماعية، وهي في الآن ذاته موضوعات سيميولوجية يتوجب البحث في طرائق عملها[302].

إن النصوص التي اطلع عليها تستنوار بمكتبة جنيف، وهي نصوص تبحث في الأسطورة، تستكشف طابعها السيميولوجي، وفي بعض صفحات هذه المخطوطات يبرز دو سوسير هذه الميزة بقوله: «إن دراسة الأساطير تشترك في ميدان اللسانيات المتاخم لها في كونها تستظهر كائنا لا وجود له، من مثل الكلمة، والشخصية الأسطورية، والحروف الأبجدية، التي ليست سوى أشكالا مختلفة من العلامة، بمعناها الفلسفي»[303].

ولئن كان تحول العلامة عبر الزمن وانتقالها من جيل إلى آخر تعد خصيصة كامنة فيها، غير مضافة فيها، لا نجد لها حضورا في كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة المنسوب إلى دو سوسير، فإن الكتاب ذاته لم يعبر فضلا عن ذلك تعبيرا صادقا عن طبيعة العلامة اللسانية ولا عن المفاهيم المتصلة بها، وهو ما يفسر جملة النقود التي وجهت إلى تفكير دو سوسير، لاسيما فيما تعلق بمبدأي الاعتباطية وخطية الدال. وفضلا عن هذا التقصير في إيراد جميع الخصائص المكونة لمفهوم العلامة، لم يتنبه شارل بالي وألبير سشهاي إلى التعدد الدلالي التي اكتنفه، فلقد تبين لسيمون بوكي، بما توفر له من مخطوطات، أن دو سوسير كان يستعمل مصطلح العلامة دالا تارة على الوحدة القائمة بين المفهوم والصورة الصوتية، وتارة أخرى يقتصر مدلوله على الصورة الصوتية[304].

ولئن كان اهتمام دو سوسير باللسانيات لا ينفك عن اهتمامه بالأدب والشعر والترجمة، فإن عنايته بالعشر العربي تستند إلى هذه الرابطة الوشيجة، لكن عثورنا على عدد من مراسلات دو سوسير مع ماكس برشام أتاح لنا فرضية

---

[302] - P.-Y. Testenoire, Littérature orale et sémiologie saussurienne, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz (dir.), En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012, p. 62.

[303] - Bibliothèque de Genève (BGE), Ms fr. 3958/9, fol. 21r., repris dans P.-Y. Testenoire, Littérature orale et sémiologie saussurienne, p. 63.

[304] - S. Bouquet, « Benveniste et la représentation du sens : de l'arbitraire du signe à l'objet extra-linguistique », Linux, n° 9, 1997, p. 117.

اندراج اهتمام دو سوسير بالشعر العربي ضمن اهتمامه بالشعر عموما، وخصوصا دراساته حول نظم الشعر، ومنها دراساته حول البنيات الإيقاعية في اللسان اليوناني، والتنغيم البلطيقي، ومنها الرسالة التي بعث بها إلى صديقه ماكس برشام يكتب إليه ما يلي: «عزيزي ماكس. عذرا على إزعاجك في استراحتك الألبية، أريد فقط أن أستفسر منك إذا ما كان نظم الأشعار عند العرب يستند إلى مبدأ مقطعي « syllabique »؟ = عدد المقاطع، أو نبري « accentuel »؟، أو كمي « quantitatif »؟ لأني لا أجد، حاليا، سوى هذه المبادئ الثالثة الممكنة لنظم الشعر، وغالبا ما يشترك مبدأين معا من هذه المبادئ في ذلك. لا يمكنني أن أذكر سوى نظم الشعر اليوناني الذي يقوم على مبدأ الكمية. إن معظم الأنساق تبرز تأليفا بين المقطعية والنبر، أو النبر والكمية، أو الكمية والمقطعية، الخ. ولئن وسعني الاقتصار، فيما أرومه، على الألسن الهندية الأوروبية، فإنه يهمّني معرفة ما إذا كان هنالك أصل آخر، غير النبر والكمية وعدد المقاطع، اكتشف كعنصر من عناصر الإيقاع « rythme »، ومن ثم للبيت الشعري. أجبني عندما يسنح لك الوقت، وشكرا مسبقا»[305].

من الظاهر أن اللسان العربي لـم يكن من بين الألسن التي كان لدو سوسير دراية بها، لكنه اجتهد في الولوج إلى عالم الإيقاع في الشعر العربي من طريق الكتاب الذي أرسله إليه صديقه ماكس فان برشام، وهو كتاب المستشرق ستانيسلاز غيار (1846-1884)، «نظرية جديدة في عروض الشعر العربي»[306]، على نحو ما يكشف عنه في الرسالة التي بعث بها لبرشام في التاسع من شره جويلية 1906، «عزيزي ماكس. لقد وصلتني رسالتك أمس، واستلمت اليوم مجلد غِيار الذي كنت أخبرتني عنه. وإن لأشكرك على الاثنين. إن كل ما كتبه غيار الفذ، والذي لازلت أحتفظ بذكرى جلية عنه، كله واضح ولقد أحسنت الاختيار في إرشادي إلى ما يجب أن أقرأ بخصوص موضوع أجهله من كل جوانبه، من مثل الشعر العربي. وإنه من اليسير جدا متابعته في المسائل العامة، بيد إنه من العسير تتبعه في المسائل الجزئية، عندما يلج إلى الفيلولوجيات العربية الخالصة. أشكرك مرة أخرى على هذا الإرسال»[307].

[305] - A. Louca, « Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem », p. 35.

[306] - S. Guyard, Théorie nouvelle de la métrique arabe, précédée de considérations générales sur le rythme naturel du langage, Paris, Leroux, 1877.

[307] - A. Louca, « Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem », p. 36.

والكتاب مؤلف، كما هو بين أيدينا، من مقدمة وثلاثة أبواب، أما الباب الأول فيعرض لبحور الشعر العربي، وأما الباب الثاني فيعرض لأنواع هذه البحور، وأما الباب الثالث فيعالج مسألة الإيقاع في الكلمات. إن النظرية التي أسس لها ستانيسلاز غيار في كتابه هذا تستند إلى القول بأن أصل بحور الشعر العربي القديم منشأه طبيعة الكلمات العربية ذاتها، أي أن الإيقاع الخاص بالكلم العربي هو الرافد الرئيس لتشكيل العروض العربي[308].

يبدو لنا أن دو سوسير لـم يجد ضالته على إثر قراءته لكتاب غِيار، على الرغم من أن الكتاب اجتهد في تبيان طبيعة إيقاعات الشعر العربي القديم، واستدعى لأجل وصفها مفاهيم متداولة وأخرى ابتكرها من مثل المفهوم الذي يدل عليه مصطلح « ictus » قصد تمييز عن مفهوم « accent tonique ». ولأجل ذلك، فإن مسألة عناية دو سوسير بالشعر العربي تبقى مسألة عالقة، ونحن ما نزال نرتقب تحقيق مزيد من مخطوطاته المودعة بمكتبتي جنيف وهارفارد، ونشرها، حتى يتبين الباحثون مما وضعوا من فرضيات حول مشروعه اللساني، والفلسفي، والسيميائي، وما ركنوا إليه من مسلمات حول اهتماماته بالشعر.

---

308 - S. Guyard, Théorie nouvelle de la métrique arabe, p. 37.

مكتبة المُراجع

مدوّنة فرديناند دو سوسير

مدوّنة فرديناند دو سوسير الفرنسية

- Saussure F. de, Corso di linguistica generale, edizione critica di Tulio de Mauro, Roma, Editions Laterza, 1967. F. de Saussure, Cours de linguistique générale, édition critique Tulio de Mauro, Paris, Payot, 1972.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale (1908-1909). Introduction d'après les notes d'étudiants, édité par R. Godel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, 1957.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale (1908-1909). Introduction (d'après des notes d'étudiants), éd. R. Godel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, 1957.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale de F. de Saussure, tome I, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, 1968.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale de F. de Saussure, tome II : appendice, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, 1974.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Wiesbaden, Harrassowitz, tome I, 1967, tome II (appendice), 1974.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale, édition critique par R. Engler, Tome 1, Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1968.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration d'A. Riedlinger, Paris, Payot, 1971.
- Saussure F. de, Cours de linguistique générale, publié par C. Bally et A. Sechehaye, avec la collaboration d'A. Riedlinger, édition critique par T. de Mauro, Paris, Payot, 1972.
- Saussure F. de, Curso de lingüística general, tr. Amado Alonso, Buenos Aires, Losada, 1945.

- Saussure F. de, Deuxième cours de linguistique générale (1908-1909), d'après les cahiers d'Albert Riedlinger et Charles Patois, édité par E. Komatsu, Tokyo, Pergamon, 1997.
- Saussure F. de, Ecrits de linguistique générale, texte établi et édité par S. Bouquet et R. Engler, Pris, Gallimard, 2002.
- Saussure F. de, La grammaire du gotique, éd. A. Rousseau, Paris, Honoré Champion, 2018.
- Saussure F. de, Troisième cours de linguistique générale (1910-1911) d'après les cahiers d'Emile Constantin, édité par E. Komatsu, Tokyo, Pergamon, 1993.

مدوّنة فرديناند دو سوسير العربية

- فرديناند دو سوسير، في جوهري اللغة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، تر. مختار زواوي، بيروت، دار ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية، 2019.
- فرديناند دو سوسير، نصوص في اللسانيات العامة، تح. سيمون بوكي ورودلف أنغلر، بيروت، دار ابن النديم ودار الروافد الثقافية–ناشرون، الطبعة الأولى، 2021.

مراجع أخرى

مراجع عربية

- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح. أحمد مبارك البغدادي، الكويت، مكتبة دار بن قتيبة، الطبعة الأولى، 1979.
- أبو العباس عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، تح. عرفان مطرجي، ويليه العلم الخفاق من علم الاشتقاق لمحمد صديق حسن خان، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، 2012.
- أبو الفتح عثمان ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح. حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، الطبعة الثانية، 1993
- أبو القاسم جعفر الزمخشري، المفصل في علم العربية، تح. فخر صالح قدارة، الأردن، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2004.
- أبو الوليد ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس في العبارة، تح. محمد سليم سالم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978.
- أبو حامد الغزالي، قانون التأويل، تح. محمود بيجو. دمشق، الطبعة الأولى، 1993.
- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح. أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، دار مكتبة الحياة، د. ت.
- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تح. هيثم خليفة الطعيمي، بيروت، المكتب العصرية، 2011.
- أبو علي الحسين ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، تح. محب الدين الخطيب، القاهرة، مطبعة المؤيد، 1332 ه.
- أبو يعقوب يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، تح. نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1987.

- إسخليوس، أجممنون، تر. لويس عوض، القاهرة، الدار القومية للنشر والتوزيع، د. ت.
- بسام بركة، معجم اللسانية، بيروت، منشورات جروس - برس، الطبعة الأولى، 1985.
- بسام بركة، معجم اللسانية، طرابلس، لبنان، منشورات جروس برس، الطبعة الأولى، 1985.
- بول ريكور، الاستعارة الحية، تر. محمد الولي، مر. جورج زيتاني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2016.
- حاتم صالح الضامن، الصرف، الموصل، دار الحكمة للطباعة والنشر، 1991.
- شمس الدين ابن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، بيروت، دار الكتب العلمية، 2019.
- طه عبد الرحمن في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الرباط، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000.
- عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح. خليل شحادة، مر. سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 2001.
- عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب. في نظرية الوضع والاستعمال العربية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2012.
- عبد السلام السيد حامد، الشكل والدلالة، دراسة نحوية للفظ والدلالة، القاهرة، دار غريب للطباعة، والنشر والتوزيع، 2002.
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، تونس، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 1986.
- عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984.
- عبد القادر الفاسي الفهري، بمشاركة نادية العمري، معجم المصطلحات اللسانية، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2009.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمد محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2000.
- عبد الواحد وافي، علم اللغة، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة، 2004.

- لويك دوبيكر، فهم فرديناند دو سوسور وفقا لمخطوطاته. مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات، تر. ريما بركة، مر. بسام بركة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2015.
- مبارك مبارك، معجم المصطلحات الألسنية، بيروت، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1995.
- محمد حسن باكلا وآخرون، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1983.
- محمد عبد السلام شرف الدين، الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيرية، القاهرة، دار مرجان للطباعة، الطبعة الأولى، 1984.
- محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.
- مختار زواوي، دو سوسير من جديد. مدخل إلى اللسانيات، بيروت، دار الروافد ناشرون، 2018.
- مختار زواوي، سيميائيات ترجمة النص القرآني، وهران، بيروت، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد، الطبعة الأولى، 2015.
- مريم سلامة كار، الترجمة في العصر العباسي، تر. نجيب غزاوي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1998.
- مصطفى حركات، اللسانيات العامة وقضايا العربية، بيروت، الكتب العصرية، الطبعة الأولى، 1998.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، تونس، الطبعة الأولى، 1989.
- نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، بنغازي، منشورات جامعة قان يونس، الطبعة الأولى، 1996.

مراجع أجنبية

- Althusser L., Pour Marx, Paris, François Maspero, 1966.
- Ambroise B., « Le tournant cognitif en pragmatique. Un aller-retour transatlantique et ses impacts philosophiques », Revue d'Histoire des Sciences Humaines, vol. 2, n° 25, 2011
- Arago J. M., « F. de Saussure, Curso de lingüística general, traduction et commentaire du professeur Amado Alonso, édition Losada (1945), Buenos Aires », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 5, 1945.
- Arrivé M. et al., La grammaire d'aujourd'hui. Guide alphabétique de linguistique française, Paris, Flammarion, 1986.
- Badir S., « La sémiologie selon L. J. Prieto », Linx, n° 44, 2001.
- Balacescu I. et Stefanink B., « Défense et illustration de l'approche herméneutique en traduction », Meta, vol. 50, 2005.
- Baltaretu Thénault C., La renaissance néosaussurienne du paradigme différentiel en linguistique et son illustration négative par la théorie du présent de l'indicatif en français, thèse de Doctorat soutenue le 09 décembre 2014, sous la direction de Simon Bouquet, Paris, Université Paris Ouest Nanterre.
- Barthes R. par Roland Barthes, Paris, Seuil, 1980.
- Barthes R., « Éléments de sémiologie », Communications, n° 4, 1964, Recherches sémiologiques.
- Barthes R., « Présentation », Communications, n° 4, 1964.
- Barthes R., Mythologies, Paris, Seuil, 1957.
- Barthes R., Système de la mode, Paris, Seuil, 1957.
- Benveniste E., « La forme et le sens dans le langage », 1966, Actes du XIIIe Congres des Sociétés de philosophie de langue française, Le Langage, Genève, La Baconnière, 1967.
- Benveniste E., Problèmes de linguistique générale, II, Paris, Gallimard, 1974.
- Berchem M. Van, La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes. Etude sur l'impôt du Kharâg », Genève, Librairie de l'Université, 1886.
- Biasi P.-M. de, La génétique des textes, Paris, Nathan, 2000.
- Blancke B. et Posner R., « La pragmatique implicite dans l'œuvre de Luis J. Prieto », Semiotica, fasc. 122, n° 3-4, 1998.
- Blanke B. et Posner R., « La pragmatique implicite dans l'œuvre de Luis J. Prieto », Semiotica, vol. 122, n° 3/4, 1998.

- Boberg C., Nerbonne J. & Watt D. (éd.), The Handbook in Dialectology, Oxford, Wiley Blackwell, 2018.
- Bouquet S., « Benveniste et la représentation du sens : de l'arbitraire du signe à l'objet extra-linguistique », Linux, n° 9, 1997.
- Bouquet S., « Principes d'une linguistique de l'interprétation : une épistémologie néosaussurienne », Langages n° 185, 2012.
- Bouquet S., « Principes d'une linguistique de l'interprétation : une épistémologie néosaussurienne », Langages, n° 185, 2012.
- Bouquet S., Introduction à la lecture de Saussure, paris, Payot, 1997.
- Broyer R. (tr.), Sagas légendaires islandaises, Textes traduits annotés avec le concours de J. Renaud, Toulouse, Anacharsis Editions, 2012.
- Cabré M. T., Terminology. Theory, methods and applications, tr. J. Ann De Cesaris, Philadelphia, John Benjamins Publishing Company, 1998.
- Cantineau J., Cours de phonétique arabe, Paris, Klincksieck, 1960.
- Capt-Artaud M.C., « In Memoriam. Linguistique, épistémologie et sciences humaines : l'apport de Luis Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 49, 1995-1996.
- Capt-Artaud M.C., « Qu'est-ce que la relation de signification. L'apport de Luis Prieto à la science sémiologique », Semiotica, vol. 122, n° 3/4, 1998.
- Champion F., « La non-conformité de Luis J. Prieto est-elle critique ? ou les apports de la théorie de Prieto à la recherche en acquisition des langues », Linx, n° 49, 2003.
- Charnock R., « Problèmes de métalangue – au-delà de l grammaire », Linx, n° 36, 1997.
- Delas D., La pensée saussurienne et la génétique des textes littéraires, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz, En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature ?, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012.
- Dessons G., « Du discursif », Langage, n° 159, 2005.
- Dubois J. et al., Dictionnaire de linguistique et science du langage, Paris, Larousse, 2007.
- Ducrot O., « Chronique linguistique », L'Homme, tome 7, n° 2, 1967.
- Ducrot O., « Structuralisme, énonciation et sémantique », Poétique, n° 33, 1978, repris dans Le dire et le dit, Paris, Minuit, 1984.
- Ducrot O., Dire et ne pas dire. Principes de sémantique linguistique, Paris, Hermann, 1972.
- Ebel M. et Fiala M., « Présupposition et théorie du discours », Cahiers Vilfredo Pareto, n° 32, 1974.

- Eco E., « La pertinence de Luis Prieto », tr. C. Forel, Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007.
- Eco E., La structure absente. Introduction à la recherche sémiotique, tr. U. Esposito-Torrigiani, Paris, Mercure de France, 1972.
- Eco U., « La pertinence de Luis Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007.
- Eco U., Dire presque la même chose, Expérience de traduction, tr. M. Bouzaher, Paris, Grasset, 2003.
- Économie des changements phonétiques, Berne, Francke, 1955.
- Engler R., « European Structuralism : Saussure », in Current trends in Linguistics, vol. 13, Historiography of Linguistics, The Hague-Paris, Mouton, 1975.
- Engler R., « La question des signes zéro », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 11, 1953.
- Engler R., « Premiers spécimens d'un index des matières du CLG/E », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 31, 1977.
- Fedda E., « Le lieu théorique de la sémiologie de L. J. Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 54, 2001.
- Fedda E., An Alternative Perspective on Language and Social Ontology : Langage as a Condition and Langue as a (Possible) Model », in C. Stancati & alii (éds), The Nature of Social Reality, Stratford-upon-Tyne, Cambridge Scholars Publisher, 2013.
- Fehr J., Saussure entre linguistique et sémiologie, tr. P. Caussat, Paris, P. U. F., 2000.
- Firth J.R., Linguistics and translation, in Selected Papers, London, Longman, 1956.
- Frei H., « Saussure contre Saussure ? », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 9, 1950.
- Gadamer G., Vérité et méthode, tr. P. Fruchon, J. Grondin et G. Merlio, Paris Seuil, 1976.
- Gambarara D., « Présentation », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007.
- Gambarara D., « Un texte original. Présentation des textes de F. de Saussure », *Cahiers Ferdinand de Saussure*, n° 58, 2008.
- Gautier L., « Entretien avec M. De Saussure, 6 Mai 1911 », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 58, 2005.
- Gillon B. S., « Du sens littéral », Philosophiques, vol. 33, n° 1, 2006.

- Godel R., « Inventaire des manuscrits de F. de Saussure remis à la Bibliothèque Publique et Universitaire de Genève », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960.
- Godel R., « Inventaire mes manuscrits de F. de Saussure remis à la Bibliothèque Publique et Universitaire de Genève », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960.
- Godel R., « Notes inédites de F. de Saussure », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 12, 1954.
- Godel R., « Souvenirs de F. de Saussure concernant sa jeunesse et ses études », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960.
- Godel R., Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale, Genève, Droz, 1957.
- Greimas A. J. et Courtés J. et *al.*, Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Tome 2, Paris, Hachette, 1986.
- Greimas A. J. et Courtés J., Sémiotique. Dictionnaire raisonné des sciences du langage, Paris, Hachette, 1972.
- Greimas A. J., « Problèmes sémiotiques de la traduction. La traduction de la Bible », Sémiotique et Bible, n° 32, 1983.
- Greimas A.-J., Sémantique structurale, Paris, éd. P. U. F., 1986.
- Grice P., Logic and conversation in Studies in the Way of Words, Cambridge, Harvard University Press, 4 ed., 1995.
- Guyard S., Théorie nouvelle de la métrique arabe, précédée de considérations générales sur le rythme naturel du langage, Paris, Leroux, 1877.
- Hagège C., « Extraits de la correspondance de N. S. Troubetzkoy (1969/2), in H. Walter et C. Feuillard (dir), Pour une linguistique des langues, Paris, P. U. F., 2007.
- Henry P., Le mauvais outil, Paris, Klincksieck, 1977.
- Hjelmslev L., « l'analyse structurale du langage. (1948) », tr. J.-F. Brunaud, in Essais linguistiques, Paris, Minuit, 1971.
- Hjelmslev L., Prolégomènes à une théorie du langage, tr. U. Granger, Paris, Minuit, 1971.
- Hockett C. F., A Course in Modern Linguistics, New York, MacMillan, 1958.
- Humboldt Wilhelm von, Aeschylos Agamemnon, Leipzig, Bei Berhard Fleischer, 1816.
- Jakobson R., La linguistique, in Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales, Première partie, préface de R. Maheu, Paris-La Haye, Mouton-Unesco, 1970, p. 550.

- Jakobson R., Linguistics and Poetics, in T. Sebeok (éd.), Style in Language, Cambridge, M.I.T. Press, 1960, repris dans Essais de linguistique générale, Paris, Minuit, 1963.
- Jervolino D., Paule Ricoeur. Une herméneutique de la condition humaine, Paris, Ellipses, 2002.
- Klinkenberg J.-M., Précis de sémiotique, Paris, Seuil, 1996.
- La Fontaine J. de, Les Fables précédées de La vie d'Esope le phrygien, Paris, J. Vermot, 1880.
- Larcher P., « Quand, en arabe, on parlait de l'arabe... Essai sur la méthodologie de l'histoire des 'Métalangages arabes' (I) », Arabica, tome 35, fasc. n° 2, 1988.
- Lo Piparo F., « Saussure et les Grecs », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 60, 2007.
- Louca A., « Lettres de Ferdinand de Saussure à Max van Berchem », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 29, 1974-1975.
- Lundquist L., « Cohérence : marqueurs d'orientation argumentative et programme argumentatif, Semantikos, vol. 9, n° 2, 1986.
- Lyon J., Sémantique linguistique, tr. par J. Durand et D. Boulonnais, Paris, Larousse, 1980, pp. 59-100.
- Lyons J., Eléments de sémantique, tr. J. Durand, Paris, Larousse, 1978.
- Martinet A., La Description phonologique avec application au parler franco-provençal d'Hauteville (Savoie), Genève, Droz, 1956.
- Martinet A., La gémination consonantique d'origine expressive dans les langues germaniques, Copenhague, Munksgaard, 1937.
- Martinet A., La phonologie du mot en danois, Paris, Klincksieck, 1937.
- Martinet A., La prononciation du français contemporain, Paris, Droz, 1945.
- Martinet A., Syntaxe générale, Paris, Armand Colin, 1985.
- Martinet, « Où en est la phonologie », Lingua, vol. 1, 1949, pp. 34-58.
- Mauro T. de, « Saussure sur le chemin de la linguistique », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 59, 2006.
- Mejía Quijano C. et Restrepo Montoya N., « F. de Saussure, traducteur », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 61, 2008.
- Mejía Quijano C., « L'aposème, unité de parole », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 52, 1999.
- Mejía Quijano C., « L'ouvrage d'un philologue artiste », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 58, 2005.

- Mejía Quijano C., « Unde Exoriar », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 50, 1997.
- Mejía Quijano C., Le cours d'une vie. Portrait diachronique de Ferdinand de Saussure, Tome 1, Nantes, Cécile Defaut, 2008.
- Mejía Quijano C., Une Vie en Lettres, (1866-1913) : Ferdinand de Saussure, Paris, Cecile Defaut, 2014.
- Metz C., « Remarque sur le mot et sur le chiffre. A propos des conceptions sémiologiques de Luis J. Prieto », La linguistique, vol. 3, fasc. 2, 1967.
- Mounin G., Les problèmes théoriques de la traduction, Paris, Gallimard, 1963.
- Odgen C. K. & Richards I. A., The Meaning of Meaning, New York, Harcourt, Brace & World, Inc, 8 éd., 1946
- Paveau A.-M. et Safati G.-E., Les grandes théories de la linguistique, Paris, A. Colin, 2003.
- Pinault G.-J., Procédés paninéens, in S. Auroux (éd.), Histoire des idées linguistiques, Tome 1, La naissance des métalangages en Orient et en Occident, 1989.
- Popper K., « Philosophical Comments on Tarski's Theory of Truth », in Objective knowledge, A Evolutionary Approach, Oxford, Larendon Press, 1979.
- Prieto L. J., « A propos de la commutation », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 17, 1960, pp. 53-63.
- Prieto L. J., « Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15 », Word, n° 14, 1958.
- Prieto L. J., « Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 15, Genève, Droz, 1957 », Word, vol. 14, n°.
- Prieto L. J., « Ferdinand de Saussure (1857-1913) : Cours de linguistique générale, 1916), in En français dans le texte : Dix siècles de lumière pour le livre, Paris, Bibliothèque Nationale, 1990.
- Prieto L. J., « Fonction et économie », La Linguistique, n° 1, 1966, pp. 1-13 et n° 2, 1966.
- Prieto L. J., « J. R. Firth, Papers in Linguistics, 1934-1951, Londn, Oxford University Press, 1957.
- Prieto L. J., « La notion de noème », Proceedings of the ninth international Congress of linguists, [Cambridge, Mass. 1962], La Haye, Mouton & Co., 1964.
- Prieto L. J., « R. Godel, Les sources manuscrites du 'Cours de linguistique générale' de Ferdinand de Saussure », Word, n° 14, 1958.
- Prieto L. J., « Remarques sur la nature des oppositions distinctives basées sur l'accentuation monotonique libre, Revista de la Facultad de Filosoffa y Hurnanidades 4/1-3, Cordoba, 1952.

- Prieto L. J., « Sémiologie », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 50, 1997
- Prieto L. J., « Signe articulé et signe proportionnel », Bulletin de La Société de linguistique de Paris, vol. 50, fasc. 1, 1949.
- Prieto L. J., « St. Ullmann, The Principles of Semantics », Romance Philology, n° 14, 1960.
- Prieto L. J., « Traits oppositionnels et traits contrastifs », Word, vol. 10, n° 1, 1954.
- Prieto L. J., Figures de l'expression et figures du contenu, in Etudes de linguistique et sémiologie générales, Genève, Droz, 1975.
- Prieto L. J., La langue et les parlants, in L'Aventure humaine, encyclopédie des sciences de l'homme: vol. L'homme et les autres, Paris, Ed. de la Grange-Batelière, 1967.
- Prieto L. J., La sémiologie, in A. Martinet (dir.), Le langage, Paris, Gallimard, 1968.
- Prieto L. J., Messages et signaux, Paris, P. U. F., 1966.
- Prieto L. J., Pertinence et pratique. Essai de sémiologie, Paris, Editions Minuit, 1975.
- Prieto L. J., Principes de noologie. Fondements de la théorie fonctionnelle du signifié, Préface d'André Martinet, The Hague, Mouton et CO., 1964.
- Prieto L. J., Studies in linguistic analysis, Special Volume of the Philological Society, Oxford, Basic Blackwell, 1957 », Word, n° 14, 1958.
- Rastier F., « De l'essence double du langage, un projet révélateur », Arena Romanistica, De l'essence double du langage et le renouveau du saussurisme Numéro spécial à l'occasion du centenaire de la mort de Ferdinand de Saussure (1857–1913), n° 12, 2013.
- Rastier F., « Lire les textes de Saussure », Langages, n° 185, 2012.
- Rastier F., Saussure au futur, Paris, Les Belles Lettres, 2015.
- Rastier F., Systématique des isotopies, in A. J. Greimas et al., Essai de sémiotique poétique, Paris, Larousse, 1972.
- Redard G., « Hommage à L. J. Prieto », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 45, 1991.
- Rey J. -Debove, « Les logiciens et le métalangage naturel », Histoire Épistémologie Langage, tome 1, fascicule 1, 1979.
- Ricoeur P., La métaphore vive, Paris, Seuil, 1975.
- Ricoeur P., La métaphore vive, Paris, Seuil, 1975.
- Ricoeur P., Sur la traduction, Paris, Bayard, 2004.

- Rondeau G., Introduction à la terminologie, Québec, Gaëtan Morin, 2e éd., 1984.
- Sadock J. M., Figurative speech and Linguistics, in A. Ortony (dir.), Metaphor and thought, Cambridge, Cambridge University Press, 2e ed., 1993.
- Searle J. R., Les actes de langage. Essai de philosophie du langage, tr. H. Pauchard, préface de O. Ducrot, Paris, Hermann, 1972.
- Searle J., Language and social ontology, in Theory and Society, n° 37, 2008.
- Searle J., Making the social world : the structure of human civilization, Oxford, Oxford UP, 2010.
- Searle J., The construction of social reality, New York, Free Press, 1995.
- Sharifain F. (ed.), Advances in Cultural Linguistics, Melbourne, Springer, 2017.
- Starobinski J., Les mots sous les mots. Les anagrammes de Ferdinand de Saussure, Paris, Gallimard, 1971.
- Steiner G., Après Babel. Une poétique du dire et de la traduction, tr L. Lotringer, Paris, Albin Michel, 1978.
- Tarski A., « The Semantic Conception of Truth: and the Foundations of Semantics », Philosophy and Phenomenological Research, vol. 4, n° 3, 1944.
- Tarski A., Logique, sémantique, mathématique, 1923-1944, Paris, A. Colin, 1974.
- Testenoire P.-Y., Littérature orale et sémiologie saussurienne, in S. Bédouret-Larraburu et G. Prignitz (dir.), En quoi Saussure peut-il nous aider à penser la littérature, Pau, Presses Universitaires de Pau, 2012.
- Testenoire P.-Y., Littérature orale et sémiologie saussurienne.
- Troubetzkoy N. S., Principes de phonologie, tr. J. Cantineau, Paris, Klincksieck, 1949.
- Ullmann S., Précis de sémantique française, Berne, A. Francke, 1952.
- Vachek J., « Phonemes and phonolgical units », Travaux du Cercle linguistique de Prague, vol. 6.
- Vuissoz F., La conception sémantique de la vérité. Logique et philosophie chez Alfred Tarski, Neuchâtel, Centre de Recherches Sémiologiques, 1998.
- Watkins C., « Remarque sur la méthode de Ferdinand de Saussure comparatiste », Cahiers Ferdinand de Saussure, n° 32, 1978.
- Whitehead A. & Russell B., Principia mathématica, Cambridge, Cambridge University Press, 1910.
- Wierzbicka A., Cross-cultural Pragmatics, The Hague, Mouton De Gruyter, 2ed., 2003.

- Wundeli P., « F. de Saussure : Synchronie, diachronie, panchronie », dans Louis Hébert (dir.), Signo [en ligne], Rimouski Québec), http://www.signosemio.com/saussure/sychronie-diachronie.pdf.

المحتويات

القسم الثاني – بحوث سوسيرية